

إلى

~~29704-64104-81~~

بيروت - التروعة
صالح القنبر
تجيلة

297.04:G41fA

• الغزالي، محمد •

• في موكب الدعوة •

MAR 8

A443

297.04
G41fA

~~18 MAY 1987~~

JAFET LIB.

~~18 MAY 1980~~

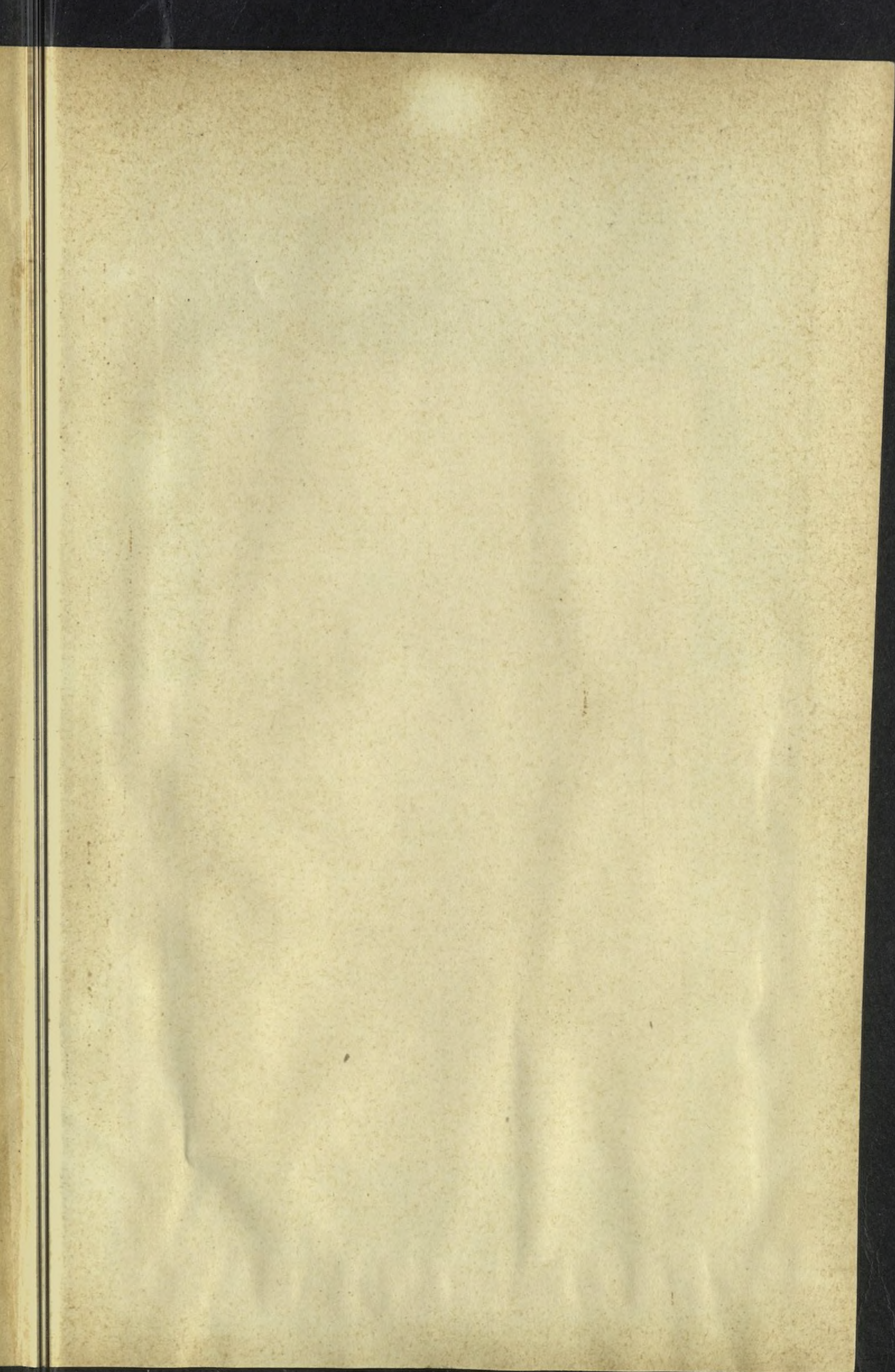
JAFET LIB.

~~18 MAY 1980~~

~~1 - FEB 1972~~

~~1 - JUN 1972~~

~~25 APR 1987~~



محمد الغزالي

297.04
G41 fA
C.1

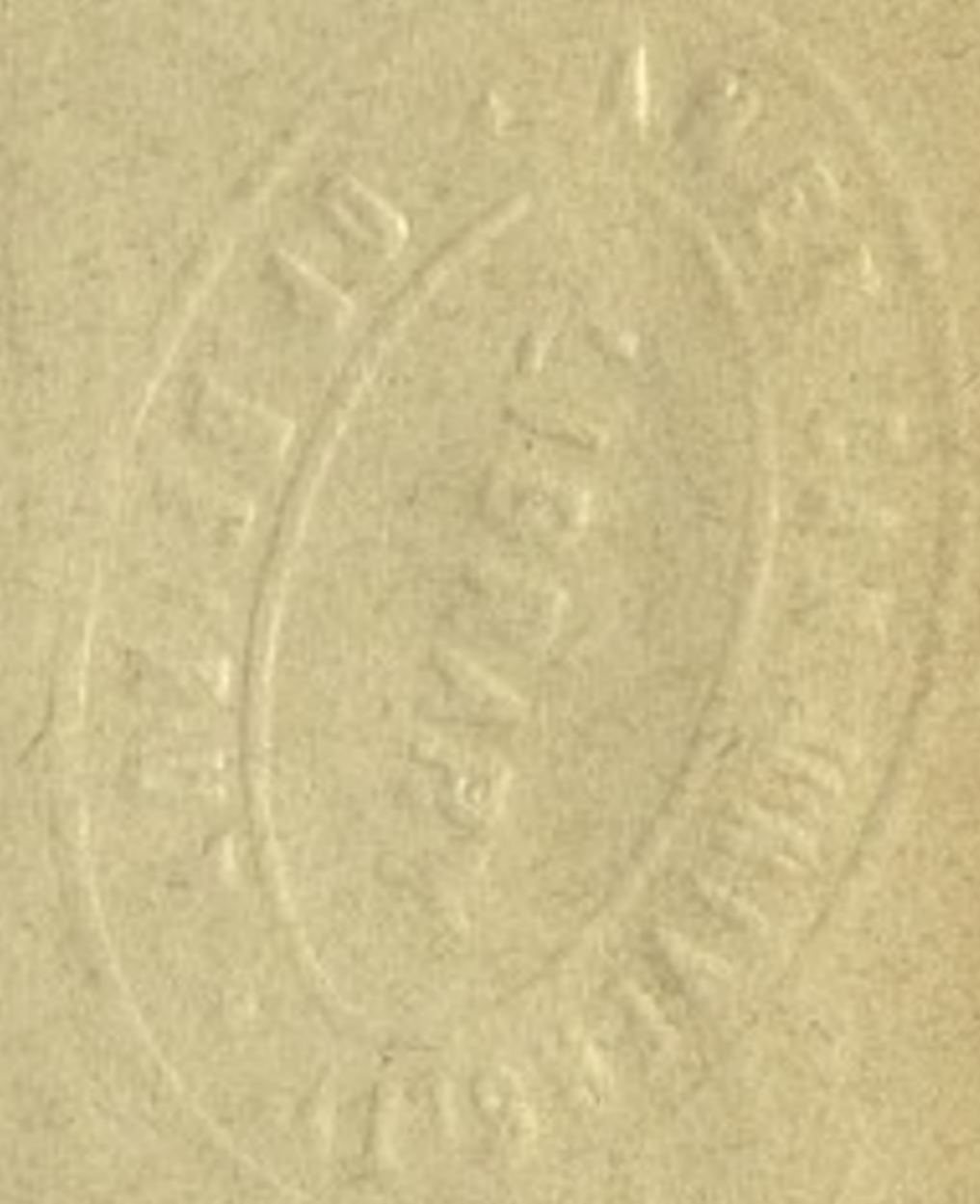
في موكب الدعوة

الطبعة الأولى

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد سليم الميناوي

بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

هذه مقالات كتبتها أستثير بها مشاعر ، وأستنهض همما ، وأستصلح أوضاعا . . . ولم أكتبها لأعبر عن مذهب خاص بي في الحياة ، وإنما كتبتها لأبرز رأى الإسلام فيما اعترضه من شئون شتى . وكنت أعتقد أنى أصبت بها صميم الحق ، وأحسنّت خدمة الدين ، بيد أن الجفوة التى وجدتها حين أرسلتها منعت عموم النفع بها ، وجعلتها أقرب إلى آراء شخص منها إلى أحكام شريعة . . . !!!

ثم تغيرت الحياة فى مصر بغيراً صدق كثيراً مما هديت إليه ، فأحببت أن أذكر الناس بأحاديث طالما صرخت بها ، علّهم يدركون أن الإسلام أشرف من أن يؤخذ عن أفواه الحمقى ، وأن الدين الذى قام على البصر السديد والعقل الرشيد والعزم الشديد لن يصلح للقيام عليه رجال واهون مهازيل . . .

أجل . هناك رجال لا يشعرون بما فى الشر من قبح ولا بما فى الخير من جمال . يسمعون بالعدالة فلا يحنّون إليها ، ويبصرون الظلم فلا يشمّزون منه . . . أولئك قوم ماتت قلوبهم ، والقلوب الميتة لا يسكنها إيمان ولا ينبثق منها جهاد . . . وأرجو الله أن يبقى على حياة قلبى فلا أبرد لمعصية تقع ، ولا أجد لطاعة تقام . . .

فى هذا الكتاب مقالات أحارب بها الوهن . الوهن الذى أطمع الأعداء فى استدلالنا ، وجراً الحالية والعاطلة أن تلطمنا . وقد كتبتها أشعل بها الحماس ضد المستعمرين المعسكرين على ضفاف القناة ، وأغرى الأمة أن تواصل كفاحها الواجب حتى يخرجوا . . .

ولما كانت الوثنيات السياسية فى ربوع الإسلام تكأة خبيثة لهذا العدوان

الكافر ، فإنى لم أهادنها طرفة عين ، وقد كان كتابى « الإسلام والاستبداد السياسى » حلقة من سلسلة كتب هتكت فيها أستار « الإقطاع » المُدبر ، وحذرت الشعوب مغبة الاستسلام له فى أحوال المجتمع والدولة .

ولست أزعم أن هناك مسلما يطلب دخول المستعمرين فى بلادنا ، أو يرضى بقاءهم بين أظهرنا إن ذلك — لوجال بخاطر أحد — فهو لا يعنى إلا الارتداد عن الدين والالتحاق بالكافرين ، ولكنى أعرف أن هناك أقواما يؤثر فى أعصابهم وأفكارهم الأمر الواقع ، فهم يعيشون محصورين داخل حدوده ، سواء عرفوا ذلك أم جهلوه . . . !

نعم هناك رجال يبنون وجاهتهم فى المجتمع العام على الارتباط بتقاليده كلها أو جلها ، فلو نشأوا فى بلد يعبد الأصنام لحسبوا من متممات كرامتهم الخاصة أن يسارعوا إلى تقديم القرابين لها ، وهذا الصنف من الناس سدنة كل عرف شائع أو قانون قائم . فهم يحترمون الأوضاع المقررة من قبل ، لأنها مقررة من قبل ! فحسب . . .

وهناك رجال من لون آخر ، لا يعنيه تملق الجماعة أو استرضاؤها . لأنهم يبنون مجادتهم على الحق الذى عرفوه ، وعلى إلزام العامة به رضيت أم كرهت . والصنف الأول لا يصلحون للسير فى موكب الإصلاح أبدا . بل هم عقبات كل إصلاح . . .

أما الذين يرمقون المجتمع بنظرات ناقدة . ثم يرسلون نقدهم سهاماً تصيب الضالين أو وقعات تلزع الغافلين ، فأولئك وحدهم هم أهل الخير . . .

وقد بُلينا فى ميدان الجهاد بنفر يتهيئون الأوضاع الباطلة كما يتهيب العميان المسير على شاطئ البحر ، ويتهربون من مغارم البطولة كما يتهرب الأطفال من المناظر المهولة . . . !

فما الذى أقحمكم إذن فى ساحة لستم لها ؟ وما تعنيكم أمرا فوق ماتطيقون ؟

غير أن هؤلاء الخوارج تعقبوا جهادنا ضد الفساد . يريدون أن نرجع فيه
بمخفى حنين ، فلاحم عملوا ، ولا هم تركوا غيرهم يعمل ، ولا هم رضوا بمنزلة القاعدين
التي استحقوها بتراخيهم . لقد استحبوا أن يعيشوا لصوص أمجاد في ميدان
الجهاد . . . وسرقة المجد كسرقة المال . أمر تستنكره الشرائع وتأباه الطباع
السليمة . . .

لم آبه لهذا النفر الضعيف في ميدان الدعوة ، ولا للمطاعن التي رموني بها —
وإن تأذيت منها — وقررت أن أخرج الباطل وأناوشه بإصرار ، ولو تحملت
تبعة ذلك وحدي . . .

وفي المقالات التي أثبتتها في هذا الكتاب جملة من حقائق الإسلام التي
لا ريب فيها . سيقت في مناسبات لا تخفى على قارئها . . .

ولن يعدم المسلم فيها حكماً صائباً أو حكمة سديدة . وإن طالما بعد انقضاء
الوقائع التي قيلت بصددتها .

وقد تكون امتداداً لما سبق أن أخرجته من كتب ، وقصصته
من نصح ونذر .

وأيا ما كانت . فهي إحصاء أمين لكلمات رجل رأى أن يصدق الله
في كلامه عن الإسلام وسط قوم من أهل الدنيا يجهلون الإسلام ، وقوم
من المنتسبين للدين أساءوا العلم والعمل ، وحمّلوا الإسلام أثقالاً من أهوائهم . . .

تاريخ قريب

نحن الآن في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر للهجرة . . .

ما أحوالنا وما أحوال غيرنا في هذه الآونة ؟

إن هناك تقدما كبيرا في أقطار الغرب ما يستطيع عاقل نكرانه . وهو تقدم أحرزته هذه الأقطار رويدا رويدا . لم تبلغه طفرة . بل لم تكسبه إلا ثمرة جهد شاق . وقد بدأت كفاحها لتحصيله منذ خمسة قرون تقريبا .

ومهما عينا الحضارة التي أثمرها عصر النهضة الحديثة في بلاد الغرب — لأن ما أصابنا من شرها سبق ما نالنا من خيرها — فإننا لن ننكر الأصول العقلية الجليلة التي مهدت لهذه الحضارة ، ومشيت معها شوطا بعد شوط .

وقد تكون حضارة الغرب فقدت في هذه الأيام عناصر كثيرة من أسباب نموها وازدهارها ، إلا أنها — والحق يقال — ما تزال سيدة الموقف ، لاشيء ، إلا لأنه لم يوجد بعد من ينافسها على قيادة العالم ، ومن يثبت جدارته على أخذ الزمام منها ، والسير بالقفلة المعنّاة في سبيل أقوم ، وإلى غاية أسلم . . .

ويوم يوجد هذا العوض الطيب فإن الحياة سوف تتحول إليه طوعا أو كرها . أما قبل ذلك فإن الطامحين إلى القيادة دون حمل مؤهلاتها لن يجدوا مكانهم إلا في المؤخرة . . . !!

إننا — نحن مسلمي هذا العصر — قد برزنا إلى الوجود لتجد أمامنا تركة مثقلة .

طويت راية الدولة الكبرى ، وقسم ميراث الرجل المريض بعد موته على الغزاة ، فأمست أمة الإسلام مزقا مفرقة ، يتشبع كل فاتح من استغلال نصيبه فيها . فلما حز الألم في نفوس المأكولين ورأوا أن يتخلصوا من هذا الموت البطيء

المقنط : إما بموت مجهز أو حياة صحيحة ، شبت ثورات التحرر في أنحاء الشرق المهزوم ، وكانت ثورات شجاعة محنقة لا ترهب قوى العدو ، ولا يردّها عن التمرد الدائم ما تعلمه عن نفسها من ضعف الجانب وقلة الناصر وتفاهة السلاح . . .

وشاء القدر أن يكافئ هذه الشعوب الساعية لكسر قيودها . فأعان بعضها على تحقيق أمله ، وأعان بعضها آخر على الفكّ من قيده ، وهو في طريقة لطرح ما بقي ، وظلت شعوب أخرى داخل جدران المصيدة تلعن العبودية ، وتطوى الجوانح على غل مكين للغرب الذي قدر فقهر ، وملك فسفك . . .

(أما عمل الإيمان الصحيح وراء المقاومة المستميتة ضد عدوان الغرب المسلح فأمر لا مرية فيه . هي ثورات قومية في عنوانها ، وطنية بحتة في شكلها البارز . لكن الحقيقة أن بقايا ضخمة من موارث الإسلام في العزة والإباء والتضحية والفداء ، هي التي ساقّت الجماهير الغفيرة إلى مقاتلة المحتلين الغاصبين ، وزودتهم بطاقات هائلة من المصابرة والثبات ، كانت وحدها مناط الأمل وطريق النصر . . . وثورات التحرر التي أشعلها الشعب التركي من نيف وثلاثين عاما واستغلها مصطفى كمال استغلالاً سيئاً ، أو التي أشعلها الشعب المصري في ذلك الحين واتجه بها سعد زغلول اتجاهه المعروف . . . هذه الثورات كان الإسلام مهادها وبناءها . بيد أنه حرم ثمارها حرماناً مؤسفاً . ولعلنا نقرر الواقع الأليم حين نذكر أنها استحالت بلاء عليه . . . !!!

وقد تتساءل : ماسر هذا الانقلاب ؟ والجواب أن الصورة التي ارتسمت في أذهان بعض القادة عن الإسلام وتعاليمه ، وعن الحضارة الغربية وأساليبها الجديدة خيلت لهم أن نبذ الماضي بما يحمل في أطوائه أجدى عليهم ، وأن تقليد الحضارة الجديدة والأخذ عنها جملة وتفصيلاً هو النهج الفذ للرقى والنجاح . . .

وهم — وإن جاروا — ضحايا خدعة مظلمة ظالمة . . . فقد قلنا : إن النهضة

الحديثة في الغرب بدأت سيرها من خمسة قرون . كان الشرق الإسلامي إبانها
يتدحرج هابطاً من مكانة إلى أخرى دونها ، حتى كأنه ينزل من درج سلم ...
[فلما كانت مطالع هذا القرن بلغت حركات الصعود والنزول مداها .
استوى الغرب في القمة واستقر الشرق في السفوح . وأنشأ الغالب أظافره
في عنق المغلوب . يريد إما أن يفترسه ، وإما أن يهبه حياة الرقيق الذليل) ...
إلا أن عناصر الشر في دم الغالب أخذت تنزل به عن القمة التي بلغها ،
وعناصر الخير في دم المغلوب أخذت ترفعه من وهدة قليلاً قليلاً .
وليس بمستغرب أن يشرد قوم في أثناء محنتهم فيطلبوا النجاة من
مواطن العطب .

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن
وذاك شأن نفر من القادة هرعوا إلى الغرب يلتمسون من ربوعه الخير
والبركة . ولت الأيام صدقت ظنونهم ! فنحن نحب النفع من أيسر سبله ...
إن الغرب يأخذ كثيراً ويعطي قليلاً ، يأخذ راغباً ويعطي كارهاً ، وعطاؤه
المنون ممزوج بالسم ، قلما يفيد منه إلا رجل حاذق يمسك ما يجديه ويدع
ما يضره ...

والحضارة التي تسود العالم اليوم اعتمدت في منطقها العلمي على الخلاصات
الصحيحة من الفكر الإسلامي الناضج ، وهو فكر انفرادي بزماء العالم دهرًا
طويلاً كما تنفرد حضارة أوربا اليوم بتوجيه الناس . والعلم لا وطن له ولا جنس .
وهو يتنقل بين الأوطان والأجناس تنقلاً مطرداً . وهيات أن يخلد في بقعة من
الأرض ، أو يحتكره قبيل من الناس ...

وربما استغلت النصرانية غلب أوربا فاندفعت وراء جيوشها الغازية ، وربما
أوهمت أن هذا التفوق صنع يدها ، وقطاف غرسها . غير أن شيئاً من
هذا لا ينطلي على أحد ، فإن أقطار الغرب لم تحسن المسير في مضمار الحضارة حتى

فصلت العلم والاقتصاد والحكم عن الكنيسة ، ولو بقيت مرتبطة بها لظلت أوربا على أحوالها القديمة التي لا زمتها خمسة عشر قرناً ، وهي أحوال لا يحمد لها ذوحجاً ، ولا يطلب العودة إليها أحد . . .

وأشهد أن العقل الغربي أنظف جداً من الضمير الغربي . لقد اقتبس فأحسن ، وقلد فأجاد ، ثم أنمى وابتكر ، واستكشف فبهر .
وفتوحه في استخدام قوى الكون لا تقل عنها براعته في تنظيم شؤون العمران .
والمشدوهون لهذا التفوق لا ينتظر منهم غير التسليم لنتائجهم . فلا جرم أنهم مولعون باتباعها مغرّون بالانقياد لها . وكما يمدون قضبان السكك الحديدية ويركبون عرباتها — من مصانع الغرب — ينقلون مناهج السياسة وأنظمة المجتمع وطرائق الحكم — من تفكير الغرب أيضاً .

وأعان على ذلك ، القصور الشائن الذي ران على الجبهة الإسلامية فإن الرجال المتحدثين عن الإسلام في القرن الماضي ، وحين اندلاع ثورات التحرر من أربعين عاماً لم يكونوا على فهم يذكر بالكتاب والسنة ؛ أهملوا خدمة الشريعة فهزمتها القوانين الموضوعية ، وظل الإسلام يتقهقر في ميدان الحياة العامة . حتى كاد يقضى عليه بالموت . . .

ولولا رجال قلائل من الملهمين الأحرار لدرست معالم الدين . نذكر منهم جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وحسن البنا .

وقد أسائل نفسي : لو أن جمال الدين عاصر مصطفى كمال في تركيا أكانت نهضة القائد المنتصر تميل عن الإسلام هذا الميل ؟ أو لو كان محمد عبده العالم الثائر ، أو حسن البنا المربي النابه لو أن أحدهما صاحب الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ . أكانت تأخذ اتجاهها المدني المحض مبتوتة الصلة بالآلام الإسلامية وآماله ؟ .

إن القصور الشنيع في أفكار علماء الدين ورؤساء الجماعات الإسلامية يومئذ
جر على الإسلام هزائم متلاحقة ، وجعل بضاعته أمام الأبصار المتطلعة
مزهودة كاسدة .

ولم تقف الحياة حتى يستخلص الكسالى من تعاليم الإسلام تشريعاً جنائياً
أو تجارياً ، ونظاماً اجتماعياً أو سياسياً . كلاً . لقد تطلعت إلى المورد المتاح حين
عز عليها المورد الأصيل . ومن ثم تأخر الإسلام وتقدمت قوانين وتقاليدها
وأنظمة أخرى .

وظهر حسن البناء في الثلاثين سنة الأخيرة يقود بعثاً إسلامياً ناجحاً ،
واستطاع الرجل الكبير أن يسد مسد جيش من الدعاة الأذكياء والمربين المخلصين
الأوفياء ، وقد أفلح في تبديد الغيوم الكثيفة التي تراكت حول صلاحية الدين
لقيادة الحياة ، وكون جيلاً من الرجال الذين يؤمنون بهذه الحقيقة .
وقد قتل الرجل وهو إلى الرمح الأخير ينفخ في المسلمين روح الحياة ، ويجدد
في نفوسهم عنفوان الأمل والكفاح .

وإني أعترف — رادا الفضل لأهله — بأني واحد من التلامذة الذين جلسوا
إلى حسن البناء ، وانتصحووا بأدبه ، واستقاموا بتوجيهه ، واستفادوا من
يقظاته ولحاته .

ولكني — وهذه طبيعتي — كنت آخذ منه وأدع ، وأتبعه وأجادله ،
ويرى مني الرضا والنقد . على أنني يوم قتل كنت أعنف الناس غضباً لمصرعه ، وحمله
على خصومه ، وسعيّاً وراء القود الواجب . بينما كانت الأصلاب التي طال انحناءها
وتردادها على تقبيل يديه لا تكرم ذكره ، ولا تصون رسالته ، ولا تهتم بأمره .
إن الذباب الذي يطن حول العظماء كثير . أما الرجال الذين يقدرون رسالاتهم
نفسها فما تراهم إلا على ندرة . . .

وتهمة القصور التي رمى بها الإسلام احترقت في حرارة الجهاد الذي تجشمه
هذا القائد الجليل وهو يكتب ويخطب ، ويعلم ويؤدب . . . ثم وقر في الأذهان
أن الإسلام ليس فقط صالحا كغيره لقياد الحياة . بل إنه أصلح وأحق من سائر
المذاهب والفلسفات الأخرى .

وأجدني مسوقا إلى الكلام عن نفسي في هذا الموضع . لا لأنوّه بجهد
أو أنخر بإنتاج . فأحسبني أمام الله آخر من تنهض لهم حجة في خدمة الإسلام .
ولعل في مستقبل عمري أقوم بالعمل الذي أدخره ليوم حسابي وأنا راج له
حسن القبول .

إنني سأتكلم في شئون عاجلتها مع من حولي من الدعاة المسلمين ، أعتقد
أن الإبانة عنها واجبة .

إنني أكره أن أسود أحداً من الناس ، لأنني أؤثر أن يكون صاحبي ندياً
لاتابعاً ، أتمنى أن أجد الرجل الذي أرى منه عقله الكبير ، وفؤاده الكبير ،
فأعامله غير متكلف له شيئاً ، تشغله عني رسالته في الحياة ، فأصعبه أو أتركه ،
وليس بيننا ما يريب أو يغيب . . . !!!

وأكره كذلك أن يسودني أحد . لا لكبر في . بل لأن أغلب الذين
يحرصون على السيادة نفر من العبيد يوارون صغارهم بالكبرياء المفتعلة .
وقد تقول : إن الحياة لا بد فيها من قيادة تأمر ، وجند ينفذون ! وهذا حق .
ولا اعتراض على هذا الوضع في نفسي لو أن نظام الحياة كنظام الفلك ، تدور
الكواكب الصغيرة حول أكبرها جرماً ، فهو محورها العتيد وهي خاضعة
طوعاً أو كرها لرباطها به .

لكن الطبيعة العظيمة لم تكلف الكواكب أن تدور حول حصة . . .
ثم إن السيادة المفروضة شيء آخر غير القيادة الطبيعية القائمة بين
الرأس والأطراف .

إن الناس ينجذبون حول الكفايات الكبيرة من تلقاء أنفسهم يوم يسرون مع طبائع الأشياء . فإذا اختلت النظم وطلب للصغار أن يكبروا ولا كبار أن يصغروا ، فيجب أن تتوقع كل شيء إلا استقامة الأمور وضمان النجاح . . .

ولست أشغب على شيء كما أشغب على هذا الخلل ، وكم أضيق بالغباء المسلط والذكاء المضم . ذلك . وتجاربي في الجبهة التي أعمل بها تركت على نفسي ظلالا مقبضة . فأنا من علماء الأزهر الذين عملوا في صفوف الإخوان قرابة عشرين سنة ، ولست أعز بنسبة إلى هذا أو إلى ذاك ، فنسبتي إلى الإسلام المجرد أحظى لدى من معهد تخرجت فيه ، أو جماعة انضمت إليها . . .

وقد لحظت أن الأوضاع التي تسود كلتا الطائفتين بها عوج بين ، وأن مقاييس الإسلام لا يسمح لها أن تعمل حرة في ترتيب الأشخاص والأشياء . ومن أسمح الأوصاف أن تتدخل نوازع الهوى في تنظيم عمل يحمل طابع الدين . . .

ومن المضحك أن تنظر إلى شيوخ الأزهر ورؤساء الجماعات الإسلامية ، فلا ترى إلا رجلا أدبرت عنهم الحياة ، وقلت حظوظهم من خلال القوة ، وعناصر الكفاح . تمر بهم الفرص الرائعة لكسب شيء يدعمون به جانب الحق فلا يتحركون . . . ولا يدعون من معهم يتحرك . لأنهم قادة لهم على الأتباع حق السمع والطاعة !!!

وجمهور المسلمين جند من خيرة الجند ، لكنهم مع هذه القيادات العاجزة لا يكسبون لأنفسهم ولا لدينهم خيرا . . .

ماقيمة السيارة القوية إذا كان سائقها قليل الخبرة بآلاتها ، ثم هو قليل الخبرة بمعالم الطريق ؟ إن راكب الأتان يسبقه !

ولقد قامت في مصر سوق دنسة كان الملك المخلوع فاروق يبيع فيها الشرف والدين ، ويتوقع فيها على الله والناس .

وكدت أجنّ وأنا أدفع القادة العجزة إلى الحد من آثامه ، فيتخاذلون ويتصاغرون ، ورمقت الرجال الذين يتصدرون الجبهة الإسلامية ، وطويت لهم في صدرى الاحتقار والمقت . ورمقت جمهور المسلمين وهو يتململ لما يعرف من فسوق فرعونيه ، ويطرصد له الخوف ... وأنا أتساءل : حتى متى ينتظرون ...؟
ثم جاءت ضربة الجيش المعروفة . فكانت ختاماً عادلاً لحياة ماجنة ، وكانت آية على أن الله يبارك المغامرة في سبيل الحق ، ويسخط على القاعدن في الجبهة الإسلامية يتصدرونها بالبرود والمهزلة ...

كان قصور الدعاة أول هذا القرن سبباً في انهيار السدود أمام امتداد الغرب ، ثم كان تقصير العارفين وانكسار همهم سبباً في تخلف الإسلام ، وتقدم نهضات أخرى . وليس في شيء من هذا ما يدعو إلى اليأس .
فإن تاريخ الأديان والأمم لا يحسب بأيام أو أعوام . وقد قلت : إن الغرب لم يبلغ الدرجة التي بلغها إلا بعد مسيرة خمسة قرون ، ناوشته فيها أعراض شتى كاد بعضها يقضى عليه . ومع ذلك فقد عاش ، وطنى ، واستكبر ...!!!
على أن النهضة الإسلامية الجديدة إذا كانت قد تراجعت في ميدان السياسة . فإنها نجحت نجاحاً محموداً في ميادين أخرى . وأستطيع القول : إن بذورها العقلية والعاطفية قد أثمرت وازدهرت في رجولات كثيرة صنعت بجهد الفردى شيئاً طائلاً مما يرضى الله وينفع العباد ...
ومن المؤكد أن حشداً كبيراً من المؤمنين الصالحين الفاقهين قد أعدته الدراسات الإسلامية الجديدة إعداداً حسناً ، وأنه يوم يرزق القيادة الموقفة سوف يأتى بالعجائب في حرب العدوان الأجنبي ، وتطهير الأرض من الفساد والمفسدين ...

ولست أزعم هذا عن وهم غالب فإن التجاوب القائم بيننا وبين ألوف المسلمين الذين يقرأون لنا ويسمعون منا يجعلنا نوقن بهذه الحقيقة ...

على أننا إذا نوهنا بقيمة التوجيه الإسلامى الصحيح فى تكوين الأجيال الجديدة ، فيجب أن نكشف الغطاء عن فريق من الدعاة الذين تكلموا عن الإسلام ، واشتغلوا بعرض تعاليمه . فكان أسلوبهم فى الفهم والعرض عوناً على إنجاح الحركات المناوئة له ، وإمدادها بقوى دفعتها إلى الأمام!

هذا الفريق إن كان مخلصاً فيما صنع فهو يعيد إلى الأذهان قصة الدبة التى قتلت صاحبها وهى تدفع عنه!

وإن كان مغرضاً يبطن للإسلام غير ما يظهر ، أو يضمّر لدعائه الأوفياء غير ما يجب ، فالويل له من الله ومن الناس ...

فتح... وفتح

الأمم كالأفراد، إذا أحست في كيانها بفضل من قوة ومزيد من نشاط، اتسع مجال حركتها وامتد نطاق عملها، وكما أن المرء الواسع الطاقة لا يهدأ بل يصرف الكامن من قواه في أي عمل يواتيه، وقد يبحث عن المشاق إذا لم يلقها في طريقه، فكذلك الشعوب التي تضاعفت أنصبتها المادية أو الأدبية. إنها لا تنحسر وراء حدودها إلا ريثما تتجمع في فيضان دافق يكتسح السدود ويطم الآفاق.

وتاريخ العالم يسجل ضروبا من المد والجزر لهذا الجهد البشري المذخور، زحف بعد زحف، وفتح بعد فتح، يقوم بعضه على التفوق العسكري المحض، ويقوم البعض الآخر على الرجحان الأدبي الخالص، وقد يمتزج المعنيان بنسب متفاوتة فيكون اتصال الأمم القوية بغيرها على حساب الفضائل جينا، وعلى أساس المنفعة المشروعة حيناً آخر، ولن نستقرئ في هذه الكلمة أنواع الفتوح التي تركت أثراً ذا بال في تاريخ العالم، بل سنقارن فحسب، بين الفتح الإسلامي الأول. والاستعمار الغربي الأخير.

بدأت موجة المد الإسلامي من قلب جزيرة العرب، في بقعة من أرض الله لم تكن قبل الإسلام شيئاً مذكوراً، والعرب جنس له مزاياه النفسية وخصائصه العقلية، وما من جنس إلا وله محامد تذكر له، إلا أننا نستطيع الجزم بأن العرب — لولا الإسلام — ما كانوا يقوموا بذرة من هذا الذي صنعوه للعالم بعدما أصبحوا حملة رسالة وصناع حضارة... .

والحق أن هذا الانبعاث الخطير جاء فوق سنن الحياة المألوفة، ففي هذا المكان الصامت الموحش، المعزول عن المدينيات الصاخبة ومواكب العمران المأججة، في هذا المكان شاعت العناية العليا أن تظل ربيع قرن تربي القبيل الذي سيوجه الأجيال، وتعي الجيش الذي سيمهزم الأقيال، وقد بوغتت الدنيا بأولئك العرب

يخرجون من أعماق الصحراء في إعداد محكم متتابع أخذ يمتد حتى استوعب المعمور من الدنيا يومئذ ، والعرب المنطلقون من صحرائهم لبثوا مع رسول الله نحو ربع قرن ، لقنهم فيها دروس السماء النازلة مع الوحي ، وزودهم بطاقات فكرية وعاطفية جبارة ، سميت بمستواهم المادي والأدبي حتى أصبحوا أعز جانباً وأصح تفكيراً وأنقى قلوباً من جماهير الروم والفرس .

ومن الغفلة أن نحسب انتصار المسلمين الأوائل ضرباً من التفوق العسكري المفاجيء ، فإن الذي يدرس كيف صاغ الإسلام العرب ، وكيف استهلكت الأنظمة الفاسدة غيرهم من الأحياء ، يدرك أن كفة العرب كان يجب أن ترجح ، وأن هذا الرجحان مظهر لتطور العالم نحو حياة أرقى ، أو قل أنه عمر جديد لدنيا أشرفت على الاحتضار والانهيار .

وثمة ظاهرتان يلمحهما المرء في سير الفتح الإسلامي :

أولاهما : أنه مثالي مبرأ عن المطامع ، فإن روح النبوة التي دفعته اشتربت أن يكون بعيداً عن مفاتن النفس وأدران الشهوات . روى أبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً قال : « يا رسول الله : رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضاً من الدنيا ! فقال رسول الله : لا أجر له .

فأعظم ذلك الناس وقالوا للرجل : عد إلى رسول الله فلعلمك لم تفهمه . فقال الرجل : يا رسول الله : رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا قال : لا أجر له .

فأعظم ذلك الناس ، وقالوا : أعد لرسول الله . فقال له الثالثة : رجل يريد الجهاد وهو يبتغي عرضاً من الدنيا . فقال : لا أجر له !! »

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله : « مامن غازية أو سرية تغزو في سبيل الله فيسلمون ويصيبون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، وما من غازية أو سرية تخفق وتخوف وتصاب إلا تم أجرهم » وفي رواية « مامن غازية أو سرية

تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ، ويبقى لهم الثلث ، وإن لم يصبوا غنيمة تم لهم أجرهم » .

هذه التعاليم جعلت صلة الفاتحين بالبلاد التي دخلوها منزهة عن نيات الاستغلال بله أعمال السلب والنهب التي عرفت في شتى الفتوح . . .

[والظاهرة الثانية : أن الفاتحين بذلوا جهوداً متواصلة لرفع الشعوب التي اتصلوا بها إلى مستواهم المادى والأدبى ، فحوا الأنظمة الملكية الفاسدة التي سخرت الجماهير دهرًا طويلاً ، وأقاموا قواعد المعاملة على أساس المساواة المطلقة ، وأصبح الإسلام والعمل به محور التفاضل والتقديم من غير نظر إلى أجناس أو ألوان ، بل إن عواصم الإسلام نفسه انتقلت من البلاد التي نبت فيها إلى البلاد التي استقبلته محرراً ثم اعتنقته بعدئذ ديناً ، وأضحى أهلها أعطف على الإسلام وألصق به من العرب أنفسهم] . ولا بأس أن ننقل هذه الفقرات للمؤرخ الإنجليزي « ويلز » :

تحدث « ويلز » عن الإسلام في كتابه « معالم تاريخ الإنسانية » فقال : « كان مليئاً بروح الرفق والسماحة والأخوة ، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم . كان غريزة مجسدة تحوى عواطف الفروسية في الصحراء ، وكان يستهوى الغرائز الغالبة في تركيب الرجال المعتادين . وقد وقفت ضده اليهودية — وهي التي اتخذت من الرب كنزاً تدخره لنفسها — ثم المسيحية ، وهي تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث والمبادئ والمهرطقات التي لم يكن يستطيع أى رجل عادى أن يميز فيها الرأس من الذنب .

« لم يكن الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام يهتمون إلا بشيء واحد ، هو أن ذلك الرب الذى يبشر به الرسول كان — بشهادة ضمائهم — رب صلاح وبر ، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته ، يفتح الباب على مصراعيه على أخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة ، وسط عالم مليء بالتقلقل والخيانة والانقسامات الناضبة من التسامح .

وقد أوصل محمد هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية دون أى رمزية
مبهمة ، ودون أى تعميم للهياكل ولا ترتيب للقساوسة .

وفي حديثه عن الفاتحين المسلمين يقول :

« التقوا بجيوش كبيرة منظمة ، ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها . ولم
يحدث فى أى مكان ما يسمى بالمقاومة الشعبية . فإن سكان الأراضى الآهلة لم يكن
ليعنيهم قلامة ظفر أن يدفعوا الضرائب إلى « بيزنطة » أو « برسيبوليس »
أو « المدينة » . فإذا فاضل الناس بين البلاط الفارسي والعرب — يعنى السلف
الأول — كان العرب أنظف الطرفين وأطهرها ، كانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة .

وقد انضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة ، وكذلك اليهود ، وكما كان
الحال فى الغرب — يعنى جبهة الروم — كان كذلك فى الشرق ، إذ تحول الغزو
إلى ثورة اجتماعية ولكنها كانت هنا ثورة دينية لها حيوية ذهنية جديدة متميزة » .

ثم عدت الليالى على الإسلام ! فانكمش بعد امتداد ، وأمسى أهله قليلى
الفقه فيه ضعفاء الأخذ به ، فتراجعوا عن مراكز التوجيه التى احتلوها آنفا ،
وفقدوا المزايا التى رجحت كفتهم على غيرهم من الدول الكبرى

[والصلاحية لقياد الأرض لاتنال بزعم ولا وهم . فهى — قبل كل شئ —
قدرة ذاتية على السبق تدعمها ميزات فريدة عقلية وعاطفية . وقد انتقلت هذه
الصلاحية عن المسلمين منذ فترت علائقهم بدينهم ، وبعد أن كانت الحياة تندفق
من بلادهم فتهب العافية للمرضى ، أصبحوا هم أنفسهم فقراء إلى من يأخذ بأيديهم
نحو القوة والعلم والثراء !]

وامتلك الغرب الزمام المهمل ، وتهيأت له الأسباب ، فبسط سيطرته على
العالم ، ووقع المسلمون بقضهم وقضيضهم كما وقع سائر أقطار الدنيا فى براثن
الاستعمار الغربى الجديد .

وهناك ظاهرتان بارزتان فى صلة هذا الاستعمار بالأمم التى دانت له :

أولاهما : أن دواعى الفتح والإخضاع والاستكشاف كانت مادية بحتة لا مكان فيها إلا للنفع الشخصى أو الدولى ، أما الباعث المثلالى الذى اقترن به الفتح الإسلامى الأول فلا أثر له البتة فى هذا الغزو الحديث .

البحث عن الثروة ، أو الأبحاث الخاصة ، أو بسط النفوذ المجرد على أوسع مساحة من الممتلكات ، والعمل على تحويل البلاد المفتوحة أو المكتشفة إلى مزارع غاصة بالعبيد المسخرين لتصدير المواد الخام — تلك كلها طابع الفتح الأوروبى الذى نجح فى إخضاع العالم له ، ونجح فى التهام خيراته . ونجح فى تحويل الجهد البشرى المبعثر فى القارات الكبرى إلى أداة تصدر له المغنم ، وهو هادى ناعم .

وقد تطاحن الفاتحون فيما بينهم على الاستئثار بهذه الأسلاب ، ثم تهادنوا على اقتسامها ، ثم هاجت بينهم المطامع فعاودوا الحرب ، ولا تزال دوافع الشر تثير الحروب العالمية بين المستعمرين ، ما إن تهدأ حتى تندلع ، وسرها ما علمت ، هو عراقك الوحوش على أشلاء الفريسة !

والظاهرة الثانية فى الفتح الأوروبى : أنه إذا دخل بلدا ما فوجد فيه شعبا مظلوما ونظاما فاسدا وطبقة حاكمة باغية ، دعم جانب البغاة وأبقى أسباب الفساد ، وأوصد الأبواب على الجماهير المضطهدة . على عكس السيرة التى انتهجها الفتح الإسلامى الذى كان يقصى الطغاة أول ما يدخل ، ويزيح العوائق أمام الشعوب لتتحرك وتتنبس وتنشأ ، ويضع الخطة ليكون الفاتح أخا فى الحقوق والواجبات مع صنوه الرومى أو الفارسى .

والنزاع العنيف القائم بين البلاد المحتلة والمستعمرين الأجانب يرجع إلى نزعات الأثرة الفاحشة التى يصدر عنها أولئك المحتلون . فالشعوب تريد أن تصلح شأنها وتستعيد حرياتهما ، وتنفع من خيراتها ، إنها تتلوى وتتأبى على القيود التى كبلت بها وتحاول بشق الأنفس أن تنال قسطا أكبر من الكرامة والهناء التى حرمتها ، بيد أن الفاتحين الأوربيين حرصوا كل الحرص على تأخير البلاد ،

ومحقير أهلها ، وإبقائها أبداً في منزلة التابع الذليل المحتاج من سيده المعتر بقوة المدل بجأه ومعرفته ! .

ولو ألقينا نظرة عجي على الأحوال التي تسود العالم اليوم لرأينا الدول المستعمرة والدول الضالعة معها تحارب طلائع التحرر في كل مكان ، وتتضافر على إبقاء نصف العالم أو أكثر في منزلة مهينة ، والغريب أنه إذا علت صيحات المعذنين تحت وطأة الحكم الفرنسي فتساءل الناس عن علة هذا الصراخ ، قالت فرنسا : إن هذه مسألة داخلية تخصها وحدها ، ولا شأن للآخرين بها .

وكذلك حال الأمم التي سقطت في براثن انجلترا ، وإن كانت الأخيرة أكثر احتيالا على الوصول إلى أغراضها وتسميم فرائسها . . ولا ينبغي أن ننسى أنها دخلت وادى النيل لتطفئ حركة الإصلاح الشعبي التي قام بها أحمد عرابي ، وتمكن للفساد السياسي والاجتماعي المنبعث من القصر الملكي يومئذ . ولا ننكر أن الاستعمار الأوربي أدخل على البلاد المفتوحة بعض الإصلاحات العمرانية ، لكن دوافع هذا العمل لا تعدو زيادة طرق الاستغلال والامتصاص لحساب المنتصر قبل غيره .

إن الحضارة الأوربية في ميدان الكشف المادية والبحوث العقلية وصلت إلى حد لا يتجاهل خطره ، ولا يغمط قدره ، وهي من هذه الناحية تعتبر ارتقاء إنسانيا كبيرا . ويجب أن نسجل لها هذا التقدم الذي بزت به القرون الأولى قاطبة . .

أفترأها بلغت عشر هذه المنزلة في صلاح الضمير ونصاعة الخلق ؟ . كلا كلا . . إن الوحشية والقساوة التي اقترنت بزحف التتار والرومان لم تفارق الاستعمار الغربي الجديد . . غاية ما تبدل أن الغزاة المحدثين نظموا وسائل السطو وزينوها ، وخدروا مواضع الألم بقدر كبير من المباذل والشهوات الوضيعة ...

ولم يعرف العالم فتحاً أنظف يداً وأنبل سلوكاً ، وأسلم عقبي من الفتح
الإسلامي القديم . . .

إن الاستعمار الحديث بدأ سطواً واسع النطاق على بلادنا . والاص الصغير إذا
ضبط متلبساً بجريمته لم يجد بداً من الاعتراف بها والانتظار — في خزي —
للعقوبة المترتبة عليها . أما دول الغرب التي دفعت بعصابتها لاحتلال أرضنا
واستلاب حقنا فهي تجد من القحة ما يجعلها تمارى فيما اقترفت من نكر . بل
إنها قد تبرر فعلتها بما يقلب الأخذ عطاء ، والباطل حقاً . ولا عجب فكلمة الاستعمار
نفسها لا تعنى إلا التخريب والدمار وإن كان بناء الكلمة على تقيض مدلولها الذي
نكبت به أقطار شتى . . .

وقد نشأ عن ذلك أن الدول الغالبة بنت سياستها على التدليس والنفاق ،
وأقامت علائقها — بين بعضها والبعض الآخر ثم بينها جميعاً وبيننا نحن المكافحين
ضد العدوان — أقامتها على أسلوب طويل ممل من التصنع والتمويه والدجل ، يريد
ليلبس مخالب الوحش قفازاً من الحرير الناعم !! ثم سخرت لبلوغ هذه المآرب
جيشاً من المستشرقين والمبشرين ورجال القلم واللسان مكن للغزو العسكري بالغزو
العلمي . ومن ثم استطاع الغرب القاهر أن يحتل البلاد والأجساد والأفكار . .
والغزو العلمي أخطر من الغزو العسكري .

فإن الغزو العسكري يقيد جسمك وأنت ساخط تحتال للخلاص !
أما الغزو العلمي فهو يملك البدن ويحتاج الروح ويجعل المهزوم عبداً ودوداً
للمنتصر الماكر . .

إنه يخلعه عن الإعجاب ببلاده ودينها ، وتقاليدها إلى الإعجاب بالفتح ودينه
وتقاليده . . .

إنه يزلزل الثقة في حاضر الوطن ومستقبله ، ويغري بالركون إلى الغاصبين
والارتباط بهم في حاضرهم ومستقبلهم . .

ودول الغرب دائبة على هذا الغزو اللئيم تبريراً لآثامها وتمكيناً لأقدامها ،
وقد أغراها النجاح الذي استحوذت به على بعض الهمل فمضت في خطتها تحاول
أن تجعل من وجودها في بلادنا أمراً مألوفاً . وكأنها بهذه اللجاجة تظن أن جرائمها
الفاحشة نسيت أو يمكن أن تنسى .

منذ أيام سمعت رجلاً ممن تعلموا في معاهد إنجلترا وفرنسا يتحدث عن القوم
حديثاً يستحق التأمل . والإشادة بفضل أهل الفضل شيء لا يستغرب ، ولكن
الذوبان في محيط الغزو الثقافي شيء لا يحتمل ، وينبغي أن نضع أمام أعيننا صوراً
كئيبة دامية للطريقة القذرة التي سار عليها الإنجليز والفرنسيون في استعمارهم
لنصف العالم أو يزيد . وكيف يصرون إلى هذه الساعة على استئفاف مابدءوا به من
سلب ونهب . .

ذكر الدكتور محمد عوض محمد في كتابه « الاستعمار » كلمة للكاتب
الفرنسوى الشهير « مونتسكيو » جاء فيها : « إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا
المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً فإنني أقول : إن شعوب (أوربا) بعد أن أفنت
سكان (أمريكا) الأصليين لم تر بداً من أن تستعبد شعوب (أفريقيا) لكي تستخدمها
في استغلال هذه الأقطار الفسيحة كلها .

« والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرية من أخمص القدم إلى
قمة الرأس وأنفها أفطس فطساً شنيعاً .

« ويكاد يكون من المستحيل أن ترثي لها فإنه لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله
سبحانه وتعالى -- وهو ذو الحكمة السامية -- قد وضع روحاً ، وعلى الأخص
روحاً طيبة داخل جسم خالك السواد . . » .

ثم يقول الدكتور : « ومن المفيد ألا نمر بعباراة (مونتسكيو) هذه دون أن
نشير إلى أنها ليست مبنية على السخرية المجردة . فإن الإشارة إلى أن الشعوب
السوداء أو الحمراء لا روح لها كانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الأوربي

الحديث في أوائل عهده . ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات . بل لقد كان قادة الدين في مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان ، وكانوا يأمررون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التي ليس للأمريكيين الأصليين مناعة منها ، ومن أهمها مرض الحصباء ، فكانوا يوصون بأن يمكن الهنود الأمريكيون من الاستيلاء على الأغذية التي كان يستعملها المرضى بهذه الحمى . ويرون هذا الإجراء متفقاً كل الاتفاق مع الدين . . . » .

ولا ريب أن عيسى ابن مريم وأمه بريثان من هذا العمل الدنيء ، وأن الله لم ينزل في دين من الأديان وصاة بإهلاك الحيوان بله الإنسان على هذا النحو السافل . ولكن (أوربا) تستغل النصرانية ورجالها في محاربة الشعوب وتجريعها الغصص .

ومن ضروب هذا الاستغلال ما سجله الدكتور محمد عوض أيضاً وهو يستعرض فصولاً من حرب الأفيون التي شنتها إنجلترا لاستعمار الصين ، واستطاعت بتفوقها العسكري أن تقهر هذه الأمة الكثيفة ، وأن ترغمها على فتح بلادها لاستقبال الأفيون الإنجليزي ينقله القراصنة الحمر إلى المستضعفين المنكوبين من أهل تلك البلاد . قال : « ... وقد أتاح امتلاك جزيرة (هونج كونج) للبريطانيين مركزاً ملائماً لجمع الأفيون وتهريبه تحت الراية الإنجليزية ، وبذلت جهود في الوقت نفسه لكي توافق حكومة الصين على أن يكون استيراد الأفيون عملاً تجارياً مشروعاً ، فكتب « لورد بالمرستون » إلى المندوب البريطاني في الصين يأمره بالسعي إلى عقد اتفاق مع السلطات الصينية تسمح بدخول الأفيون إلى البلاد كسلعة من السلع التجارية ! وعرض هذا الاقتراح فعلاً على الإمبراطور وطلب منه — على سبيل الإغراء — أن يفرض رسوماً جركية عالية على الأفيون المستورد . فرد الإمبراطور بقوله : لقد أكون عاجزاً عن منع هذه السموم أن تدخل بلادى بالرغم منى لأن

في الناس من تدفعهم شهواتهم وحبهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى ! ولكن ليس في العالم قوة تستطيع أن تغريني بأن أستمند للدولة إيراداً من تسميم شعبي ونشر الرذيلة فيه . .

هذا هو الرد النبيل الحاسم الذي أدلى به امبراطور الصين . وما على القارىء إلا أن يقارن بين كلمات (لورد بالمرستون) الوزير المسيحي المتمدن وبين كلمات الحاكم الصيني المتأخر عن ركب الحضارة لكي يدرك إلى أى درك ينزل الاستعمار بالنفوس التي تدعى النبيل والصالح .

ولماذا نذهب إلى تاريخ قديم ننبش في رماده عن مآسى انجلترا وفرنسا وغيرها من الدول التي بطرت في الأرض من طول ما تشبعت وتوسعت ؟ إن الصحائف التي سودها الماضي الغابر لا يزال الحاضر المقبض يشيع في جوانبها الحداد والمآتم . .

بيد أن المزاغم الموغلة في الافتراء هي التي تستثيرنا ! أو ليس مما يملك على أن تقلب يديك عجباً أن تسمع مع هذا التاريخ الملوث أن أوربا تنشيء الحريات وتنشرها حيث ذهبت ؟ ؟

ذاك ما يثرثر به الساسة الإنجليز والفرنسيون ! ! ثم يحجىء دور الغزو العلمى بعد الغزو الحربى ، فلا يكتفى بنشر هذه الخرافة ، بل يعتمد إلى تاريخنا نحن المسلمين ينبغي أن ينال منه . . ! !

ونحن بعد أن سقنا نتفاً من المثل الرفيعة التي نادى بها (مونتسكيو) في استعمار أفريقيا و (لورد بالمرستون) في استعمار آسيا لا نرى بأساً من أن ننقل نبذاً من المثل « الوضيعة » التي صاحبت الفاتح الإسلامى وهو يستعمر الدنيا بالسيف — كما يقولون — . . ! !

دع جانباً ما يدعيه (مونتسكيو) من أن السود لا أرواح لهم ، وما يبتغيه (بالمرستون) من تسميم جماهير هائلة وإفناء أجيال بأسرها فدى لبريطانيا العظمى . أجل دع هذا جانباً ، واصعد بنا إلى أفق آخر بعيد بعيد . .

عند ما ذهب سعد بن أبي وقاص ليقود المسلمين وهم يغزون بلاد كسرى
أوصاه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فقال : « يا سعد بن وهيب ، لا يغرنك من
الله أن قيل : خال رسول الله وصاحبه ! فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن
يمحو السيء بالحسن . وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس
شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ،
ويدركون ما عند الله بالطاعة . فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه . فإنه الأمر . . .

هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين «
ولما اشتبك سعد بجحافل الفرس وتكالبوا عليه وخشى بطشهم أرسل إليه
عمر يقول : لا يهولنك كثرة عددهم وعددهم فإنهم قوم خدعة مكرة ، وإن
أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لم يجتمع لهم
شملهم أبدا . . إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم » .

فالأمر ليس أمر جيش يريد نشر الأفيون ليرض به أمة فيتمكن من
اختلاس أرضها ومالها . بل أنه أمر قبيل من الناس لهم حظ من الخلق الرفيع
لن ينزلوا عنه أبدا ، همهم الأول والأخير أن يؤسسوا حضارة تحفظ بها الأمانات
وتكفل الحقوق وتتكافأ الدماء والألوان ، فلا يفضل أحد أحداً إلا بالتقوى ،
ولو كان الفاضل زنجياً والمفضول أمس الناس رحماً بصاحب الرسالة نفسه . . !!

ويفسر هذا ما روى من أن قائد الفرس بعث إلى سعد يطلب منه رجلاً
عاقلاً ليفاوضه في مطالب العرب . . .

فبعث إليه المغيرة بن شعبه ، فلما قدم عليه قال له رستم : إنكم جيراننا
وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم . فارجعوا إلى بلادكم ولا تمنع تجارتكم
من الدخول في بلادنا . . .

فقال المغيرة : إنا ليس طلبنا الدنيا ! وإنما همنا وطلبنا الآخرة ! وقد بعث

الله إلينا رسولا قال له : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني
فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به ، وهو دين الحق
لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به إلا عز ...

فقال له رستم : فما هو ؟ فقال : أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به
فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والإقرار بما جاء من عند الله ...
فقال : ما أحسن هذا . . . وأي شيء أيضاً ؟

قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله !!!

قال : وحسن أيضاً . وأي شيء بعد ؟

قال : والناس بنو آدم فهم إخوة لأب وأم ! قال : وحسن أيضاً ، ثم استأنف
رستم ! : أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا ؟ قال : أي والله
ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة ...

قال : وحسن أيضاً ...

ويبدو أن الإسلام ومبادئه الجميلة وجدت قبولا من نفس القائد الفارسي .
إلا أن رؤساء الدولة أنفوا من متابعة هذه الدعوة وهم الملوك المترفون والسادة
المرموقون . فكانت الأخرى ... وكتب الله النصر للمؤمنين والحرية للمستضعفين
والخزي على الجبارين ...

سل ملوك الأرض عن دنيا الغرور في الملاهي ، خلف أستار الحرير !

زلزلتهم بين أبراج القصور ضربة من سهم عريان فقير !

أين هذه الصحائف المشرقة بالمبادئ والتجرد ، والإخلاص لله . مما صنع

ويصنع المستعمرون الغربيون ؟ .

موت الأبطال ... في الطريق

مما رمتنا به عصور الطراوة والانحلال هذه الفكرة السخيفة عن طرائق الموت !!

فالميتة بين جدران البيت وأحضان الأهل ، من دلائل ستر الله . والميتة على قارعة الطريق أو في حادثة دامية ، من مظاهر سحق الله . .

ومن أيام ، قتل عالم كبير تحت عجلات قطار ، فسمعت رجلا من الدهماء يقول الله يرحمه ! كان شيخا صالحا ! وما كان أهلا لهذا المصير المحزن . .

فنظرت إلى القائل — في استنكار وأسفت لأن هذه السوأة الخلقية والعقلية تشيع في زماننا هذا . وتنطق بأننا أجهل الناس في فقه الرجولة وفقه الإيمان معا !!

ولو درينا لعلمنا أن مصرع المؤمن في أي صدام ، مع الأشخاص أو مع الأشياء ، من آيات القبول وأمارات الصلاح . .

وأن سلفنا الصالحين كانوا يتمنون من أعماق قلوبهم أن تشوى جثثهم الممزقة في حواصل الطير وأجواف الوحوش . وهم هلكي ، لا بين أحضان الأهل الباكين والأحباب المواسين ؛ ولكن في وحشة الصحراء ورحاب الميادين ، أو في أي أفق مبهم من أعماء الدنيا ، وعلى شفة أحدهم وهو يجود بروحه قول الشاعر .

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزق
هكذا مضت سنة الإيمان منذ أبرم عقد الجنة ، ووصف الله من وقعوا عليه بأنهم « يَقتلون ويقتلون » .

وهكذا مضت سنة الرجولة من قديم الزمان . فاعتبرت موت الرجل بين أهله معرة ، لأن هذا شأن النساء والعبيد . أما الأحرار وحملة العقائد وأصحاب المثل وسدنة الشرف والمكرمات فمصارعهم تحمر بها صحائف التاريخ ويلبس الشفق القاني ثوبه الأرجواني منها !! وبذلك المعنى هتف الشاعر القديم .

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول
تسيل على حد الطببات نفوسنا وليست على غير الطببات تسيل
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
أجل هذه شارات السيادة ! لا يموت الرجل حتف أنفه ولكن يموت
في عرصات الوغى .

لما قتل الأمويون مصعب بن الزبير ، قام أخوه عبد الله فخطب الناس فكانت
خطبته تعيرا لبني أمية أنهم يموتون على فرشهم ! ! أما آل الزبير فقد كفنوا
في دمائهم بطلا من بعد بطل . .

وخطب أبو حمزة الخارجي يصف رجاله ، وكيف جدلتهم المنايا واستهلكهم
صدق الجهاد فكان من كلامه في لقائهم المحتوف « استخفوا بوعيد الكتيبة
لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه
طير السماء . .

فكم من عين في مناقير طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من
خوف الله . . !!

وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل
بالسجود لله . . !! »

فانظر مصائر أولئك الشباب كيف خطتها القدر ؟

وكيف تذكر في سياق الدلالة على حب الله ، والتفاني فيه . ؟

إن أولئك الشهداء المستميتين في محاربة البغي ، الذين رضوا أن تدق أعناقهم
قبل أن تدق على أبواب الإسلام يد آثمة . وأن تمزق أعضاؤهم قبل أن يتمكن من
الكيد لدين الله كافر سافر أو منافق خناس .

إن أولئك الشباب الهلكي ، المبعثرة أحشاؤهم ومشاعرهم هنا وهناك ، سوف

تجمعهم القدرة العليا بكلمة واحدة ، فإذا بالجبين المشجوج ناصع مشرق ، وإذا بالعين المفقوعة حوراء مبصرة ، وإذا بالجثة الممزعة بشر سوى يقول لله : آمنت بك وتحملت فيك ما ترى . .

وفي الجاهلية — قبل الإسلام — كان دريد بن الصَّمّة يفخر بأن لحم أسرته طعام السيوف !! وأن القتل استهدفهم لأنهم استهدفوه وتلك شيمة العظماء . .

أبي القتل إلا آل صمة إنهم أبوا غيره ، والقدر يجري إلى القدر

فإنا للحم السيف غير نكيرة !! ونلحمه حيناً وليس بذى نكر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطر !

أرأيت سياء الرجولة كيف برزت ملامحها المصقولة في عهود الجاهلية ؟ ثم كيف هيمن الإسلام على هذه الخلال القوية فجعل العقيدة سنادها والإخلاص شعارها حتى استحالت تحت لوائه قذائف تنطلق من مكائدها لتنفجر في مستقرها ، فإذا بها تهد ما تعالى من حصون الكفر والطغيان ، وتقر ما طورد من عناصر الحق والإيمان ؟؟...

أما اليوم ، بعد قرن أو قرنين من ضعف الدولة الإسلامية الكبرى واختفائها ، فقد اختلت مقاييس الدين والدنيا . وبعد أن كان الموت في الميدان أمنية تستشرف لها الهمم العالية ، وبعد أن كانت المصارع القاسية تنزل بالمصطفين لها ، فتشير إلى ما سبق لهم عند الله من مثوبة وما سيفدون عليه من كرامة . . أضحينا نرى جيلاً من أشباه الرجال يغمغمون بألفاظ الحسرة والأسف لأن فلاناً خر صريعاً ولم يمت في سريرته . .

شاهت الوجوه !!

هذا عرض من أعراض الداء الخبيث الذي أطمع شتى الأمم في بلاد الإسلام وأغرى من لا يدفع عن نفسه بالاندفاع في أحشائنا يعربد ويغتال وذلك أن هناك قلوباً تطرق إليها الوهن « أتدرون ما الوهن . ؟ حب الدنيا وكرهية الموت » . .

إن كنا مسلمين ، فما هذا الوهن بإسلام ! أو كنا رجالا فما هو
برجولة . . . !!

في هذه الأيام يحاربنا الانكليز ويشنون غارات شعواء على إخواننا في منطقة
القناة . والذي أفهمه كمسلم أن الرجال يجب أن يسافروا إلى منطقة القناة لا أن
يهجروها ، وأن يقاتلوا الإنجليز على كل شبر من أرضها ، فإذا أُلجئوا إلى القتال
في المدن فليدافعوا عن أحيائها حيا حيا ، فإذا سقط حي ما ، فليدافعوا عن البيوت
بيتا بيتا ، فإذا أحيط بيت فليدفع عنه سكانه حجرة حجرة . ولناخذ أسلحتنا من
الشیطان ، فإذا أعوزتنا الأسلحة فإن روح المقاومة والتحدى إذا ملأت نفوسنا
جعلتنا نفعل المستحيل .

يجب على الهيئات الحرة أن تستورد الأسلحة على عجل . ولتعلم الحكومة
التي تماليء الإنجليز على حساب الشعب أو التي تمنع تسليحه وتقتل مقاومته أنها
ذيل للأعداء يجب سحقه . .

ونحن نسأل حكومتنا الرشيدة وقد ألغت المعاهدة : لماذا لا تسارع إلى توزيع
السلاح على الشعب بأقصى ما يمكنها من سرعة وإلى متى يظل حمل السلاح
محظورا بل طريقا إلى السجن . . ؟

إن الانكليز قوم معروفون بالغدر والخسة . . وقد يزحفون بين عشية
وضحاها على عواصم القطر . فهل سنفرش لهم الطريق بالورود ؟ أم نقاومهم
بقذف الاحجار ؟

إن القاهرة أو الاسكندرية أو الزقازيق يجب أن تتحول إلى « ستالينجراد »
أخرى . فإذا دخلها إنجليزى لم يخرج منها إلا جثة هامدة .

نريد السلاح . . نريد السلاح . . . وأن نموت أبطالاً في مقارعة الحديد
لا ناعمين في فراشنا وبين ذوينا .

من صور القوة في القرآن

ما أعذب الماء البارد على شدة الظمأ ! وما أجمل القوة العادلة عندما تنساب
برداً وسلاماً فتحسم المظالم النازلة على الأفئدة الكسيرة ، وتطفىء الآلام التي برحت
بالمظلومين والمستضعفين . . .

إنه لا يعرف فضل القوة المؤيدة للحق إلا من شقى تحت وطأة الطغيان دهرًا
طويلاً ، إنه يستقبل طلائعها استقبال المقرور للدفع ، واستقبال الهيمان للإلف ،
إنه يعتبر زحفها بوارق الصبح تشق جناح الظلام ، ومعالم اليقظة تغزو البصائر
والأبصار . . .

وسلنا نحن — الذين طالما ناشدنا المستكبرين أن يتواضعوا ، والغاوين أن
يرشدوا — سلنا نحن — الذين طالما ناشدنا الظالمين أن يعدلوا ، والعابدين
لأنفسهم وهواها أن يوقروا ربهم ودينه — سلنا نحن — الذين بحث أصواتنا
في التذكير بآيات الله والحكمة ، فلم نجد إلا صداً وعلواً ، وحمقا وعتوا . سلنا : كم
تكون الفرحة ملء جوانحنا حينما نجد السيف قد قوم الصعر ، وأدب البطر .
وأكره الطاغوت أن يتضاءل ويتطامن ، ويستمتع للحق الذي كان يصم أذنيه
عنه ، ويستسلم للقصاص الذي كان في منجاة منه . . .

ما أنبل القوة العادلة عندما تحقق الحق وتبطل الباطل ، بعد ما كادت النفوس
ترهق من باطل لبس مسوح الحق ومشى في الأرض مطمئناً ، ومن حق علمته
زراية الباطل فتوارى عن الأعين مخدولاً ضائعاً . . . !

إن القوة التي تقيم بين الناس الموازين القسط هي ما أمر الإسلام بإعداده ،
وحض على بذل النفس والنفيس فيه .

وفي القرآن سورة يصح أن توضع آياتها في إطار من المدافع المتشابهة
والقذائف الملهمة ، لأنك تلمح في كلماتها القوى صورة الصراع الدامي بين جند

الرحمن ، وجند الطغيان ! وترى الفريقين قد ارتجت من تحتها الأرض ، وثار
من فوقهما النقع ! ثم انجلي القتال بعد ما كتب النصر لأهدى الفئتين وأرضاها
لله ، فتذكر قول الشاعر :

فتقت لكم ريح الجلال بعنبر . وأمدكم فلق الصباح المسفر ؛
وجنيتم ثمر الوقائع يانعا . بالنصر من ورق الحديد الأخضر !

أما هذه السورة فهي سورة (العاديات) .

بدأت بوصف رائق خيل المجاهدين وهي تنطلق بأصحابها إلى الميدان !
إنها تركض حثيثا إلى غايتها ، تنهب البر وتحرق الريح ، ولصدورها علو وهبوط
من تتابع الأنفاس واطراد العدو ، وفوقها فرسانها المغاوير يتسابقون إلى
لقاء العدو . .

كانهم في ظهور الخيل نبت ربا . من شدة الحزم لا من شدة الحزم
ذاك ما أخذت السورة تصفه . فجاءت آياتها على هذا النسق « والعاديات
ضربا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا » .
فإذا أحسست ضبح الخيل من طول لهثها ، أحسست كذلك انقذاح الشرر
تحت سنابكها وهي تضرب الصخور في طريقها إلى ضرب المبطلين ، وتورى
النار التي سوف تحرق وتضيء ، تحرق جلود الطغاة ، وتضيء سبل المعذبين المقهورين .
ثم تجيء بعد ذلك غارة الصباح ، وما غارة الصباح ؟ إنها الضربة الفاجئة
تنزل بالغاوين على حين غرة فيستيقظون من غفلتهم على مس العقاب ، ولات
حين مناص .

إنهم ظنوا أن الدنيا دانت لهم ، وأن الأوضاع استقرت تحت أقدامهم ، وأن
الفضائل التي طاردوها لن تجد من يحميها ، وأن الرذائل التي ألفوها لن تجد من
يدوسها ، فناموا ، وهم آمنون ! بيد أن للحق حراسا تسهدهم الآلام ، ويؤرقهم
ما تلقاه الحياة من عبث الطواغيت بأقدام العباد والبلاد ، إنهم يتحسبون الفرص ،

حتى إذا سنحت انقضوا على المجرمين انقضا الصواعق . فإذا الليالي تتمخض
عن المغيرات صبحا ، يطالع الناس أنباءها مع مطالع الفجر .

حدث قديما قتال بين المسامين واليهود . فزحف النبي صلى الله عليه وسلم ليلا
بجيشه على حصون خيبر ، فصحا اليهود مع الفجر ، ورأوا الصحابة محيطين بهم .
فقالوا : محمد والخميس ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر — هلك
خيبر — إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين !

وحدث في أيامنا هذه أن دخلت مصر في فترة حلكة من تاريخها — إذ طغى
عليها فرعونها الفر « فاروق » . ونشر المفسد في طول البلاد وعرضها — وأذل
الأحرار من بنينا — وعد نفسه إلها على أرض تخدمه عبيدها — وتسخر له
خيراتها — وتشبع شهواته المسعورة رجالها ونساؤها . . .

وفي ليلة نام فيها المظلومون مسهدين — ونام الظالم آمنا من مكر الله وعقاب
القدر . صحت الدنيا على معاول الثائرين وهي تنقض دعائم الفسق ورأت مصر
جيشها — مع بشار الفجر — يقلم أظفار الطاغية ويدل كبرياءه وأسفرت غارة
الجيش الموفق عن تحرير أمة وإقامة عدل . . .

إن العاديات المغيرات مع الصباح ليست جيوش استغلال ونهب ! إنها القوة
جاءت مع موكب النور لتحرير العبيد من أوهام الظلام ، ولتحقق الهدف الأسمى
من نزول القرآن « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ،
بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض » .

وإذا انطلقت القوى العادلة من مكائنها لتؤدي رسالتها فإن الاصطدام
بالجموع المتألبة المتحزبة ، وثوران النقع في جو المعركة هو أول ما يتبادر إلى
الذهن ، ذلك أن الباطل المستعمر بفجوره المستغرق في غروره ، لا يتخلى عن
ضلاله القديم بسهولة ، وربما تفانى في التشبث بآثامه وأوزاره !

ومن ثم فلن يستطيع تأديبه إلا رجال لهم جرأة في الحق تربو على جرأة

عدوهم في الباطل ، ولديهم حرص على التضحية في سبيل الله أشد من حرص أعدائهم على المغامرة والسطو ، والاحتفاظ بالكاسب الحرام . . .

ونحن إذا راقبنا سير الطغاة في الأرض وجدنا السيادة التي يظفرون بها أول أمرهم لا تعود إلى خصائص القوة في أنفسهم قدر ما تعود إلى آثار الوهن في صفوف غيرهم . . .

حتى إذا رزقت المثل العليا باتباع من أولى النجدة والفداء ، لم تلبث الحياة أن تعود إلى رشدتها ، ولم تلبث الأصنام المقدسة أن تستحيل إلى أنقاض مبعثرة في الرغام . . . !

وكيف تتم هذه الآيات الباهرة ؟ تتم بالقوة وحدها حين تنجد الحق المهزوم والخير المكلوم . . . فلا عجب إذا أقسم القرآن بأدوات هذه القوة ومجد طريقة عملها « والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا » . . .

إنه أقسم بصرامة الدواء على شدة الداء . أجل . فربما كان استخدام القوة عملا ينطوي في ظاهره على خشونة وقسوة . لكن هذه الخشونة وتلك القسوة تعتبران برا كريما وفضلا عظيما يوم تكونان علاجا للكنود والعدوان والتبجح وكم ابتليت الحياة بمن ملأ فجاجها بهذه الخلال الحسيمة فحولها جحما تشقى فيها الأفراد والجماعات .

فكيف النجاء من هذه الكروب إلا بالقوة العادلة ، القوة التي تجعل الشاعر يقول :

إذا الملك الجبار صعر خـده مشينا إليه بالسيوف نعائبه !

وعلاج الجبروت بالسيف عدالة تحمد لأصحابها في الأرض والسماء .

وقد أقسم الله بالعاديات وما وراءها على هذا المعنى إذ قال : « إن الإنسان

لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد » جحود حق الله ،

والمعانة بذلك ، والاستئثار دون الناس بالخير ، هذه هي أسباب الفساد التي يجب أن تستأصل بالنصح والإرشاد إذا كانت رذائل فردية هيينة ، أما إذا قام لها ملك وشرعت لتدعيمها رماح ، فلا يقل الحديد إلا الحديد .

وكان الإسلام يود لو أنصف الناس من أنفسهم بالمقل والحكمة ، بدل أن يلتزموا الإنصاف بالقهر والعنف ، غير أن غرائز السوء غلبت فلم يبق من قمعها بد .

والأديان لا تحمل السلاح إلا مكرهة ، وأنبياء الله كافة كانوا يتمنون لو استمسك الناس بفضائلهم ، وتعرفوا إلى ربهم وكرسوا حياتهم في شكر أنعمه ، وأحيوا ضمائرهم بمراقبته ، وأحسنوا الاستعداد للقاءه .

فلا غرو إذا اختتمت هذه الصورة العسكرية بمناشدة الإنسان أن يلتزم هذه المعاني الطيبة النبيلة . « أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير » .

والحق أنه إذا توافرت بين الناس الصدور السليمة ، وتركزت في قرارة أفئدتهم حدود الثواب والعقاب ، فإنه لن يكون ثم مكان للحرب والضرب ، أما مع طغيان الأثرة وانفلات الزمام فسيبقى العالم محتاجاً إلى القوة التي تقر العدالة ، والنظام ، مثل حاجته إلى الشراب والطعام ! !

وسنرى أنفسنا منساقين إلى تمجيد هذه القوة الكريمة .

من صور الفداء

فترة الشباب في حياة الإنسان هي أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة ،
والعواطف الفائرة ، وهي ليست عهد العافية المكتملة في البدن الناضج فقط ،
بل إنها — كذلك — عهد النزعات النفسية الجياشة يمدّها الخيال الخصب
والأمل البعيد ...!

والأمم تستغل في شبانها هذه القوى المذخورة ، وتجندها في ميادين الحرب
والسلم لتدلل بها الصعب وتقرب البعيد .

ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار ما بذل فيها من جهود الشباب
وهممهم ، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم .

وقد راقبنا الثورات التي اشتعلت في أرجاء (الشرق) ضد الغزاة المغيّرين على
بلاد الإسلام فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها وحملوا عبئها ، واندفعوا
بحماسة الملهبة وإقدامهم الرائع يخطون مصارع الأعداء ويرسمون لأمّتهم صور
التضحية والفداء ...!

ولا يزال الشباب من طلاب وعمال وقود الحركات الحرة ، وطلبة الثأرين
على الفساد والاستبداد ، وقبلة المربين والمرشدين ، والزعماء الذين ينشدون
مستقبلا أزكى لهذه الحياة .

ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوي عليه من دلائل الإيثار والتفاني
ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء مارميت به من أحداث
جسام وما فقدت من أعجاد عظام ، فلا ينتهي هذا العصر حتى نكون قد غسلنا
بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبي الذي أخزاننا في ديننا ودينانا ...!

بيد أن هناك رجلا تأخرت بهم السن ، وذهبت عنهم سورة الشباب ،

وتكاثرت الصلوات التي تربطهم بالدنيا ، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقدم في قلوبهم تمسك بالشباب المولى عن جلودهم وعظامهم ، وتبقيه ، بل تضاعفه ، في قلوب تنبض بالحق وتدفعه في العروق مع الدم ، فإذا بك ترى منها بأس الحديد ، وجرأة الأسود ، وإذا بك ترى رجالا تستهويهم المغامرة ، ويطيرون إلى التضحية في سبيل الله أخف من الشباب الغض . .

قد يقبل الشباب على المخاطرة وسبل البذل أمامه ميسرة ، فهو إن سجن لم يجزع على أسيرة يعولها ! وإن قتل لم تبكه امرأة أيم ! ولا ولد يتيم ! وخفة حملة من هذه الناحية تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب ، أو تريح العوائق من أمامه إذا ثارت في دمه نوازع النجدة . .

أما البطولة الفارعة فهي أن يكون المرء رب أسيرة كبيرة يضرب في مناكب الأرض لرعايتها ، ويسير في الحياة وهو موقر بأثقالها . غير أنه — وهو الزوج المحب والأب الرحيم والراعى المسئول — مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله ، مخلص للدين الذي اعتنقه مقدر للحقوق التي ارتبطت به ، فإذا أحس للإسلام طلباً سارع إليه ، ولباه بروحه وماله ولم تشغله أعباء الحياة التي يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التي آمن بها .

والإنسان عندما يقرأ استشهاد عبد الله بن حرام ، يرى في قصته جلالاً تنحني له الحياة ، إعزازاً للأبوة الرقيقة التي جادت بنفسها واستودعت الله أسيرة من غلام واحد وست بنات !

روى أبو داود والنسائي عن جابر بن عبد الله قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى المشركين يقاتلهم ، وقال لي أبي يا جابر ، عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرنا ؟ فإنني والله لولا أني أترك بنات لي بعدى ، لأحببت أن تقتل بين يدي ، قال فبينما أنا في الناظرين ! جاءت عمتي بأبي وخالي ، عادتهما على ناضح ! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في

مقابرنا ، إذ لحق رجل ينادى : ألا إن النبي صلى الله عليه وسلم يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم في مصارعهم ، فرجعنا بهما ، فدفناهما حيث قتلا . . .
وروى البخارى عن جابر أيضاً : لما حضر أحد دعانى أبى من الليل فقال لى : ما أرانى إلا مقتولا فى أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنى لا أترك بعدى أعز على منك غير نفس رسول الله ! وإن على ديناً ، فاقضه ، واستوص بأخواتك خيراً ، فأصبحنا . . . وكان أول قتيل .

هذا الصاحب الجليل خرج مع رسول الله ليصد هجوم المشركين على المدينة ، تاركاً وراءه هذه الأسرة الكبيرة وقوامها كما رأيت بنات محتجن إلى الكافل الحانى ، ولم يكن أبوهن ذا بسطة فى المال ينفق منه عن سعة — ويترك لعقبه من بعده ما يغنى ويصون ، بل كان الرجل مهموماً بشئون الرزق ، ينصب فيه ويستدين .
وغلام فرد إلى جوار ست بنات يكون غالباً قرّة عين الوالد وموضع حبه العميق ، لكن عبد الله يقسم أنه يود لو قدم ابنه ليستشهد فى سبيل الله ، وأنه إنما يعجل بنفسه حتى يبقى الابن للبنات يخدمهن ، فإن ابنه لو قتل قبله ، فلن تطول بالأب حياة .

إنه لا بد مقتول فى أقرب معركة . . .

إن أصحاب المبادئ سراع إلى تلبية مبادئهم : عندما يقرع باب الكريم ينهض وهو يقول :

فقتت ولم أجثم مكانى ولم تقم مع النفس علالت البخيل الفواضح
وعندما يطلب الشجاع إلى ساحة الوغى يذهل عن الحياة وأواصره بها .
وينطلق وهو يقول : « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » !!

وقد خرج أبو جابر إلى أحد ليلقى مصيره مع أبر شهداء الإسلام ، روى الشيخان عن جابر قال : أصيب أبى يوم أحد ، فجعلت أكشف عن وجهه وأبكي ! وجعلوا يهوننى والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينهانى ، وجعلت فاطمة بنت عمرو

رضي الله عنها تبكيه ! فقال صلى الله عليه وسلم : تبكيه أو لا تبكيه ، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه ، . وروى الترمذي عن جابر قال : لقيني رسول الله مرة وأنا مهتم ، فقال : مالي أراك منكسراً ؟ فقلت : استشهد أبي يوم أحد ، وترك عيالا ودينا . فقال : ألا أبشرك بما لقي الله به أباك ؟ قلت : بلى ! قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وأنه أحيى أباك فكلمه كفاحاً — أى مواجهة — فقال : يا عبدى ، تمن على أعطك ! قال : يا رب ، تحيىنى فأقتل ثانية ! فقال سبحانه وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم لا يرجعون . فنزلت : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ... » والمرء يحار ، أيعجب من كرامة الشهيد على الله ؟ أم من حلاوة الفناء فى الله التى ذاقها أولئك الشهداء ؟ إن أبا جابر لم يستشعر وحشة لفراق أولاده ، ولم تستشرف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده ، بل تطلع للعودة إلى الدنيا كما يذهل مرة أخرى عن أحب شيء فيها ، ويمشى بخطى ثابتة إلى ساحة القتال .

ولقد كفّل الله أولاد الشهيد ، وقضى عنه دينه فى حديث يطول . ولندع حديث الصدر الأول ، ونستأنف حديث الأشياخ المجاهدين فى عصرنا هذا ، إننا واجدون رجالا من طراز رائع صنعهم الإسلام القوى فأحكم صناعتهم وقذف بهم على جند الباطل فجددوا سير السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . من أولئك نفر الغر : عمر المختار ، البطل الذى بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء مطاردا « الطليان » الذين أغاروا على طرابلس ، وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار ، وفيه يقول « شوقى » :

بطل البداوة لم يكن يغزو على « تنك » ولم يك يركب الأجواء
لكن أخو خيل حمى صهواتها وأدار من أعرافها الهيجاء
وقد وقع الشيخ المهيّب فى أسر الأعداء ، فألفوا محكّمة قضت بقتله شنقا !
والطليان قوم لا ينتظر منهم شرف المعاملة لامع صديق ولا مع خصم ، وقد ندد شوقى بهذا الحكم الشائن فقال :

خفيت على القاضي ، وفات نصيبها من رفق جند قادة نبلاء !!
تسعون لو ركبت مذاكب شاهق لترجلت هضباته إعياء ..
ويقول :

شيخ تمالك سنه ، لم ينفجر - كالطفل - من خوف العقاب بكاء ؟
الأسد ترأر في الحديد ولن ترى في السجن ضرغاما بكى استخذاء
ثم يخاطب الشعب طالبا منه تجنيد الشباب وإعفاء الشيوخ . فيقول :
فأرح شيوخك من تكاليف الوغى واجمل على شبانك الأعباء
على أن منطق اليقين لا يكثر بفوارق السن ، فإن العقيدة المتفجرة
في القلوب الكبيرة ترد الكهول الوانين فتيانا نشطين ، أما إذا تخلخل الإيمان
فإن الشاب الجلد يمسي حلس منفعه تافهة ولذة مهينة !! ..

والدعوات العظيمة لاتضار بشيء مثل ماتضار بهذا الصنف من المتلونين
المتطلعين ، الصنف الذي يحاذر أن يمسه سوء ، ويسارع إلى إحراز الغنائم ،
ويشارك بجسمه أصحاب الرسالات ، أما قلبه فهو بعيد بعيد ...

الصنف الذي صور القرآن موقفه النبى المريب في هذه الآيات « وإن منكم
لمن ليُبطئن ، فإن أصابكم مُصيبة قال - قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم -
شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة
يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

والمرء لا يصلح أن يكون رجل دعوة وصاحب رسالة إذا بنى حياته في حساب
الأرباح والخسائر على هذا النحو المنكر .

ربما كان الرجل خالى البال لا يتبع أهلاً ولا مالا ، فهو يهز كتفيه لما تفد به
الليالى من أحداث . أفإذا بلى بأثقال الفضائل ألقى بها في عرض الطريق
وأضحى لا يهدأ أو لا يهيج إلا لمنافعه الخاصة ؟ ؟

كذلك فعل المنافقون قديما ! فعندما ندبوا للجهاد قعدوا واعتذروا « سيقول

لك المخلفون من الأعراب شغلتننا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرأً أو أراد بكم نفعا . بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً . . . »

إنهم توهموا الخروج مغامرة مخوفة العاقبة أو مقامرة بعيدة الربح فنكصوا وأفئدتهم صفر من معاني اليقين والتضحية التي تجعل الشهيد يقبل على الموت ، ويود لو يرد إلى الحياة لموت مرة أخرى ...

ولو كان الخروج لنفع يسير لكان لهم مع القافلة سواد كثيف ، « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغامرتنا لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعونا . كذلك قال الله من قبل ... »

وقد حذر الله المؤمنين أن تسيطر على أفكارهم هذه المآرب أو تتدخل في نياتهم هذه المنافع « يأيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . »

فلتكن لنا من حياة المجاهدين عظة ، ومن مماتهم عبرة ، ومن مسلكهم مع أهلهم وأموالهم أسوة حسنة ...

العالم الإسلامي يجب أن يصحو ...

وإلا فسيموت

لا أدري كيف نبتت فكرة نقل القوات الإنجليزية من القناة إلى غزة ؟ لماذا لم يكن الأساس الذي تبدأ عليه المفاوضة ردهذه القوات إلى البلاد التي قذفت بها ، أى إلى إنجلترا نفسها ؟ .

إن فلسطين لو كانت تضم جيراناً غرباء لكان من قلة الذوق والأدب أن يهاجمك في بيتك لص فتهب لمقاومته ، ثم تغريه بالانصراف عنك ليوجه عدوانه إلى جارك الملاصق ، موها إياه أن الصيد هناك دسم والغرض أقرب ! !

إن الاستيلاء على غزة معناه الاستيلاء على طور سيناء ، معناه إبقاء مصر في مهب العواصف المحتاجة ، معناه تمهيد العودة إليها من أيسر السبل . وتلك كلها فروض تذكر لو كانت فلسطين أرضاً غريبة عنا ، أو كان أهلها جيراناً أباعد لا يربطنا بهم إلا قرب الدار فحسب ...

أما وفلسطين من الوطن الإسلامي الكبير جزء يعتبر من صميم كيانه ومن دعائم عمرانته ، أما والسيطرة على فلسطين تفتح الطريق إلى القاهرة ودمشق وبغداد بل إلى مكة والمدينة . . فإن التفكير في ترك شبر منها لانجلترا أو لليهود لانسميه إلا كفرًا بالإسلام وجهلاً فاحشاً بطبيعة الكفاح بيننا وبين الاستعمار الغربي .

إن تشبث الإنجليز بالبقاء حول مدننا في منطقة قناة السويس ليس زهادة منهم في منطقة غزة أو شكاً في قيمتها العسكرية ، فهم يعرفون خطورة هذا القطاع من فلسطين ، ويوقنون بجدواه على جيوشهم . ولكنهم لا يجدون من أسباب الحرج ما يعكر عليهم صفوهم ويشير الرعب في قلوبهم ، والخسائر التي

تلاحقهم من كتائب التحرير قد تخذش جلودهم ، لكنهم لن يفكروا في الجلاء
إلا إذا أصيبت مقاتلهم فاختاروا بين الموت أو النجاة !!..

وهم على تفاهة ما يلقون يعرفون أن — أحرار مصر — إن اضطروهم
إلى الخروج من مصر فإن هؤلاء — الأحرار — يرتضون لهم البقاء في فلسطين !
فأى قلق يمتري الإنجليز من هذا الوضع الذي لا يزعج مستقبلهم في شيء ؟
إنهم في القناة يهيمنون على غزة ، وفي غزة — لو طردوا من القناة — يهددون
الشرق الأوسط كله . العلاج الفذ أن يطارد أولئك اللصوص الجمر في كل مكان ،
وأن تعلن عليهم حرب شعواء في كل ميدان ، وأن يضع المجاهدون سياسة ثابتة
لحسم العرق الإنجليزي النجس من بلاد الإسلام كافة حتى تشفى الإنسانية من
القروح التي خلقتها في جسمها هذه الإمبراطورية الملعونة .

ولو قرعت آذان الإنجليز هذه الصيحة من جنبات العالم الإسلامي الفسيح
تعلن بداية الجهاد المقدس ، الجهاد الذي يستنفد موارد لا تحصى من الرجال
والأموال حتى يصل إلى غايته المقررة وهي تطهير — الوطن الإسلامي الكبير —
من آخر جندي انجليزي — لو أنصت الإنجليز إلى تنادى المجاهدين في مصر
وفلسطين والعراق وباكستان وليبيا والسودان بضرورة محو الاستعمار الإنجليزي
ودك معالمة القائمة ، لعلموا أن ملكهم قد أوشك على الانهيار وأن ليلهم الطويل
قد طلع عليه النهار ..

بيد أن الإنجليز لم يستمعوا لهذه الصيحات الصادقة المجدية ، فقررُوا أن
يجربوا مع مجاهدى مصر ، ما جربوه قبلا مع مجاهدى فلسطين الجريح فاستأنفوا ،
أسلوب الفتك والهدم والإرهاب الذى أذلوا به القطر الشقيق ، كان هؤلاء
الأوغاد إذا أصيب لهم جندي بجوار قرية نسفوها داراً داراً بعد أن يفرضوا عليها
غرامة تلتهم ثروات الرجال وحلى النساء ، فكان أهل فلسطين المعذبون يفقدون
في جهادهم المضنى دورهم وأموالهم ، والمسلمون يمدون أبصار المتفرج
الأسيف فحسب ...

واليوم تتكرر المأساة نفسها وتتكرر كذلك الغفلة السائدة في ربوع العالم الإسلامي فقد بدا للقائد الإنجليزي أن ينسف قرية كاملة ، لأنه تخيل أن المجاهدين قد ينسابون منها أو يأوون إليها وجرد لذلك حملة من عشرة آلاف جندي وعدد ضخم من الدبابات والكَاسحات طوت بين عشية وضحاها بلدا عامرا ومسجدا طالما انبعثت منه كلمات الأذان وطالما تردد عليه الركع السجود . . .

واحتبس الألم لهذا الرزء في منطقة محدودة من العالم الإسلامي لأن أوصاله مقطعة في عشرين دويلة ، ولو كان جسما واحداً يسرى فيه تيار الألم لما يصيب بعضه ، لما أرتفعت العقائر بصراخ الألم فحسب . . بل لتحركت الأيدي تثار من أعناق الإنجليز في كل بلد . .

وأنا — شخصياً — جازع للطريقة التي تمت بها مأساة كفر عبده وليس جزعى من هدمها ، فتكاليف الجهاد قد تتطلب ذلك العواصم الكبرى لا القرى الصغيرة وإنما كنت أود أن تستमित كتائب التحرير في الدفاع عنها حتى تختلط دماؤهم جميعاً بأنقاضها المهدومة وأثائها المبعثر ، وفي كل حرب تدور نعرف أن هناك فرقا قد تشتبك في — قتال المؤخرة — أي أنه قد توضع خطة لسحب الجيش من ميدان إلى آخر فيشغل العدو بنفر من الجنود ليس لهم إلا أن يستमितوا في تعويقه ولو فقدوا حياتهم لإنقاذ كتلة الجيش الكبرى .

ليس الأمر موقوفا على حساب الأرباح والخسائر في معركة صغيرة بل الأمر يتعلق بأهدافنا العليا ، والذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن — كفر عبده — سيستشهدون جميعا بيد أن تضحياتهم ستكون ضياء النصر لكل أمة صممت على الكفاح الطويل .

على أن القتال بيننا وبين الإنجليز لن ينتهى ما داموا في بلد مسلم وما فاتنا من ضروب البسالة الواجبة في الماضي فلن يفوتنا في المستقبل إن شاء الله .

ونريد أن ننبه إلى أن الاستكانة وراء الحدود التي رسمها الاستعمار لتمزيق الإسلام وأذكي من أجلها النزعات القومية الضيقة — هذه الاستكانة خطر بالغ على المسلمين كأمة كبرى ، أو أمة ممزعة موزعة تحت ألوان شتى من الحكومات .
وليس أسهل على أوروبا من افتراسنا قطرا قطرا ، حتى إذا جاء دورنا وأعمل الوحش فينا أظفاره وأسنانه صحننا نادمين : إلا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! . . . ولات ساعة مندم . . .

على المسلمين من كل جنس ومن كل لغة أن يعلنوا على الاستعمار الحرب وأن يناوشوه بكل ما يقع في أيديهم من أسلحة وليضعوا نصب أعينهم أنهم قاتلوا مرتين في حربين عالميتين ، إلى جانب حلفاء مخادعين من هؤلاء الإنجليز والفرنسيين ، فلم يظفروا من قتالهم إلا بالغدر والخزى ، وعادوا إلى أوطانهم المغلوبة صفر الأيدي من أى خير . . .

على المسلمين أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما ، إما الصحو ، وإما الموت . . .

ميراث منسوب ..

تقبل ذكرى الميلاد الكريم - ميلاد محمد صاحب الرسالة العظمى - على البلاد التي تنتسب لدينه وتتلو كتابه وتتعلق بآثاره .. تقبل وهي تتعثر بين الحزن والحياء من سوء ما ينتظرها في بلاد الإسلام من أحداث وأوضاع .

أما وادي النيل فالإنكليز يعتصرون عنقه ، ويفتمزون مقاتله ، وليس أمامهم إلا حفنة من الأحرار يستقبلون عدوان الإنكليز بسلاحهم القليل ، ويتحسسون ظهورهم مخافة أن تنغرس فيها خناجر الغادرين من أعداء الشعوب وأعوان الاستعمار ! فإذا أصاخوا بآذانهم يرتقبون النجيدات المقبلة لشد إزهرهم سمعوا الأغاني الطروب من بواكير الصباح إلى سهرات المساء . وسمعوا في فرح أو في ترح أن دخلها سيرصد لأولاد الشهداء .. أي لأولادهم يوم يفنون في هذا الصراع .

وأما العرب فجامعتهم تعرض محاربة الشيوعية ولكنها تساوم على الثمن لأنها لا تحارب الشيوعية خدمة للإسلام ، بل زلفي إلى الصهيونية الأمريكية والصليبية الأوروبية ..

[والإسلام نفسه عدو أولئك جميعاً ، ليس له في ذاكرة الجامعة الموقفة حساب .]

[والأمم العربية] ثمة تترنح من طول ما خدرتها عقاقير الجهالة والمذلة التي تصنعها الطبقات الحاكمة . وليست في الدنيا الطويلة العريضة طبقات تجيد جعل الحكم قتلاً للجماهير ، ووأدا لحقوقها مثل الطبقات الحاكمة في الشرق . قصم الله ظهرها . . . وطمس وجوهها فردها على أدبارها .

وسط هذه المآسى تقبل ذكرى الميلاد الكريم ، ثم تسمع أن المسلمين سوف يحتفلون بها على العهد بهم كل عام وسيغنئ المنشد في سوامر العامة مناجيا الرسول . . .

وأجمل منك لم تر قط عيني وأحسن منك لم تلد النساء !!

وسيخطب الزعماء ويتبارى الشعراء وتسمع عظماءهم ، وهمازيلهم ينادون
الرسول أن يدعو الله لهم ، وأن يطلب — بمنزلة من ربه — أن يبدل فقرهم غنى
وهزيمتهم نصرا ...!!

وستمتلئ المتاجر بعرائس الحوى وربما حشدت مشيخة الطرق الصوفية فلولا
من رجالها يتراقصون ويتواثبون وينشرون ألوانا من طقوس الذكر الشرقى
الجديد ويسرون تحت أعلام لم ترفع يوما في ميدان جد . . ولندكر أن الحانات
ستغلق في يوم الذكرى وستحرم الخمر على السكارى أربعاً وعشرين ساعة ثم تعود
ميسرة من جديد ولن فاته الانتشاء في اليوم السابق أن يطلب المزيد . .
إن المسلمين حكومة وشعبا في مصرنا العزيزة سوف يحتفلون بذكرى الميلاد
المبارك . . على العهد بهم في كل عام !

عجبا لا ينتهى من عجب وفتونا ليس يبلى من فتون

ما تبغى أمتنا — عفا الله عنها — ؟ إنها إن حوكت إلى نواميس الدنيا
دانته ، وأن حوكت إلى نواميس الدين أخزتها . ومع ذلك ترقب من الظلمات
التي تخبط فيها تبشير النصر القريب .

إن احتفال امتنا بذكريات الرسول على هذا النحو الطائش لا ضرورة لها
وخير منها أن تتبع هذا الرسول إن كنا حقا نحبه .

منذ أربعة عشر قرنا حكوا أن أبا هريرة نادى الناس في السوق . أنتم هنا
وميراث محمد يقسم في المسجد ! فذهب الناس إلى المسجد ثم عادوا يقولون :
مارأينا إلا أناسا يقرءون القرآن قال : ويحكم ! وهل ترك محمد من ميراث
إلا هذا . . .

إذا كان القراء قديما يتقاسمون تراث محمد في المسجد ففي هذا العصر نجد
تراث محمد من هداية وملك تتقاسمه قوى الشر وترصد جهودها كله لهدمه وامتهانه .
ليست دلالة الحب لرسول الله أن يصيح رجل من فوق مؤذنة : يامليح
الوجه ! . فإذا جاءت ذكرى مولده جاء المسلمون به ليقرو القصص الشريفة
في ليلة مأجبة . .

ياغوثة ! أصار محمد قصة تسرد فصولها في جزء من الليل . . وصارت سمة
التقدير له أنه مليح الوجه . . ثم يقال : إن المسلمين يحتفلون بنبيهم ؟ ؟ . .
إنهم لا يعرفونه . ولا يتبعونه . . وفي خلال الحفلات التي تقام اليوم لمولده
يخلى الطريق في بلاد محمد لأعداء الله وخصوم الإسلام .

الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة

المسلم عبد للإله الواحد . الذى خلقه ورزقه ، وجعل له الأرض فراشا والسماء بناء ، ورسم له غايته من محياه ، وعقباه بعد مماته ، ثم قال له ولإخوانه المؤمنين « يا عبادى الذين آمنوا : إن أَرْضِي واسعة . فإياى فاعبدون . . »

[ولست بقعة فى الأرض أحق من أخرى برسالة المسلم ! ولن يكون المسلم عبداً لمكان ما فى هذه الدنيا يعلق بترابه ويرتبط بأسبابه ! ! إنما هو ابن رسالته الكبرى . وهذه الرسالة الكبرى تربط فؤاده بالناس ورب الناس ، وتوسع أفقه حتى يتسع للعالمين ورب العالمين .] إنه يحب وطنه الذى ولد فيه واستمتع بخيره وعاش قطعة من تاريخه ، وهو يؤدى حقوق هذا الوطن ويستشعرها أكثر مما يستشعرها غلاة المتعصبين للزعات القومية المحدودة لكنه - مع ذلك - يخدم حقيقة أكبر من أقطار الأرض وآفاق السماء ، لأنه يصل قلبه ولبه برب الأرض والسماء ، ومن ثم انداحت الدائرة التى يعمل فيها ، وذابت الحدود التى تحصرها . . .

وقد عرف سلفنا الأولون هذه الحقيقة وبنوا عليها سلوكهم الاجتماعى والسياسى فكان علم « الجغرافيا » يسمى فى مصطلحهم علم « تقويم البلدان » كأن الغاية من دراسته هى الغاية التى تقصدها من مطالعة « دليل » تشتريه من محطة السكة الحديد لمعرفة المحطات المختلفة ومواعيد وقوف القطار بها . وكان المسافر المسلم ينزح من المغرب ليصل إلى الصين فلا يحمل معه « جواز سفر » ولا يلقى أمامه « حرس حدود » ، وكان نصف الدنيا مفتوحاً له ينتقل فى مشارقه ومغاربه كيف شاء ، وكانت نظرتة للعالم تجرئه على التسرب فى مجاهيله والتغلغل فى أعماقه ، فإذا اطمأن به المقام فى ناحية حط بها رحاله ، وفى نفسه قول الشاعر :

وكل امرئ يولى الجميل محب وكل مكان ينبت العز طيب

ولاشك أن هذه الحياة المتحركة كانت استجابة لتعاليم الإسلام ، وفهماً
لسنة رسوله الكريم ..

روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : مات رجل بالمدينة — ممن ولد
بها — فصلى عليه رسول الله ، ثم قال : « ياليت مات بغير مولده » !! قالوا :
ولم ذاك يا رسول الله ؟ قال : « إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس بين مولده
إلى منقطع أثره في الجنة » ...

فانظر إلى هذا التحريض على الهجرة والضرب في الأرض ! من الذي استجاب
له واستمسك به ؟ أنحن الذين صنعنا ذلك ؟ كلا .. إن المقامرين من طلاب الحياة
وصناع المجد هم الذين طوفوا في البلاد ، وتركوا طابعهم عليها ...

أما القاعدون خلف أسوار بلادهم ، فقد استكانوا للدعة والحمول ، وصرت
عليهم القرون متهاكة مريضة .. ثم استيقظوا فجأة فإذا بهم أسارى في أيدي
الأقوياء ، الأقوياء الذين تركوا بلادهم إلى بلادنا ، مستعمرين ينشدون
الثروة والجاه ...

نظرت لبني وطني في هذه الأيام فهزرت رأسي أسفاً !! ماذا هم حتى قبعوا
في أماكنهم لا يفكرون في هجرة ولا رحلة ؟ بل يحسبون الانتقال من بلد إلى بلد
غربة يستحب البكاء معها !!

وتجاوز الأمر إلى أن المواطن أصبح يحب أن يبقى مواطنه إلى جواره حياً ،
فإذا مات أحب أن ينقل رفاته إلى جانبه !! لأنه يعز عليه بعباده ولو صار
في الهالكين ... !! أسمعت إلى بكاء الأهلين على شهدائهم في فلسطين ؟ أسمعت إلى
جوارهم بالشكوى وهم يصيحون لكي تنقل جثث أحبائهم إليهم ، من غزة إلى
مصر ؟ ما هذا يا قوم ؟ إن وحشتكم لرحيل المجاهدين ، وحسرتكم لوفاتهم ،
وتلهفكم على استرجاع ما بقي من عظامهم .. إن دل على شيء فعلى قصور المهمة
وهوان التفكير .. وإن إبداء هذه المشاعر الضعيفة عمل شنيع يكشف عن قلوب
هواء ، وإيمان هباء ..

وإنه لمن الموجه أن أقول : إن هذا الجزع لم تنفعل به قلوب الكافرين !
وإن هذا الطلب لم يجر له على ألسنتهم ذكر قط !! في الطريق إلى مشارف غزة
مقبرة تضم جثث الجنود الإنجليز الذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى عندما اشتبك
الغزاة الصليبيون بالجيش التركي المدافع عن مواقعه في فلسطين .

رأيت المقبرة تحتل مساحة فسيحة من الأرض ، وترتفع فوقها الصليبان ويلفها
سوار من الأشجار النامية ، يتعهدا حارس وظفته الحكومة الإنجليزية للعناية
بأبنائها ، الذين ذهبوا فداء الإمبراطورية الضخمة وما لنا نذهب إلى غزة ؟ إن
مقابر الجنود الإنجليز بشواهدا ودلائلها لا تزال في أماكنها العتيدة من أرضنا ،
في التل الكبير ، وفي القاهرة ، وفي الخرطوم . . ما فكرت أم ولا طالب أب
بمفاتحة الحكومة الإنجليزية في لندن أن تجمع عظام الغرباء المبعثرة في شتى البلاد
لكي يحج إلى مزارها القريب أب محزون أو أم ثكلى !!

أمانحن المسلمون فلانستحي من المطالبة برد قتلانا في الأرض المقدسة ليدفنوا
في مقابر أسرهم بقرى مصر أو مدنها !!

ولا تستحي بعض الصحف من ترديد التأوهات الباكية للنسوة الضعيفات
الساعات وراء هذه الغاية . .

يجب أن تبقى قبور الشهداء حيث حفرت ، وأن تظل أجسادهم الكريمة
حيث استقرت . .

إن صلاتنا لم تنقطع ولن تنقطع أبداً بالأرض التي قاتلوا فوق ثراها والمبادئ
التي استشهدوا لإعلانها . يا أصحاب الهمم الساقطة ابكوا وحدكم فلن نرثي لحالككم
والله ما يرقى بكم بلد ، ولا يثبت حق ، ولا يرحم ضعيف ، ولا ينصر مظلوم . .

ابكوا وحدكم ، أو موتوا بحزنكم ، فلن تبكي الدنيا عليكم ولن يأسف
الدين لفقدكم . .

إن مقابر الإنجليز الموزعة على أرجاء ملكهم العريض لا يزال ينبعث منها صدى

يصيح بسكان الجزر المختفية في شمال العالم : أن ابحثوا عن مجدكم وراء البحار !
واحكموا بسفنكم الأمواج ! . وسيستمع الإنجليز في جزائرهم بأقصى الشمال
إلى هذا الصوت فيواصلون توغلهم في بلادنا المهيضة . . المهيضة بأقوام
لا يحبون أن يفارقهم أحباؤهم — وهم أحياء — فإذا حدث أن ارتحلوا ، فماتوا
سعدوا حثيثاً ليقربوا مقابرهم منهم حتى يطيب إلى جوارها العويل !! ..

يا قوم : دعوا الشهداء مستقرين حيث سقطوا في ساحة الوغى . وتعلموا
منطق الإيمان في مجابهة الشدائد ، وأعدوا أنفسكم لدنيا لا تهديأ ميادينها ولا تنقطع
مغارمها ، وربوا الأجيال الجديدة على روعة الفداء ، حتى إذا شب طفل فسأل :
أين أبي ؟ فقيل له : إن قبره في فلسطين ! شب وبينه وبين المثل العليا نسب وثقته
الدماء المبدولة والتضحيات الجسام ...

التل الكبير بين الأمس واليوم

كنت عندما أمر على الصفحات المنطفئة التي تروى قصة دخول الإنجليز مصر ، وعندما أغمض العين على القذى وهي تدور بين صور متلاحقة من مشاهد الهزيمة الرخيصة والخيانة الداعرة ... وعندما أطوى الجوانح على حسرات مكظومة للبطولة المضرجة بالدم والمروءة الممرغة في التراب ، ثم أطويها مرة أخرى على سخائم سود للأندال الذين ضحكوا في مأتم البلاد وبنوا مجدهم الدنس على أنقاضها ، وكنت عندما تغمرني الذكريات الكئيبة وتبسّط أمامي رقعة الصحراء ، وخيام الجيوش ، وهمس المتآمرين وذهب الإنجليز ومطامع الوثنيات السياسية وآمال الطليعة الحرة ، وعندما تجيش بالنفس مشاعر الثبات والوفاء فتبقى — مع الخيال — لتبديد مع الفرقة التي فنيت عن آخرها وهي ترد العدوان ، وعندما أصحو على الواقع المخزى فألمح للصوص الحمر يتواكبون سراعاً إلى القاهرة المقهورة بعدما ذبح جيشها وسقط علمها ...

كنت عندما أستعرض تاريخنا في هذه المعركة وما أدى إليها ، وما تمخض عنها ، أنفض يدي منه وأشيح بوجهي عنه ، لا شيء ، إلا لأنني أنوء برؤية الرجولة تصرع ، ثم تلتطخ ملامحها النبيلة بالأوحال ، كما أنوء برؤية الخيانة تسمو ويتوج رأسها بالأكاليل والأزهار ...

ألا لعنة الله على هؤلاء الإنجليز ومن أتى بهم إلينا ، ومن مكن لهم بين ظهرانينا ...

لو كانت الجبهة المصرية وراء الجيش المصري بالتل الكبير متمسكة لا تنقضها فرقة ، نظيفة لا تلوثها خيانة ، لاندحر الإنجليز وردمت قناة السويس بجثثهم ، وخرج جيشنا من هذه المعركة رافع الرأس منير الجبين . . لكن الإنجليز مهدوا لاحتلال الوادي بما يجعل الغنم كله لهم والغرم كله على أهله فحسب ، وأعانهم الحكام

المنافقون على إحكام خطتهم فظفروا بمصر من غير أن يضحوا في الاستيلاء عليها
تضحية تذكر ، ووقع مفتاح العالم الإسلامي غنيمة باردة في أيدي الصليبيين الجدد
بعد ما أعيا أسلافهم مناله .. وبعد ما انهزم ملكهم « رتشارد » هزيمة نكراء
وهو يهبو على يديه وقدميه يبني الوصول إليه ..

لم يخسروا من جنودهم أحداً وهم أمام جيش هزمهم قبلا في كفر الدوار
ورشيد وردهم على أعقابهم خاسئين .

أما اليوم وبعد سبعين عاما من المعركة الأولى فإن الإنجليز العتاة يختبئون في أبراج
الدبابات ، وينقضون بالطائرات النفثة ، ويطلقون مدافع الميدان الضخمة على من؟؟
على بضع مئات من أولى الفداء والنجدة هبوا يقاتلون الألوف المسلحة
بأحدث ما أنتج العلم ، ويثبتون في صفوفهم الرعب والفرع ...

وتأتى الأنباء تترى ، فإذا بخسائر الإنجليز اليوم أضعاف خسائرهم في موقعة
التل الكبير التي جرت قبل سبعين سنة !! بين جيش وجيش

إن السلاح الفذ الذي أظفرهم علينا ، بل الذي أظفرهم في حروبهم كلها
هو الخيانة والدسيسة والمكر السيء .. فلما فقدوا هذا السلاح في المراحل الأولى
للمعركة الحالية ظهروا على طبيعتهم العارية جبناء كأخس ما يكون الجندي الجزوع
الهلوع ، واستبان للناس أن الإنجليز لا يواجه المصري في ميدان مكشوف
إلا إذا كانت من فوقه طائرة تحرسه ومن أمامه دبابة تحميه وإلا إذا كان مجهزا
بأثقال من الذخائر وكان خصمه مع هذا كله أعزل إلا من خنجر أو بندقية
قليلة الطلقات !!

وضربة الجبان شديدة ، لأن فرقته على حياته يركز قوته فيها ولأنه لا يطمع
أن يضرب غيرها ! وقد كانت ضربات الإنجليز في منطقة القناة من هذا النوع ..
تنطلق جيوش كثيفة العدد كاملة العدة لهدم أحياء معزولة أو مهاجمة قوم عزل ..
ومع هذا التفاوت بين قوى اللصوص الحمر وبين قوى الكتائب المنتصبة

لكفاحهم ، فإن ضحايا الإنجليز أربت مائة مرة على خسائرهم في معركة التل الكبير قبل سبعين سنة ...

وعاد الإنجليز إلى طبيعتهم الملتوية ليقابلوا المجاهدين بالسلاح السرى الوحيد الذى ينتصرون به ، لقد ضاقوا بقتال الأبطال وجهاً لوجه فليبحثوا عن يطعن المجاهدين في ظهورهم .. وليجربوا خطتهم التى أ كسبتهم معركة التل الكبير قديماً . والخيانة فى ميدان الكفاح كالزنا فى ميدان الفحش تحتاج إلى أطراف آثمة لتتم كما يحتاج الوقاع الحيوانى إلى فاعل ومفعول ، والوقیعة السياسية التى تستهدف قتل أمة تتطلب الأمرين كذلك وقد مد الإنجليز حبالهم وبدأوا دسائسهم ، هم الآن ينتظرون .. ونحن أيضاً ننتظر ..

وهم ينتظرون من يبيع الوطن ليلتقى بهم على جثث الشهداء ، ونحن ننتظره لنسم وجهه بالعار ونسلمه إلى زبانية النار وبئس القرار .

« قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ..

ونحن ننذر « الباشوات » الحاكين والمرشحين للحكم ، أن أدنى تعاون مع هؤلاء الإنجليز المعتدين سيكون وخيم العاقبة عليهم وعلى ذرائعهم إلى يوم الدين .

إن أمتنا صبت اللعنة على المعاهدة التى تبرر بوجه ما بقاء الإنجليز فى بلادنا ، وأعلنت أنها لن ترضى بغير الجلاء الناجز بديلاً وكان على الحكومة أن تتحول إلى منظم فعال للثورة المسلحة ضد المجرمين الغاصبين ، وأن تعبى ما تملك من مال وقوة للوصول بالشعب المكافح إلى غايته الواضحة .

غير أن الحكومة سارت على مبدأ « أبغض بغيضك هونا ماعسى أن يكون حبيبك يوماً ما » . ومن تم فهى تخاصم الإنجليز خصام من يبق للصالح موضعاً ، واكتفت من فروض الكفاح الواجب عليها بأن غضت الطرف عن المجاهدين وهم يخرجون إلى ضفاف القناة ليدفعوا هنالك ضريبة الدم .

والغريب أننا لما نقمنا على الحكومة هذا الموقف وجدنا فجأة أن هناك من
يحقد على الحكومة لا سكوتها على إمداد المجاهدين ، بل سكوتها على
إرسال المجاهدين .

كأن الاندال كانوا يتوقعون أن توضع القيود في أيدي الأبطال المناضلين ثم
يزج بهم في أعماق السجون . . . إننا إن نقدنا الحكومة على تراخيها . . فلن
نترك دعاة الهزيمة من غير أن نكشف سوءتهم ونفضح عورتهم .

ونحن نعلم أن الإنجليز يمدون شبا كههم في هذا الجو طامعين أن يعودوا
بصيد مليء ، فإذا أحرزوا ما أمّلوا فسيديرون المعركة الجديدة كما أداروا معركة
التل الكبير من سبعين سنة . . ويومئذ يقع على رؤوسنا الغرم كله ويستريح
الإنجليز من تبعات القتال الذي يذوقون ويلاته من شهور .

إن الحديث الدائر على أفواه الناس اليوم هو وجوب تأمين ظهور المناضلين
وتوسيع الدائرة التي يعملون فيها حتى تشمل الوادي كله .

ونحن إن كنا نهدد الخونة بقطع أعناقهم إذا خانوا البلاد التي يحيون فيها
آمنين . . فإننا نطالب الحكومة أن تقوم بواجبها كاملاً في هذه المعركة الخطيرة .

١ — فتغلق أندية اللهو وتدع ظاهر الإثم وباطنه ، تضرب بقسوة على
أسباب الفتنة والخلاعة والميوعة ، وتسوق الجمهور إلى المعسكرات ليتدرب
ويستعد ، وتصبغ الحياة العامة بصبغة جديدة من الجد والمرارة والمصابرة والرباط .

٢ — تلغى حالياً قوانين حمل السلاح التي وضعها العهد البائد ويترك تداوله
حراً في أنحاء البلاد ، وتستورد الحكومة المزيد منه لمواجهة المستقبل المبهم .

٣ — تقطع العلاقات السياسية فوراً بالإنجلترا وتوقف مع أمريكا ويصارح
مندوبنا في هيئة الأمم العالم كله بأننا سئمنا أساليب اللصوصية الغربية وأننا قررنا
أن نعيش أحراراً وليكن ما يكون .

٤ — يصدر فوراً قانون بإعدام كل متعاون مع الإنجليز متآمر على مصير البلاد مهما كان شأنه .

٥ — تشترك الحكومة في تقوية الكتائب وتدعيم صفوفها ، وإمدادها بالموثون والذخائر .

٦ — يجب تأمين الكفاح الشعبي وصرف أعطيات سخية لأسر الجرحى والشهداء وتأييد هذه الأعطيات حتى لا يهون بيت من بيوت الأبطال .
هذه مطالب نلح على الحكومة أن تنفذها . . ونلومها أشد اللوم على تباطؤها في إقرارها .

وفي الوقت نفسه نرمق في حذر أصابع الإنجليز وهي تغمز الخونة أن يثبطوا الهمم ويطفئوا حماسة الثائرين (*) .

(*) من المفارقات الجديرة بالذكر أن مجلة « الدعوة » يوم نشرت هذا المقال نشرت في صدرها قراراً بأنها لا تمثل الإخوان المسلمين ولا تنطق باسمهم ولا تصور رأيهم في السياسة العامة .

حول فلسطين والمشوهين . . !

في هذا الأسبوع تجمع الصدقات لمشوهي فلسطين — كما يسمونهم — فتمتد الألف بما تجود به الأنفس ، ثم ترصد هذه التبرعات للانفاق على أولاد الشهداء ، وعلى الأبطال الذين فقدوا أعضاءهم أو حواسهم في حرب فلسطين فأصبحوا عاجزين عن العمل .

قد يكون أكل الصدقات المبدولة أفضل من الجوع ، وقبول المعاونات الطارئة أفضل من الانقطاع في مجتمع ممزق الأوصال ، ومع ذلك فإنني أحس غضاظة شديدة من هذه الحال ، وأرى حق الشهداء والمنكوبين على أمتهم أكبر من أن يؤدي على هذا النحو . .

إنني أسأل الله شرف الموت في سبيله ، ووددت لو كنت لذلك أهلا . غير أنني أتألم في حياتي الآخرة إذا رأيت أمتي تتنكر لأسرتي ، وتعولها من استجداء المحسنين !! .

فكيف إذا كان قسط كبير من المال المجموع للضحايا والمشوهين سيأتي من رواد اللهو — الحلال أو الحرام — ثمن ساعات يقضونها في السرور واللذة . وسيتنازل بائعو المتع عن حقهم في الثمن الكبير (!) إلى أولاد الشهداء ، وإلى الرجال الذين عادوا من الحرب تاركين أجزاء من أبدانهم في ساحتها . .

ستغنى الأنسة « أم كلثوم » بصوتها الساحر ؟ وستصحبها موسيقاها العذبة ! وستبجح الحناجر من الهتاف لها ! وتتعب الأيدي من قوة التصفيق ! . . ثم تنقضي الليلة الساهرة ، ويؤخذ الثمن المعلوم ، ويتقدم به الرجال الطيبون إلى الأرامل واليتامى والمصابين في حرب فلسطين وستمثل كذلك دور « السينما » عدة روايات للغرض نفسه ، وتمنح أجورها للضحايا وأبناء الضحايا وبناتهم .

فأما تقدير الناس لهذا الجهاد ، أو استخفافهم به فأمر ليس له في حساب المجاهدين وزن .

إن المجاهد المخلص لم يخرج لترى مكانته ، ولم يضح ليقبض من الناس أجره ، ولم يتقدم ليقول الجبناء عنه : متهور !! أو ليقول الشجعان عنه : جرى !! كلا كلا . .

ثم ما هذا المستقبل الذي يزعم السفهاء أنه ضاع على الطلاب المقتولين في معركة الشرف ؟ إن هؤلاء القتلى أحرزوا مستقبل الحياة كلها ، أحرزوا الخلود أبد الآبدين في جوار أكرم الأكرمين ، لقد كسبوا كل شيء يحرص الراشدون على اكتسابه في حين ضاع على أغيارهم من القاعدين كل شيء ، فهم في ساحة الحياة الدنيا يتراكمضون خلف سراب يعجز طالبه عن إدراكه ، ولو أدركه ما امتلأت يداه منه إلا فقراً . . . ؟ ؟

هب الشهداء ظلوا أحياء في معاهدهم ونالوا الدرجات العلمية التي يصبون إليها وتسمنوا في الدولة والمجتمع أعلى المناصب . . ثم ماذا بعد ؟ ماذا بعد طول المكث في الأرض ؟ وجمع الحطام من أسواقها الحاشدة ؟ ماذا إلا التأخر عن مواطن الكرامة التي تعجل للشهداء ؟ والتعرض لمتاعب العيش التي تفرض على الأحياء : « وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ، وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ » !!

ولو أن الحياة تبقى لحى لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً

لقد كنت جهير الصوت في استنفار الشباب لملاقاة الإنجليز ، وإشعارهم أن للإسلام رجالاً يكرهون الدنية ويؤثرون ما عند الله على الدنيا وما تضم .

وقد أفلح هذا الشباب الحر في أداء رسالته على نحو أثبت للعالمين أن الإسلام

قادر في كل عصر ومصر على خلق البطولات التي تتحدى الفياق المدرعة ، وهي لا تحمل في أكفها إلا السلاح .

وقد انطفأت النار التي اشتعلت حيناً على ضفاف القناة ، وخاضها شباب الإخوان المسلمين ببسالة رائعة ، أجل انطفأت ولم تنضج ثمارها ، وقصة هذا الختام المؤسف مثل فريد لشذوذ الأوضاع في بلادنا ، ومثل فريد كذلك لأخذات القدر العادل حين يمهل المجرمين ثم يسوقهم إلى مصرعهم سوقاً .

كان الجندي البريطاني المغير على وادي النيل يقاتل الشباب المجاهد وعدته في قتاله من الوفرة والكثرة بحيث تجعله في حرز حرز ، ومن ورائه بعد ذلك الإمبراطورية كلها ملكاً وحكومة وشعباً ، إنهم جميعاً يشدون أزره ويحمون ظهره ويررون عذره .

أما مجاهدونا فكانوا تتسول الأسلحة لهم بشتى الحيل ، ومع ذلك فقد كان وراءهم ملك يحمل رتبة قائد في الجيش الإنجليزي وكان لعنة الله عليه بيت ويصحو وهو مشغول بتدبير الكيد للمجاهدين الأبرار وكان يرسل مندوبيه ليشهدوا جنازة ممثلة ميتة ، ويأبى إرسال من يمثله في جناز الشهداء ، هذا هو الملك الذي كان يحكم برغم الدساتير في طول البلاد وعرضها . أما الحكومة فقد أعلنت سخطها على الإنجليز ثم وجلت من عواقب هذه الخصومة فوقفت تحصى على الإنجليز أعمالهم الحمجية ! وسكتت كأنها رقب صاحباً يسوى الموقف كله ! إنها أعلنت العداء ، ولم تقاتل ولم تمد المقاتلين بسلاح !

وأما الشعب فكان مسرحاً لدسائس الملك الخائن تنشرهاله الصحف المأجورة ولدعايات الحكومة المترنحة تحت أعباء أعجزت همتها الضعيفة ، وكان إلى جانب ذلك يستمع مشبوب الأمل إلى أنباء المجاهدين وهم ينسفون مستودعات الذخائر ويرمون بجثث الإنجليز في ترعة الإسماعيلية .

لكن شتان بين جندي مسلح من ذؤابة رأسه إلى أخمص قدمه ، تقويه

حكومته وأُمته وملكه ، ومجاهد متوجس يحمل قطعة تافهة من السلاح ، ويخشى أن تطبق عليه قوانين بلاده فيدخل بها السجن ويعتبر مجرمًا ، ومع هذا البون الشاسع فإن الشباب المجاهد حافظ على شرف الإسلام وخرج من المعركة بطلا كما دخلها بطلا ، وقد خلف بين يديه طليعة من الشهداء ليسبقوه إلى الفردوس الأعلى . . .

لم يكن أغبط لنفسى من نجاح فاروق وحاشيته فى إحباط حركة القناة ومن رجوع المجاهدين يتوارون تحت أستار الليل بعدما انتصرت عليهم الدولة الاستعمارية العجوز بسلاحها الفذ ، سلاح الحيلة والخبث ! ووضح للأمة جمعا أن ملكها هزأ بها ، وأنه بين عشية وضحاها حبسها فى سجن الأحكام العرفية ، فأمسى الرجل لا يملك حق الخروج من داره أعزل بعد أن كان يسير فى الطريق مسلحاً وأخذت محطة الإذاعة ترسل الأغاني الخنثىة فحسب ، وهى التى كانت منذ ساعات تنشر بالفخر أخبار الكفاح الدامى ، وتقرع الأذان بطبول المعارك ، وهممة الكتائب فى جوف الليل ! وأقفرت الصحف إلا من لغو القول ، فقد صدر الأمر ألا تكتب آية من القرآن توصى بمجاهد وإذا عدا قلم « الرقيب » على آيات الله يمحوها أفكانت تثبت فكرة مشرقة أو عاطفة حارة ؟ .

وتساءل الناس : أهذه نهاية الرواية الموجهة التى بدأها أصحاب اليقين والفداء وختمها أصحاب اللهو والأثرة ؟ حتى أهل الإيمان الراسخ بدأ القلق يساور أفئدتهم ! أتسفك أغلى الدماء ، ويقتل أذكى الرجال ، ليجىء ملك وغد آخر الأمر فيطمس بقدمه معالم الخير التى خطت ، ومسارب النور التى شقت ؟؟

وأطرقنا جميعاً ننظر إلى الأرض ، وبين الحين والحين نرسل البصر الضارع إلى السماء !!..

وجاءت عدالة ربك فطاح العرش المستكبر ، وانزاح صاحبه المفتون
« . . . فصبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » . .

وتكلم بعض الناس أن الله ثار للشهداء ممن استهان بدمائهم الغالية وهم
واهمون ، فإن الملك المخلوع وماسطا عليه من مال وجاه لا يساوى شسع نعل شهيد
وليس للشهداء دية في الإسلام ولا ثأر . إنهم حملة رسالة عاشوا لها وماتوا فيها . .

أما الذين كادوا لهم وتآمروا عليهم فقد حق فيهم قول الله عز وجل :
« ومكرُوا مَكْرًا ومكرنا مَكْرًا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرِهِم
أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لقوم يعلمون . وَأُنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ »

للذكرى والعبرة

شهداء الجامعة في معركة التحرير

عندما استطاع الملك السابق فاروق إطفاء معركة القناة ، وأمكن رجال قصره إقصاء الشباب الذين بثوا الذعر في معسكرات الإنجليز ، تحدث الجبناء فيما بينهم حديثاً له دلالة ، قالوا — لا أغمض الله لهم جفنًا — : ألم تنبأ بهذا المصير ؟ ونحذر الفتیان الأغرار من خوض هذه المعارك ؟ ؟ إن هذا بلد لا يخدم ! ولا يستحق أن تراق من أجله قطرة دم ، وأقبل الذين نكصوا عن الجهاد بالأمس يهنيء بعضهم بعضاً بالراحة من أعبائه ، أعبائه التي رفضوا حملها ! ! ومشى فريق منهم إلى آباء الشهداء يواسونهم بالفاظ بائسة ، ألفاظ تخفي وراءها مقابح الكفران بكل شيء ، فلو جلتها الصراحة المرة لكان عزاءهم لأسر الشهداء أنكم أنتم الجانون على أنفسكم (!) غامر بنوكم بمستقبلهم ، فضاعوا وضاع عليهم ! وسيسحب عليهم النسيان ذيله الطويل ثم ينتهي كل شيء .

وكنت أجيل الطرف في أعقاب المعركة التي أحبطها فاروق وحاشيته ، وأشعر غصة مروعة وحزناً كظيماً :

وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموماً بخير صالب
وقلت أجادل الجبناء : أما زعمكم بأن هذه الدماء ذهبت هدرًا في غمرة من الحماسة الطائشة فكذب ثم كذب . إن كل قطرة منها وقعت في يد الله قبل أن يبلل بها الثرى ، والذين انتدبوا لجهاد اللصوص الحمر كانوا يبصرون قصدهم ، ويعرفون معرفة اليقين ماذا سيلقون من أعدائهم ، ومدى ما يفيدون به دينهم وأمتهم .

ذلك . والجهاد الذي فرضه الله لا يقوم المؤمن به لوطن يستحق أو لا يستحق ...
إنه يقوم به لله ، أداء للواجب وفراغاً للذمة ، وخروجاً من تبعة التخلف ،

هذا لا شك خير من الفاقة والضياع ، خير من الإهمال القاتل الذي تعرض
له القتل والجرحى في محنة فلسطين ، إننى — كغيرى — أعرف الحقيقة المرة . .
أعرف أن فاروقا وثلة من رجاله استغلوا هذه الحرب أسوأ استغلال ، وأنهم
جمعوا من ورائها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وأنهم هزءوا بفضائل
الأمة وجودها وتضحيات الشباب وتفانيهم ! وفي غمرة العاطفة الفائرة لنصرة
الحق وإغاثة المظلوم ، راحت هذه الخنازير القذرة تتاجر بالأشلاء والدماء ،
وتسرق المال بألف أسلوب لتنفقه على القمار والنساء أو لتدخره دعامة لطغيانها
وجبروتها في أنحاء البلاد . .

فلما عاد الجيش كسير القلب والجناح وجد الملك المجرم يلف نفسه بالخونة
والسرقة ، ويتجههم للاشراف والأبطال ، ويذهل عن الشهداء والمنكوبين . .
فطوى الجيش على غل أحزانه ، وتذكر بحسرة مضاعفة خسائره في الرجال
والأموال ، حتى وافته فرصة الانتقام آخر الأمر فزكل الملك الخليع . وأرهن
السجون أعوانه الخونة ثم بدأ — في سورة الغضب على ما كان — يستعرض
أحداث فلسطين ، ويداوى ما عراه من جراحاتها ، وهو معذور إذا ذهب به
الغضب كل مذهب .

لكننا نرفض أن ينتهز بعض الناس هذه الغضبة ليصوروا مأساة فلسطين
تصويرا خاطئا ، وليلقوا في الأوهام أننا دخلنا في حرب لا ناقة لنا فيها ولا
جمل ، لم نستفد منها إلا الخيانات والمتاعب ، ثم يخلط هؤلاء المبطلون كلامهم الزور
بدموع يذرفونها على الشهداء ، وأحزان يظهرونها على المنكوبين .

وبهذه السياسة الملتوية والمشاعر المفتعلة يكلف المسلمون في مصر أن ينسوا
إخوانهم في فلسطين ، وأن يتركوا الأرض المقدسة لليهود ، وحسب الشهداء
والجرحى والمشوهين أن تجمع لهم دريهمات يطعمون منها .

وأخف ما نشر في هذا ما كتبه جريدة المصرى لمناسبة أسبوع المشوهين

« أدرك المشوهون أنهم لم يدفعوا أشلاءهم ثمنًا لمصر . وإلا لكرمتهم مصر !
أدركوا أنهم سيقوا إلى حرب فلسطين لأن دولة الفساد شاءت أن تصنع من
فلسطين ميدانًا يستنزف الطاقة الثورية الهائلة التي كانت توشك أن تنقض على
أعداء الشعب .

أدركوا أن الذي أعلن حرب فلسطين ليس هو شعب مصر وإنما هو الملك
الذي استنزف دم مصر . . »

إن هذا أخف ما نشر في تحويل التيار العاطفي الباقي نحو فلسطين
وقضيتها ، أما أشد ما سمعته فهو حوار من رواية أذاعتها محطة الإذاعة الرسمية
في ٢٩ / ١٠ / ١٩٥٢ لكاتب يدعى « الحبروك » جاء فيها على لسان البطل
« ماذا تعلمت من فلسطين ؟ لقد تعلمت السطو على قوافل اليهود فها أنذا أطبق
في مصر ما تعلمته هناك . . هذا كلام يدل على خلل في التفكير ، ولن يطلب
اليهود شرا منه لخدمة مآربهم .

أيسمى الذهاب لرد عصابات اليهود عن اغتيال العرب وغصب أرضهم
وما لهم سطوا على قوافل اليهود ؟

إن العداوة التي بيننا وبين اليهود لا يعود وزرها إلينا ، إنها فرضت علينا
فحملناها كرها ، وماذا عسانا نصنع مع قوم أبوا إلا تدميرنا وبناء ملكهم على
ركام مهشوم من أنقاضنا وأشلأنا ؟؟ إننا حاربناهم ولا تزال « حالة الحرب » قائمة
بيننا وبينهم ولئن ندمنا على شيء إنما نندم لأن قياد جنودنا وخطط حربنا
كانت بين الأيدي الملوثة والنفوس الدنية . فقاتل المجاهدون في جبهتين ، اليهود
أمام وجوههم ، والحكومات المجرمة من وراء ظهورهم ، فلا عجب إذا أحيط
بهم وحاقت الزرايا بصفهم .

وشريعة الله في هذا أن المنافق الخائن أخو الكافر الجائر ، كلاهما يجب أن
يلقى أشد العقاب وكان أولى بالمتألمين من حرب فلسطين أن يصبوا جام نقمته على

الذين رسموا الخطط لإفناء العرب وتبديد قواهم هباء ، وعلى الذين وضعوا الأسلحة الفاسدة في أيدي المقاتلين الأبرياء فنالت منهم قبل أن تنال من خصومهم ، أما أن يتألموا من حرب فلسطين ، لأن نجدة الحق تتطلب البذل والفداء ، فهذا والله . هو المنكر !! .

أما أسر الشهداء وضحايا الجهاد فأنا محقق قبل غيري لإهمالها ، وإلجائها إلى انتظار الصدقات قلت أو كثرت .

والواجب أن يبقى مرتب المجاهد الشهيد تجريه الدولة على أسرته ، لا تنقص منه ذرة حتى يشب البنون ويستغنوا ، وتكبر البنات ويتزوجن .

إن الشهيد حي عند الله ، فليبق فيما بيننا حياً ، ولا يجوز أن تكون عقي موته في سبيل ربه أن ينقطع أول الشهر المرتب الذي كان يأخذه رب الأسرة لينفق منه على أهله .

وكذلك ينبغي أن نعامل كل مصاب في هذه الحروب النبيلة ، فإن من النذالة أن يفقد الرجل ذراعه أو عينه في الميدان ، فيكون أول ما يتوقعه بعد العاهة التي آذته أن يفصل من العمل لعدم لياقته ، ثم يشرع الرجماء في تصيد الهبات له !! .

سأبرع مع الألوف لمشوهي فلسطين وسأظل ألح في ضرورة إلحاق الشهداء بالوظائف التي ماتوا وهم يملأونها ، على أن تصرف رواتبهم لأسرهم ؟ وسألح كذلك في إعادة الجرحى والمنكوبين إلى وظائفهم حتى يلقوا ربهم وهم في أمة تقدر فضلهم ، وتكرم شجاعتهم ، وتربأ بهم عن أكل الصدقات .

نبي النور

للجهل ظلام لا يمحقه إلا ضياء العلم . وللرذيلة سواد لا يمحوه إلا سناء الفضيلة . وللريبة ظلال لا تنسخها إلا أشعة الحقيقة . وللبغى غشاوة لا يحرقها إلا وهج العدل . ولنسيان الله ثم نسيان النفس ليل معتكر داكن طويل ، لا يشقه إلا صبح الإيمان ولا يمزق حجبته إلا ضحاه الممتد العريض . . .

وقد كان محمد نورا يتألق سراجة في آفاق البشر مثلما تتألق الشمس في كبد السماء وكانت أقباس هذا النور تخامر الافئدة وتنساب إلى العقول ، لتخلص المؤمنين من ظلمات الحيرة والطيش والتخبط « الله ولي الذين آمنوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ . . . »

ومن ثم تميز المؤمنون الذين يتبعون محمداً بأنهم قوم مستنيرون ! يعلمون حين يجهل غيرهم ، ويكملون حين ينقص ، ويطمئنون حين يرتاب ، ويعدلون حين يظلم ويحيون بحق الله وحق أنفسهم حين ينسى غيرهم ربه فينسيه نفسه . ذلك بأنهم خرجوا — من يوم أسلموا — من ظلمات الجهل والرذيلة والريبة والبغى والضلال ، ومشوا في أنوار الحياة الصحيحة « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » .

إن الإسلام نور يستهدي به الأفراد والشعوب . واسمع إلى تأكيد هذا المعنى فيما نسوقه إليك من آيات .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ . وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا » .

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . . . » .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ

وسراجا منيرا» «ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا»
«فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا» .

«قد أنزل الله إليكم ذكرا ، رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور» .

وبقدر ما يستبطن المؤمن في نفسه من أضواء الحق وأنوار الخير ، وبقدر ما تسبح فيه مشاعره وأفكاره من وضوح وجلاء ، وبقدر ما يسدد خطاه في هذه الدنيا من بصر وضياء بقدر ذلك يتلمس طريقه في الدار الآخرة إلى مصيره الخالد فالمشرقون الأخيار يسعون إلى غايتهم واثقين « . . . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه . نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون : ربنا أتمم لنا نُورنا واغفر لنا . إنك على كل شيء قدير » .

أما الخبيثاء الأشرار الذين قضوا أعمارهم في سجون قائمة من أهوائهم ودنياههم ، فستهبط عليهم غيوم راعدة بالويل . وتنطبق عليهم جوانب ليل أيّ ليل . عندئذ يصرخون بالؤمنين طالبين النجدة : « أنظرؤنا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . . . » .

إن محمدا نبي النور . ولست أدري كيف ينتسب إليه شخص مظلم أو أمة مظلمة ؟ هناك عقول تأوى إليها الخرافة وتسكنها الأباطيل !! ماصلتها بالإسلام إذا كان كتاب محمد مبنيًا على الحقائق معنيا بها وحدها ؟ « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق . . » ؟ هناك نفوس لا ترى إلا في مدى شهوتها ولا تقف إلا عند حدود أثرها . فإذا كان أتباع الهوى كما أنبأنا الله — يفسد السماوات والأرض . فكيف لا تفسد بالأهواء المطاعة شئون قبيل من الناس ؟ ؟

إن الذين يفقدون أنوار العلم والفضيلة والحق والعدل والإيمان ليسوا من محمد في قليل ولا كثير ، ولا تغني عنهم مزاعمهم في هذا الصدد شيئا .

سمعت أحد الناس يذكر قول الرسول الكريم « تناكحوا تناسلوا تكثروا

فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة » فقلت : وددت والله لو كنا أهلا لهذه المباهاة ! ! إن ظلمات الفوضى والمذلة والجهالة التي تلف جماهير المسلمين اليوم تجعل نبيهم ينظر إليهم فيأسى أليس نبي النور ؟ فما للنور ، وأهل القبور ؟ والله ما يبالي بكم محمد وما يتوانى عن البراءة منكم إلا أن تكونوا كما عنت الآية الكريمة « أو من كان مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . » فاذا عاد المسلمون إلى الحياة الصحيحة ، وانطلقوا على الأرض تحف بهم أنوار الهدى والسداد كانوا أهلا لأن تباهى بهم الأمم

إن محمداً — صلى الله عليه وسلم — يحب النور ويسأل الله في أحواله كلها مزيداً منه . وهو يكره الظلام وينأى بقلبه ولبه عنه ، لا ظلام الليل ولكن ظلام الجاهلية ، ظلام النفاق ، ظلام الانقطاع عن الله ، ظلام الرسوب مع الأثرة الجياشة الطاغية . وهو لذلك يدعو الله أن يغمره من جهاته جميعاً بالنور حتى لا تعمى عليه سبيل ، وحتى لا يطيش به زرع أو يلتوى به هدف ، إنه يدعو الله أن يشع من حوله هالة لا تنطفئ أبداً ، بل إنه يدعو أن يغلغل هذا النور في كيانه حتى يمتزج بجلد وعصبه .

عن ابن عباس أن النبي خرج إلى الصلاة وهو يقول : اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي بصرى نورا ، وفي سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وخلفى نورا ، وفي عصبى نورا ، وفي لحمى نورا ، وفي دمي نورا ، وفي شعري نورا ، وفي بشرى نورا .

وفي رواية : (اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي لساني نورا واجعل في سمعى نورا ، وفي بصرى نورا ، وأجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورا ، واجعل من فوقى نورا ، ومن تحتي نورا ، اللهم أعطني نورا) .

يا من يريد الإسلام لله رب العالمين ، التمس شعاعاً من المعرفة يضيء عقلك

ويصلك بحقائق الكون . وشعاعا من الفضيلة ينير قلبك ويصلك بما وراء
الكون . فإذا فقدت هذا الشعاع الهادي فازعم كل شيء إلا الإسلام .

إن الحجب المركبة والغشاوات المضاعفة هي طبقات عازلة تمنع التيار من
المرور ، وإذا انقطع التيار واحتبست قواه المحركة والمبصرة فلن يكون ثم إلا الظلام
والموت . ولذلك وصف القرآن شؤون الكافرين بقوله : (. . .) أو كَظُلُمَاتٍ
فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ . ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ . إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .
أيها المسلمون : أجلوا الظلام الذي حط بنفوسكم وبلادكم تنشئوا صلة جديدة
بنبيء النور .

من أخلاق النبوة

من الناس من يظهر على صفحة الحياة ، ثم يختفي كالرغوة التي تصنعها الأمواج في عراكها الدائم مع الرياح . .

ومنهم من يزود بقوى أكبر ومواهب أبرز فيمر بالدنيا ثم ينسلخ عنها وقد ترك آثاراً تدل عليه وتحمل طابعه ، تبقى بعده حيناً . . ثم تدركها طبيعة الفناء بعد أيام ، أو أعوام ، أو أجيال ، فتتلاشى وتبيد ! !

تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها . الفناء فتتبع وهناك طائفة أخرى من الناس طرقت أبواب الوجود ، وانسابت مع تيار الحياة المتجدد ، ولاحقت موكب الزمن المنطلق فبقيت على حين فني غيرها . ومازالت بعد قرون متطاولة على موتها المادى تعيش بيننا ، توجه الأحياء إلى الخير ، وترسم للحائرين المنهج وكأن فكرها الثاقب وقلبها الخافق وصوتها الجهير لم يعد عليه البلى وتطويه جنادل القبور . . .

أحق الناس بالذكر من هؤلاء رسل الله الذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله ، وأحق أولئك جميعاً بأن ندرس حياته ونترسم خطاه ، ونتعلم عنه وتتبع هداه ، صاحب لواء الحمد وجماع عرا المجد ، محمد بن عبد الله ! ! إن هذا الاسم الكريم « محمد » لم يصبح علماً على شخص ولد في سنة معينة ودرج في بلد معين ، بل أصبح حقيقة من حقائق الخير السارية في الأزمنة على التواليها والأمكنة على تغايرها ، فما يختص به عصر دون عصر ، وما تنفرد به عاصمة دون عاصمة . . لقد أصبح عنواناً على المثل التي تصنعها الخيالات ويستهدفها كل سائر إلى الكمال . ولئن كان علماء الأخلاق يرون « المثل الأعلى » الذي يجري الإنسان نحوه وهو يبتغى العلو . . وهما ، فنحن ندعو صانعي الأوهام

لأنفسهم أن يرمقوا سيرة هذا الإنسان الجليل « محمد بن عبد الله » ليروا كيف
تجمعت المثل العليا للشجاعة ، والكرم ، والبر ، والإخلاص ، والصبر ،
والكفاح . . كيف تجمعت هذه المثل في مثال واحد نفخ الله فيه من روحه
فجعله بشراً سوياً ، ورسولاً نبياً . . . ويوم تتعلق العيون بهذا المثل الحى ،
وتحاول التأسي به ، والنسج على منواله ، فإننا موقنون بأن العالم يكون قد اكتشف
في عالم الأخلاق قوة أفعل وأزكى أثراً من قوة الكهرباء في عالم الطبيعة .

وعندى أن العنصر الأصيل في عظمة « محمد » هو الرحمة ، الرحمة التي تجعل
الإنسان يرق للناس أجمعين ، بل يرق لكل ذى كبد رطبة ، والتي تجعله يتصل
بالحياة وفي نفسه عواطف غامرة من الشوق والرغبة والسلام . فهو لين الجانب
لمن حوله . سليم الصدر لمن خاصمه . يتمنى عودته وأوبته أكثر مما يرجو تأنيبه
وعقوبته . وقد مضت سنة العظمة في خلال الكرام على هذا النسق السمع
وقديماً قال عنتره :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

وقد كان محمد رسول الله جياش الفؤاد بهذه الرحمة السامية النبيلة ، فكان
إذا عرض الهداية على رجل فرفضها ثم تجهم لصاحبها وأدبر معرضاً عنها ، كان
النبي الكريم ينظر إلى هذا الشقي الفار عن الخير ، نظرة الوالد الرقيق إلى ابنه
العاق الذى آثر العوج على الاستقامة . أى أن أساء لغباوة ابنه أكثر من غضبه
لصدوده عن الحق . وقد طالت أحزان الرسول لجهالات الناس حتى خشي منها
على نفسه وعلى رقة فؤاده وإرهاق حسه فقال الله له « فاعلك باخع نفسك على
آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ومع أن القرآن تهدد هؤلاء الأجلاف
العاقين لأبر الناس بهم « طسم . تلك آيات الكتاب المبين . لعلك باخع نفسك
ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم
لها خاضعين » .

لكن هذا التهديد لما أوشك أن يتحول إلى لعنة ماحقه بعد ما آذى
المشركون نبيهم واستباحوا دمه وقتلوا أصحابه في غزوة أحد وعرض على النبي أن
ينتقم منهم قال : « اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

وقد أشاد القرآن بهذا الخلق العظيم في شمائل صاحب الرسالة ، فأبان للناس كيف
أن عندهم يعز عليه ، وكيف أنه متشبث بهم حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم .
وهذا المعين الذي لا ينضب من الرحمة المطبوعة والبر العميق بالناس ، هو الذي
جعل الرسول موطأ الاكناف لصنوف من الأتباع تتباين أمزجتهم وخلاتهم
وتتفاوت طباعهم ومسالكتهم ، فهو يهش لحاضرهم ويتفقد غائبهم ويفرح لسرورهم
ويبكي لأحزانهم ويعيش مع كل أمرىء منهم وكأنه له صديق العمر .

وهذه الدعامة المكيئة لا بد منها في بناء كل عظمة إنسانية صحيحة ولذلك
يقول الله تعالى « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا
مِنْ حَوْلِكَ » .

وعنصر الرحمة الغالبة لا يعنى أن صاحب الرسالة لا يغضب ويقا تل . كلا .
فإن أحوال الدنيا وأغلاط الناس توجب على الإنسان أن يقف أحيانا مواقف لا بد
منها لحماية مثله وفضائله .

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرها
والرحيم حين يقسو كالمحب حين يغضب ، فغيرته على عاطفته وتوجسه ممن
يريدون مصادرتة ومصادرتها ، ذاك هو الذي يجعله يتوجس ويحتاج .

وفارق كبير بين هذه النفوس الخيرة وبين ذوى الطبائع الشرسة الحقود التي
تسمى وراء الشر ، وتتوق إلى حوك المكاييد وتأجيج العداوات ، وترى لذاتها
في الدم المسفوك ، والعبرات المراقبة ، والوجوه الساهمة .

وكم في الدنيا من مساعر حروب ومشاعل فتنة . ولكن رسل الله أجمعين
وحواريهم الأئمة أبعد الناس عن هذه الميادين الخسيسة .

إنهم إذا أبغضوا أبغضوا الله ولدينهم . فهم يكرهون الجريمة في المجرم والكفر في الكافر ، وما يقاتلون هذا وذلك إلا باعتبارهم ممثلين للجريمة والكفر — فليست كراهة شخصية — وهذا هو الفارق بين الحرب التي يوقدها المسلمون لله ، وبين الحرب التي يشنها غيرهم جهالة وعمى ، لا شيء ، إلا لأنهم «خرجوا من ديارهم بطراً وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»

والشدة على الكفر مصدرها حينئذ الغيرة على الإيمان ، والسعى لصيانتة من العابثين والملحدين . ولذلك وصف الله النبي وصحابته بالوصفين معاً فقال « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفر رحماء بينهم » وقال « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ، يُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

فعلى المدافعين عن الإسلام في هذا العصر أن يشيدوا أخلاقهم أول الأمر على الرحمة الشاملة . فإذا جاءتهم سيئات الناس إلى النفير فآخر الدواء الكي . وقد كان رسول الله يقول « لا تتمنوا لقاء العدو ، فإذا لقيتم فاثبتوا . . » .

وقال الشاعر :

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمى فإنى مقوم ومن شاء تعويمى فإنى معوج

مـلام وكلام (*)

« نشكرك اللهم ، ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك » .

هذه كلمات يتلوها المصلون في قنوتهم ويتوجهون بها إلى الله عز وجل .

قد يناجون ربهم بها في صلاة الصبح^(١) لاستقبلوا النهار بعهد موثق ، أن يخلعوا الفجار وأن ينبذوا السفلة . وقد يناجون^(٢) ربهم في صلاة الوتر ليختموا المطاف -- بعد جهاد اليوم الطويل -- مؤكدين العهد أن يخلعوا الفجار وأن ينبذوا السفلة .

وسواء قالوها أول النهار أو آخره . فإن العهد مأخوذ على كل موحد أن يضاد المجرمين وأن يوهن كيدهم ، وأن يجعل عواطفه وأفكاره حرباً عليهم ، أجل . يجب أن تبغض الظالم من أعماق قلبك إن كنت لله موحداً ، وأن تؤيد المصلح كذلك وتمنحه محض ودك .

روى الحاكم عن عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك أخفى من ديب الذر على الصفا في الليلة الظلماء . وأدناه أن تحب على شيء من الجور ، وتبغض على شيء من العدل !!! »

وهل الدين إلا الحب والبغض ؟ قال الله عز وجل : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

(*) كتبت هذه المقالة وما يليها عتياً خفيفاً للرجال الذين عرف الإسلام بهم وأخذ عنهم . ومع ذلك فمنهم من سار في موكب الظلم يدق الطبول للملوك الجائرين . ومنهم من انحاز بعيداً يخشى على نفسه وماله ، ويفلسف جنبه بشق المعاذير ، بل يضم إلى فكروصه التنديد بالرجال الذين لا يخافون في الله لومة لائم ...

(١ ، ٢) يرى الإمام مالك أن مكان هذا القنوت صلاة الصبح ، ويرى أبو حنيفة أن مكانه الوتر .

هل الدين إلا الحب والبغض ؟ . . إن الدين هو هذه العاطفة المشبوبة بمحبة الخير وأصحابه ، وكراهة الشر وأحزابه . هو هذه العاطفة الدافقة المناسبة كالفيضان الموار ، لا تجد مستقرها إلا حيث تبلغ أهدافها ، لا يهمها أن تغمر سفحاً أو تطوق قمة . إن الدين هو هذه العاطفة الحرة اليسيرة ، اشمئزاز من مسالك الفسقة يقبض يدك عن مصافحتهم ، ويجعل حمرة الغضب تصبغ وجهك لجرائمهم على ربهم ، فإما استطعت أن تحسف الأرض من تحتهم ، أو تقيم الدنيا وتقعدها حولهم . . وإلا فإن أقعدك العجز سكنت سكون المقهور على ما يوسع من عار ، لا سكون البليد على ما وصل إليه من قرار .

أعرف قوماً فقدوا هذه المواطف الملهبة أي فقدوا الخصائص الأولى لدينهم فهم أكوام من التراب البارد ، أولئك قوم ليسوا من الله في شيء وأعرف آخرين أرهبهم جبروت الفساق وسلطان الظلمة ؛ فلاذوا بأضعف الإيمان ، ورأوا أن يغيروا المنكر بقلوبهم فحسب !! ونحن لا نخرج الجبناء من حظيرة المؤمنين ، ولاكننا نستغرب ثم نستغرب أن يكون عمل الكثير من المشتغلين بالدعوة إلى الله هو هذا الإنكار القلبي !! فما بقاؤهم في ميدان الدعوة ؟ وما تقدمهم فيه ؟ وبأي حق حملوا هذا الوصف العالى ؟ وسموا أنفسهم دعاة ؟ .

لقد علم الغبي والذكي ، والقاضي والداني أن بلاد الإسلام سقطت فريسة وثنيات سياسية مدمرة ، وأن الإسلام نفسه ضاع في حريق الشهوات التي تتطلبها هذه الوثنيات المجنونة ، وأن مواكب الحضارة التي تتراكم كض وثنيا إلى الأمام في سائر الدنيا تتراجع متقهقرة في بلادنا وحدها ، وأن جماهير العمال تضرب في « أمريكا » طالبة المزيد من فنون الراحة والدعة ، على حين تكلف الجماهير الفقيرة عندنا بأن تجوع وتعري لإبطار فرد سادر في غلوائه ! . فرد مستطار الشر خبيث الشره ! .

إن هذه الوثنيات المسعورة لم يبق معها دين ولا سلمت دنيا . فماذا صنع
المشتغلون في ميدان الدعوة إلى الله (كذا) لمكافئتها ؟ وأعني بالمشتغلين الهواة
والمحترفين جميعا . . . وأين جهودهم لإنقاذ البلاد والعباد من ويلاتها ؟ .

إننى سأنتفى من ميدان الدعوة أولا هذا النفر من الرجال الذين يعيشون على
تملق الظلمة وستر مساوئهم واختلاق المحامد لهم وإرسال الدعاء الحار بحفظهم
وتأييدهم . . . هذا النفر ليس دخيلا على ميدان الدعوة فقط بل هو لصيق بالإسلام
نفسه . ووالله ما يمنعنى عن الحكم بردتهم عن الدين إلا شكى فى عقولهم ، فإنى
أحسب عقولهم أغبى من أن تفهم الأشياء والأشخاص على حقيقتها !! وإلا فإن
القصص إلى تدعيم هذه الوثنيات الطائشة وإقرار بطشها وفسقها ، وزناها وسكرها
وسفكها ، هو كفر صميم . . .

لندع هذا النفر الصغير — وإن كبرت مناصبهم الدينية — ولننظر إلى ماتموج
به ميادين الدعوة الإسلامية من مناظر مؤذية . . .

لقد قتل الداعية الكبير حسن البنا فى الطريق ، وقتل الضابط الشاب
عبد القادر طه ، وقتل من قبل الطالب أحمد شرف ، وقتل آخرون ممن بذلوا
دماءهم ثمنا لشرفهم ودينهم وشرف أمتهم ودينها .

وعرف الصغار والكبار أن دماء الأبطال ذهبت فوق تراب فلسطين سدى ،
وأن أموال الأمة سرقت جهارا ، وأن معركة القناة فشلت برغم احتشاد الأمة لها
واندفاع الشباب الحر إليها . . .

غير أن قصة الدماء المراقبة والأموال المسروقة والحريات المقتصبة لم تلق من
عناية الهيئات الإسلامية الكثيرة ، (مالم يته قصة امرأة تافهة تريد إعطاء النساء
حق الانتخاب .

تكلمت جماعة كبار العلماء ، وثارَت جبهة الأزهر ، والتقى عدد من ممثلى
« الجمعيات » حول جملة أحكام استخلصوها من الإسلام ، وشمروا عن سيقانهم
للتبشير بها !! .

هذا الاهتمام البالغ من هنا ومن هناك سره أنه لا يكلف أصحابه جهداً ولا يجز عليهم عنقاً ، أما جرائم الاغتيال الكبرى التي هلكت فيها أبطال . وجرائم الغش والاحتيال التي محقت فيها أموال ، فإن الجهات التي تلاقى عند قتال المرأة تفرقت بدداً عند بحثها ! إن قول الحق هنا فادح التبعات ، أليس يعرض ذويه لبطش الوثنيات السياسية المحذورة ؟ .

إننى لأزعم أن هذه الجماعات المشتغلة بالدعوة الإسلامية سكنت كلها على هذه الفضائح ، كيف ؟ وقد خاض فيها المؤمن الكافر ، والفصيح والبكيء ، ربما أصابت المجرمين وخزات طائشة من المتكلمين باسم الإسلام ، ولكن مجرمي الحرب في فلسطين وخونة الوطن في القناة ، وقتلة الأحرار في الميادين العامة هان عليهم أمر الجبهة الإسلامية كلها ، ونستطيع الجزم بأنهم اطمأنوا أخيراً إلى أن هذه الجبهة آخر ما يتوقعون خطره على حياتهم الآئمة وأعمالهم الفاشمة ، بل لقد طمعوا في الاستعانة بها على محاربة الأحرار وتلويث الوطن بالعار . . .

ولم ذلك ؟ ذلك لأن الذين تصدروا هذه الجبهة هم غالباً من طبقة الفيران ، ومشكلة الفيران الكبرى هي : كيف يعلقون الجرس في عنق القط الفاتك ؟ .
إن سقوط المهمة سيئة فاضحة أصابت الملتصقين بالدين قديماً وحديثاً ، وقد نعى رسول الله على أولئك الساقطين أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف حدوه ! وهل هذا التصرف إلا مظهر الجبن أمام الكبار والتطاول على الصغار ، أى مظهر سقوط المهمة ؟ ؟ .

إن هذه الجبهة كانت أحوج ما تكون إلى رجال من الصنف الذى يفهم قول الشاعر :

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة	فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضرب أعناق الملوك وأن ترى	لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويلاً كأنما	تداول سمع المرء أنملة العشر

واعلم أن محمداً رسول الله كان ينفخ في أصحابه هذه الهمة القعساء ، الهمة التي تسمو على أقدار الملوك بسطوة الحق وحده ، الهمة التي تجعل الداعية المسلم ينظر إلى الملوك نظرة الأسد إلى الهر لأن هذا يعمل لله وأولئك يعملون للطاغوت . روى البخاري أن رسول الله قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك . لا ملك إلا الله » قال أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيباني عن أخنع فقال : أوضع ، وروى مسلم عن النبي العظيم : « أغبط رجل على الله يوم القيامة وأخيبته ، رجل كان تسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » . . .

وللاخوان وضع متميز في ميدان الجبهة الإسلامية ، فقد بهر يقينهم البالغ وتفانيهم الجليل ، أنظار المراقبين من أجنب ومواطنين ! وتوجست الوثنية السياسية الشر على مستقبلها من بقائهم ونشاطهم ، فدبرت خطة محكمة للتنكيل بهم والخلاص من قيادتهم ، وكان أن صرع حسن البنا الإمام الأعزل بالرصاص في أعقاب عيد ميلاد الملك السابق فاروق سنة ١٩٤٩ ، ثم زج بأكثر أتباعه في السجون والمعتقلات . . والذين يحسبون الجهاد لتحقيق المثل العليا عملاً يسيراً هم قوم مغرقون في الوهم ! !

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال وحملة الدعوات يجب ألا يترحزحوا عن منهاجهم بها اشتد كلب الأحداث عليهم ، والمرء قد تحدثه نفسه إذا انهزم وأهين أن يستسلم ويستكين ، لكن الله لما وصف الأخيار من عباده ، نبأ أن النوائب الدهم لا تلين قناتهم ولا تثبط عزماتهم ، وأنهم يخرجون من المحن خروج البدر من وراء الغيوم ، لم تنقص صفحته ولم تكسف أشعته « وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير فمأ وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضُعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » . .

وإني أدرك أن جمهور الإخوان المسلمين خرج من المحنة الأولى صلب العود ناصع الجبين ، ولا أنكر أن البعض يميل بتفكيره إلى أسلوب المسالمة والتحايل ، ونحن لأنابى المسالمة بل رضاها ونؤثرها ، ولكن مع من ؟ وإلى متى ؟ مع الفساق والظالمة ؟ وإلى أن يستمكن شرهم ويعم ويطم ويهلك الحرث والنسل ؟ الحق أن طبيعة الدعوة إلى الله تجافى هذا المسلك ، إنها قد تتريث في مقاتلة المجرمين ، بيد أنها لا تتريث أبداً في مخاصمتهم ومصارحتهم بالعداوة !! وربما كانت نتائج ذلك صعبة ، وعندى أن الأمر لا يعدو واحدة من اثنتين : إما الانسحاب من الميدان والاعتراف بأن أئقاله تبهظ الكواهل الضعيفة وتؤود قوماً يحبون الحياة الرتيبة وإما الأخرى وهى البقاء فى الميدان ، وأداء الضريبة المفروضة على الدم والمال ، مهما فدحت ولأعترف بأن هذه الضريبة شديدة ! ! . أجل إنها شديدة ، ومتى كانت نصرة الإسلام تعتمد على الخطب المطولة فى الأحفال التى يعلم الطواغيت بها . ويشعرون بأن الصياح فيها ضرب من الإسهال العقلى مأمون النتائج ؟ ؟

روى الإمام أحمد عن رسول الله « ما خالط قلب امرئ رهج فى سبيل الله إلا حرم عليه النار » أى قلق وفزع . ولعمري أن برنامج الجهاد الحق — خصوصاً فى هذا العصر الكالح — لىحتاج إلى الوف مؤلفة ممن يعافون حياة الدعة ويعشقون حياة المخاطر والمجازفات .

روى النسائى وابن حبان والبيهقى عن رسول الله قال : إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الاسلام فقال : تسلم وتدع دينك ودين آباءك ؟ فعصاه فأسلم فغفر له ! فقعد له بطريق الهجرة فقال له . تهاجر وتذر دارك وارضك وسماءك فعصاه فهاجر ! فقعد بطريق الجهاد ، فقال : تجاهد — وهو مجهد النفس والمال — فتقاتل ، فتقتل ، فتتكح المرأة ، ويقسم المال ؟ — أى الزوجة والميراث — فعصاه فجاهد !! . قال رسول الله : من فعل ذلك فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وفسته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة !! !

هذا المرء الذى تغلب على وساوس الدنيا وروابط الحرص عليها هو المثل
للرجال الذين انتصر الإسلام بهم قديماً ولا ينتصر حديثاً إلا إذا وجدهم .

أما أن ترسل الطرف فى الميدان الإسلامى فترى « الجمعيات » تتلاقى وتنتفض
حمية ضد امرأة سفهت نفسها إذ طلبت الوزارة والقضاء ، ولا تسمع لهذه
الجمعيات ركزاً يوم مقتل حسن البنا وعبد القادر طه وأضربهم من خصوم
الوثنية السياسية العمياء ، فهذا جهاد لاشوكة فيه ولا خطر عليه ، إنه جهاد
النساء ... المخضبات بالحناء لا الدماء ..

أشهد أن هذا النفر من رجال الثورة قد شفى نفسه ، وكشف عن فؤادى
غطاء ثقيل ، وغسل عن مصر أقذاراً ومحا عارا ...

وأحسب أن جهاده وجرأته ومخاطرته مثل يضرب للمسلم النقى الذى عرف الله ،
فهان فى عينيه ماسواه ...

رجال الحق ..

« ومن خلقنا أمةً يهتدون بالحق وبه يعدلون » .

في هذه الآية دلالة على أن الله عز وجل اختص نفوساً معينة بمعرفة الحق على وجه كامل مثمر ، فهي لا تضل به من داخل فحسب ، بل تبسط أشعته أمام الناس عامة ليسيروا على هداية . ويطمئنوا إلى سناه . وهم كذلك يحكمون بالحق ، فإذا اختلطت الأمور وخيفت المظالم قضوا بين الناس بالعدل ، فجاء قضاؤهم العادل نوراً يمحو الظلم والظلام . أولئك هم المصطفون الأخيار من عباد الله . . .

وأولئك هم أمل الدعوات الكبرى والنهضات العظمى ، حين تبدأ مسيرها في الأرض فتعترضها السدود والهضاب وتردها العوائق والصعاب .

كنت أعجب أول أمرى لماذا وصف الحق بالمرارة ، وغصت به حلوق كثيرة ؟ حتى سرت في موكب الدعوة إلى الله ورأيت أن قول الحق جهاد ثقيل الأعباء شاق التكاليف ! جهاد قد يكلف المرء دق عنقه إذا اصطدم بفرعون جبار ! ! .

وربما كان أيسر البذل أن يتقهقر المرء في مجتمع يتصدره المهرجون والكذبة !! والذين يهدون بالحق في هذه الأحوال يجب أن يكون لهم من اليقين ما يزهدهم في الجاه الذي حصل عليه المبطلون ، وما يحقر أمام أعينهم البقاء في الدنيا إذا لم يقدروا على قول الحق والهداية به .

ما أجل الحق وما أجل رجاله ! !

بنفسى أولئك الأبطال الذين داسوا وساوس الضعف ، وكبروا على فنون الإغراء ، وتآلقوا بين ركाम العوام ، وتشكروا للحاضر الذي يكرهونه ، وتفانوا في الغد الذي يتمثلونه ، ومضوا قدما إلى غايتهم فإما نجحوا وإما فشلوا ! ! إن النجاح والفشل لا يحكم على النيات ولا ينقص الأجور ! ! فحمزة الصريع المهزوم

في أحد ليس دون خالد القائد المنتصر في عشرات المعارك ، بل ربما كان خيراً منه وكم في عصرنا هذا من نهضات كبت قبل أن تبلغ هدفها وطوى التاريخ رجالها طياً محزناً ، ذلك إن التاريخ يكتبه غالباً المنتصرون ، وما أكثر ما يافكون ويزورون .

لكننا — ونحن أصحاب المبادئ ورجال المثل ! — نريد أن نهتك هذا الزور وأن نحى أصحاب الحق سواء قتلوا في الطريق ، أم وصلوا إلى القمة . . .

إن الجماهير الغفيرة لها منطق تافه صورته الشاعر في هذا البيت :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولا مخطئ الهبل !!

أما أصحاب الحق وأنصاره فهم فوق هذا المستوى . . . بل هم لا يتدلون أبداً إلى هذا الحضيض . . .

وفي العرس الضاحك البهيج الذي يغمر وادي النيل بعدما أفلح الجيش في طرد الملك فاروق وتطهير البلاد من أقداره — في هذا العرس المأمج نريد أن نتحدث قليلاً عن الحق المجرد وعن الرجال الذين أودوا في سبيله وماتوا قبل أن يدعموا بناءه ، ذلك إن الساعة التي تنجح فيها المغامرة ويوفق فيها الناقمون على الطواغيت هي أجدر الساعات بتعليم الناس قيمة اليقين ومعنى التضحية ، وتذكيرهم بالمثل التي نسوها في عهد الظلام الطويل ! .

أجل ، إننا نريد رجالاً يعشقون الحق ويعيشون به وله ، صرخاء ، ولو غضب لصراحتهم ألف ملك ووزير ! حنفاء ، ولو أطبق الجهال على تمجيد الأوثان وحرق البخور بين يديها ! أعزة بأنفسهم لا يبالون أن تصدر الأوامر « العليا » بإقصائهم من المحافل الرسمية والمناصب الضخمة ! غاضبين لله في عناد وإصرار حاقدين على الباطل مع ترفع واحتقار . . . نريد رجالاً لو حدث — لا قدر الله — أن فشل القائد الشاثر محمد نجيب في غضبته الكريمة ضد الملك المطرود لأحسوا بتصدع أكبادهم وترويع حاضرهم ، ومستقبلهم ، ولوقفوا بقلوبهم وألسنتهم

وجسوسهم إلى جانبه يواسونه ويشجعونه . . . لا رجالا يهرعون إلى « سجل التشریفات » كما يقيدوا أسماءهم ولواء وخنوعا للوثنية السياسية التي طغت في البلاد فأكثر فيها الفساد . . .

نريد رجال الحق في عالم عز فيه نصراء الحق ، وفي بلاد سخر فيها الدين كما سخرت الدنيا لحراسة أمراء الجور وتمجيد العیال الفسقة لأن السلطان في أيديهم وتحت أقدامهم . . نريد رجالا لا يدوسون المثل العليا باسم المرونة السياسية ، ولا يأمنون أولا على أنفسهم وأموالهم وأنصارهم ثم يعلنون بعد ذلك الجهاد لنصرة الإسلام ، كأن نصرة الإسلام سمن وعسل !! نريد رجالا يأنفون — وهم شیوخ كبار — أن يقولوا لشاب خلیع معروف بالعريضة والخنأ والقتل . . . مولانا صاحب الجلالة . .

نريد . . . ونريد . . .

لقد تركت القاهرة والحيرة البالغة تهز أركانى هذا . لقلة الرجال الذين انتصروا للحق المجرد يوم كان الحق المجرد أحوج ما يكون إلى صوت يعضده ونصير يسنده ، ولكثرة الرجال الذين أقبلوا مهنتين يوم تطايرت أشلاء الصنم وبطل سحر فرعون . . . ما هذا ؟

هذه صحافة احترفت الدعارة السياسية منذ ظهرت لأنها ولدت في حجر الملك الطريد وعملت منذ وجدت على تحطيم الشعب وتبديد قواه . . . إنها الآن أكثر الصحف ضجيجا في استقبال العهد الجديد والزراية على الدولة البائدة . . . !!

وهذا زعيم حملته أكتاف الجماهير حتى كلت ؛ فلما سئم الكفاح مع المظلومين ، ولى وجهه شطر الظالم يهادنه ويداهنه ثم يخطب الناس في مصر فيسبح بينهم بمحمد الصنم الذى يتقلب في مواخير أوربا ولا يستحى من أن يجعله قبلته في خطبته . . . !!

وهؤلاء رؤساء أحزاب ووزارات كفروا بالله واليوم الآخر من طول تزلفهم

للتاج الهاوى فقتلوا رجال الحق علانية ، ومنعوا أن يقام لدمائهم قضاء ، وفتحوا المنافى
والمعتقلات والسجون وزحموها بحشود الأشراف الأتقياء وفعلوا .. وفعلوا ..

أما الجبهة الدينية « ! » فلنا معها حساب قريب ، وإنه لحساب عصيب . . .
وإني أحمد الله إذ ألهمنى مهاجمة الصنم المهشوم فى كل كتاب أخرجته . ولئن سكنت
اليوم بعدما تجرأ الجبناء فحسبى أنى تحركت يوم سكنوا وتكلمت يوم قبعوا . . .
إن ترك الباطل يمر دون نكير أمر خطير جد خطير . وليس المهم أن تكسر
شوكته بحولك ، فقد تكون ضعيف الحول . ولكن المهم إذا رأيت المبطلين
سادرين فى جرائمهم متجاهرين بمناكرهم أن تقول — عند ظهور عجزك واستحالة
مقاومتك ، مقالة العبد الصالح — « لوط » لقومه لما « قالوا لئن لم تنته يالوط
لتكونن من المخرجين قال : إني لعملكم من القالين رب نجنى وأهلى مما يعملون » .
أما الذهاب إلى فاعل المنكر وإبداء الاحترام له فلا . .

أما مشاركة الحمل فى الهتاف للمجرم .. فلا . وما أكثر من أسرفوا ، وهتفوا :

هتفوا لمن شرب الطلا فى تاجهم وأحال عرشهمو فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام
والأمم التى ينخرس صوت الحق بين كبارها وصغارها والتى تتوارث هذا
الصمت المعيب تمشى حثيثاً فى طريق الانقراض .
ومن حق الحياة النظيفة أن تخلو منها . . .

ولقد كانت مصر تنحدر إلى هذا المصير الحالك فى العهد البائد ، بل كانت
تطوى مراحلها فى جنون لولا بقية من رعاية القدر الحانى تداركتها لترد شعاعها
الغارب ورشادها العازب وأحسب أن الله ادخر هذا القائد الثائر — على الوثنية
السياسية — ليحقق به الآمال التى جاشت فى صدور المصلحين ممن اغتيلوا
أو حبسوا قبل أن يبلغوا ما أرادوا . . .

أما الذين اغتيلوا فقد ذهبوا إلى الله بعد ما جادوا بأنفسهم فى ذاته . .

ولا تزال تعليقات السفهاء على قتل حسن البنا ترن في أذني . كان الكبراء والوضعاء يقولون لنا مبررين قتله : إن شيخكم يريد منازعة الملك « الصالح » ليكون ملكاً مكانه !! انظر كيف يستعذبون الخضوع للأوهام ويستنكرون الإجلال للعباقرة ؟ كأن حسن البنا تطاول على الله يوم زهد في إرضاء ملك صغير وكنا نجيب عباد الطاغوت بأن الشيخ القتيل وجماعته « المنحلة » لم ينازعوا « الملك الصالح » إلا هذا الصلاح المزعوم . . أما الملك فهو لله الواحد القهار . . .

وكان دوى المحافل يصم الآذان ضدنا لأن الأحزاب جميعاً تكاتفت على النيل منا ومما قيل لنا يومئذ : إنكم قتلتم ملك اليمن ، وقتم بثورة مسلحة ضده لإقامة دستور ، وتجديد حياة ، لولا أنكم فشلتم ، واستقرت - بحمد الله « ! » - الأوضاع !

إن من شكر الله على نعمائه - إذ خرّ من بين ملوك الشرق صنم - أن نزيل من صفوفنا المنطق اللولبي في علاج المشاكل . وأن نتحسس الحق المجرد حتى إذا عرفناه تمسكنا به وناخنا دونه أهل الأرض أجمعين . . .

وعلى الرجال الذين يدعون لفضائل معينة أن يجمدوا على هذه الفضائل ولو وصفوا بقصر النظر أو غلظ الطبع أو ماشابه ذلك من النعوت التي يخلعها المترفون على خصومهم في الإيمان الواضح والعمل الصالح . . .

وأى حرج في أن نموت أو نسجن فدى مبادئنا ؟ أو لسنا الذين نقول : الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا ؟ .

الجبهة الدينية

تعارف الناس أن للاديان رجالا يعتبرون أقرب إليها من غيرهم ، كالرهبان والكهان في النصرانية ، وكالفقهاء والمدرسين والدعاة في الإسلام . وهم يتوقعون أن يكون مسلك هؤلاء وأولئك أدل على حقيقة الدين وأدنى إلى رضوان الله من مسالك الرجال الذين استغرقت جل أفكارهم ومشاعرهم أعمال الدنيا !

وهذا الذي تعارف الناس عليه لا يصح على إطلاقه ! وأستطيع — كرجل اشتغل بدراسة الإسلام ودعايته أمدا طويلا — أن أجزم بأنه لا توجد طائفة ما تضاف إلى الإسلام أو يضاف الإسلام إليها ، هذا من ناحية الشكل ، أما من ناحية الموضوع فيؤسفني أن أذكر حقيقة أخرى . . هي أن أكثر الطوائف المنتسبة للإسلام في معاهد رسمية أو هيئات شعبية لا تشرف الإسلام ولا تستقيم مع هديه الدقيق .

إن التدين الصحيح عاطفة وفكرة ، والعاطفة الطيبة لا وزن لها إن خلت من النظر الذكي إلى الأمور . والفكرة الحصيفة كذلك لا وزن لها إن لم يصحبها ضمير حارس وقلب شهيد . .!! وعوام المتدينين قوم على جانب ملحوظ من سلامة النفس ونقاوة الصحيفة ولكن بساطتهم أغرت الماكرين باقتيادهم إلى حيث يشاءون . وأخطر ما في الجبهة الدينية كلها هم المحترفون والمتصدرون وذوو المكانة والمناصب . وهؤلاء هم الذين يحملون أوزار الفساد الذي طم واديننا أخيرا ، فقد داهنوا المبطلين وشلوا قوى الخير التي يملكون زمامها أن تقيم اعوجاجهم . . ولئن كنا نؤاخذ الوزراء — دستوريا — على إملأهم للملك المخلوع في غيّه ، إنا لنؤاخذ علماء الأزهر ورؤساء الجمعيات الدينية على سكوتهم . لا . . بل على مدائحهم للملك الفاسق وإرخائهم العنان لنزوانه الطائشة حتى وصلت البلاد إلى الحضيض .

وقد جاء الغوث من حيث لا نحتسب جاء الانتصار لمبادئ الإسلام على أيدي أقوام لم يلبسوا يوما عمامة التقى والورع ! ولم يسمعوا في الأندية الغاصة يخطبون الجماهير ساعتين وثلاثا وأربعا ، جاء الانتصار على أيدي رجال الجيش وكأن الله رأى أن يحرم غيرهم الشرف ، شرف هدم الطاغوت وطرده فرعون ! « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وصح ما قلناه من أن المثل العليا لا تزدهر في نطاق معين ، وأن الدين — وهو ملتقى هذه المثل — ليس له سدة معينون ، راسميون أو شعبيون .

وهناك سيئات خاصة تنتشر بين محترفي الدين . فالمعروف عند حكماء الإسلام أن المعاصي نوعان : معاصي قلوب ، ومعاصي جوارح . وقد تجتمع هذه الأنواع في نفس واحدة ، والله أعلم بعباده ، وقد قرر العلماء الراسخون أن معاصي الجوارح أخف جرما وأيسر دواء من معاصي القلوب ولئن كان الكل معصية إلا أن شهوة الزنا عند شاب طائش أهون من شهوة الكبر عند شيخ جليل ، وانفال الغضب عند عاى صغير أيسر من انفعال الحقد عند فيلسوف كبير . وتفاوت الذنوب في مقدار ما يقارنها من إثم ثابت في الشريعة روى أحمد في مسنده وأيده غيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « درهم ربا يأكله الرجل — وهو يعلم — أشد من ست وثلاثين زنية » .

والمؤسف أن المعاصي التي تشيع بين محترفي الدين هي من اللون الأشد إنهم لا يشربون خمرًا ولا يلعبون قمارًا ولا يضربون إنسانًا ولا حيوانًا ولكن ما يستكن في قلوبهم من شهوات الظهور والجدل ، والأثرة والحسد ، والاستعلاء والالتواء يجعل ضررهم أقرب من نفعهم للإسلام وأهله ! وذلك كله لو كانوا علماء حقا بالإسلام ! فكيف وفقهم فيه قليل وحظهم منه ضئيل ؟؟ وهذه الحقيقة

تفسر لنا : لماذا ذهب حسن البنا أول أمره يجمع أنصاره من رواد القهوات وأشباههم بعيدا عن الطرق ورجالها وعن مدمنى القعود فى المساجد وعشاق الدروس والمناظرات الدينية ، إن هذه الطوائف حسبت الجنة تحت أقدامها .

ومن أخطر أمراض المحترفين أنهم يسمون العجز عن الحياة زهدا ، والجن عن أعبائها قصدا ، والتفريط فى أسبابها توكلًا . . . !!

وهم يبتعدون عن المخاطر ويسمون ذلك حكمة ! ويجاملون الحكام العتاة الأدياء ثم لا تعيهم الفتاوى لتبرير نفاقهم وسكوتهم عن تغيير المنكر !

وقد لاحظت أن العوار الذى ظهر فى الجبهة الدينية كان قريب النتائج من الانهيار الذى أصاب الأحزاب المدنية فلما قرر الملك فاروق إطفاء الثورة ضد الإنجليز فى القناة مضى الوغد فى خطته الخائنة وفعل فعلته المنكرة دون محاذرة أحد أو تخوف عاقبة . . . وكأنما كانت نارا بال عليها فانطفأت ! ! . . ثم خيم الصمت على الوادى المشدوه ، وسكتت الصحف الشائرة والإذاعات المأبجة . وهرع المستوزرون إلى القصر يقبلون اليد التى صفعت مصر . أما أهل الدين فقد آثروا العودة من هذه الرحلة دون تعليق ، وفى الاشتغال بالصلاة متسع لمن أراد عبادة الله . .

لقد عقد الحزن لسانى وكسر فلمى وأنا أنظر إلى فرد شرير يمتلك سلطات خرافية خطيرة تمكنه من بيع الأمة لأعدائها . وأحزاب الأمة وهيئاتها تنظر إلى سوء صنيعه وهى بين مداهن خوان ، أو مهادين جبان . . .

وأنى لأوقن بأن موكب الأحرار الذى جارت عليه الليالى ما كان ليستسلم مهما تتابعت عليه الكوارث غير أنى كنت أخشى على الإسلام أن ينهزم فى هذه المعركة ، ومعنى انهزام الإسلام فى نظرى أن تخفت الأصوات التى تعقب على خيانات الملك السابق فاروق بما تستحقه من لعن وطمع .

واسكن الله سلم ، وجاءت النجدة كما قلت من حيث لا نحتسب .

وأحمد الله لأن « محمد نجيب » قائد مسلم ، وأنه ليس على غرار مصطفى كمال القائد التركي الكفور ، وهذا من فضل الله عليه ومن دلائل الخير التي كتبها الله لأمته ، وثم أمر آخر فإن رعاية الله التي أدركت هذا القائد ورفاقه هي عندى آية حاسمة على أن صناعة الدين قد تقرر فشلها وأن احترام الإسلام ، واحتراف الجهاد له ، واحتراف الكلام باسمه ، واحتراف الغيرة على شعائره . . إلى آخر ما يشيع في الجبهة الدينية . . كل ذلك لم تبال به السماء ولم تكترث لذويه ، ولم ينطل عليها محالهم ، ولا استجابت قليلا أو كثيرا لمزاعمهم .

وقد تسأل عن هذا الكلام ، وتحسبه تحاملا شديدا !! والجواب كلا . . إن محترفي الدين طلبوا السلامة من مجابهة الملك الطاغية بما يكره ، فاستكانوا لطغيانه واستسلموا لمخازيه ! أما القائد المسلم فقد خاطر برأسه ليقول الحق ، بل ليفعل الحق ، فهو أولى بالله منهم !! .

هو أحق بنسب الإسلام من ألوف المحترفين الدجالين .

إذا كانت كلمة حق عند سلطان جائر ترفع صاحبها إلى عليين ، فإن كلمة باطل عند ملك ملتهات تهوى بقائلها إلى الحضيض . وما أكثر الذين كذبوا على الله عند الملك السابق — وهم من رجال الدين (كذا) — وما أكثر الذين غضوا الطرف عن شناعاته ، وكلفونا نحن كذلك بغض الطرف عنه — وهم من محترفي الدين — !!! .

قد ينكل المرء عن قول الحق فهو — كما يقول الرسول — شيطان أخرس .

أما تشجيع الملك السابق على المضي في غوايته فهو كفران مبين فكيف بمن يعوق محاربيه ويسكت مهاجميه ؟ ؟

إن الكلمات التي كان يقولها وكيل الأزهر بين يدي الملك الخليع المخلوع لا تزال ترن في آذاني كمثل سوء لتشهى الدنيا وطلب المناصب بأخس الأساليب .

في العام السابق ، تلا هذا الوكيل درساً في تفسير القرآن (!) كان فاروق يستمع في نهايته إلى الوكيل الذي يلبس عمامة الصدق والورع وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أن جلالة الملك فاروق بذل ماله في سبيلك ، ولم يدخر وسعاً في خدمة دينك » إلى آخر ما قال الوكيل مفسر القرآن

ولما كان أهل الأرض والسماء يعلمون أن الملك فاروقا لم يبذل قرشاً من ماله في سبيل الله ، بل إنه كان أجراً لص في العصر الحاضر على سرقة سبيل الله بما فيها ومن فيها فقد نظر بعضهم إلى بعض دهشاً ، وصوت الراديو ينقل هذا الإفك السافر ويدخله إلى أسماع الناس قسراً واستغرب المؤمنون والكافرون هذا الدجل « اللهم إنك تعلم . . . » ؟ إن الله لا يعلم إلا الحق ! وقد قال للمشركين الذين يزعمون معه آلهما « أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ » وقال كذلك موبخاً المفترين — ويصح توجيهه إلى كل كذوب — أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ؟ أم بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم وصددوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد .

والغريب أن سطوة فاروق جعلت أصحاب المبادئ — كما يقولون — ينسون مبادئهم ! فالمعروف أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أصدر فتوى بأن بناء الأضرحة حرام ، ومع ذلك ما أن تولى المشيخة حتى سارع إلى زيارة ضريح الملك فؤاد — لأنه طبعاً أبو الصنم الحاكم — . . .

وفي مؤتمر صحفي كبير صرح الأستاذ الأكبر بأن الملك فاروقا يعلم من شئون الأزهر وأحوال المسلمين الكثير المعجب ! وهذا غريب ففاروق شخص لا تزيد معلوماته عن الحلاق الإيطالي « بوللي » الذي جعله « بك » والعامل الميكانيكي « حلمي » الذي جعله « أميرالاي » إن ثقافة الملك السابق لا ترشحه لشغل وظيفة في الدرجة الثامنة فضلاً عن أن ينوه بها شيخ الأزهر في مؤتمر للصحافيين ولا يزال الناس يضربون كفاً على كف للتهنئة التي أرسلها فضيلته إلى

عصابة « بوللى وشركاه » لما أخرجهم الملك المجرم من قائمة المتهمين في قضية الذخيرة الفاسدة .

هذا مثل لما ساد الجبهة الدينية من مهازل على العهد البائد . وقد ذكرنا طائفة من تصرفات الرجال الرسميين . أما الرجال الشعبيون من رؤساء الجماعات الدينية فنحن في حيرة بين أن نكشف أمرهم أو نرحم ضعفهم وقانا الله ووقى الإسلام شرورهم .

الإنسان السليم لا تغتاله الأعراض الطارئة مهما اشتدت وطأتها . . قد يسقط في الطريق فينكسر عظمه ، ثم لا يلبث أن ينجبر ! وقد يصاب بجرح نافذ ، ثم لا يلبث أن يندمل ! ذلك أن قوة المقاومة في بدنه ووفرة الحياة المذخورة عنده تجعله يتحمل الطعنات والصدمات ، فإن استكان لها حيناً لم تمر عليه أيام حتى ينتفض من وعكها ويستفيق من شدتها ، ثم يستأنف سيره في الحياة كأن لم يمسه سوء . . .

وهناك جسم كمن فيه الداء واستشرت فيه العلة ، يمشى الهوينى على ظهر الأرض وهو يكاد يتهالك وحده ! . . إنه يوشك أن ينخر صريعاً قبل أن تنوشه ضربة أو تلقاه صدمة ! فكيف إذا اعترضه خصم لدود ينبغي له الأذى . . ؟

إن الأمم كالأفراد في هذه الأحوال . وقدرتها على تحمل الهزائم المرة والآلام المبرحة ترجع قبل كل شيء إلى ما يستكن في أعصابها من طاقة وما يتدافع في كيائها من حياة . عندما انهزم المسلمون في معركة « أحد » لم تكن هزيمتهم ختام رسالة ومصرع إيمان ، بل اعتبرت الهزيمة جرحاً عارضاً يجب أن يتحمله الأقوياء في غير ما ضجة ! ونزل قول الله « . . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداؤها بين الناس » .

وما لنا نطلع المسامين اليوم على تاريخهم القديم ؟ فلينظروا إلى « ألمانيا »
في الغرب و « اليابان » في الشرق . كلتا الدولتين تلقت في الحرب الأخيرة ضربة
هائلة ، وتحملت في الأنفس والأموال خسائر طاحنة . ومع ذلك لم تمض أعوام
قلائل حتى بدأ المعالقة يخرجون من خلال الانقراض ، وعلى شفاههم ابتسامة
الرجولة والمصابرة ، وعادوا يديرون مصانعهم ومدارسهم ويمدون حضارة العالم
بإنتاج كثيف ، جعل الأعداء قبل الأصدقاء يخطبون ودهم ، ويقدرّون صلحهم !!
لكن أمتنا الإسلامية أصيبت منذ قرن بسلسلة من الانكسارات العسكرية
دوختها ، وهدّت قواها ، ولا تزال حتى الآن تضطرب في عقابيلها وتترنح
مكانها . ذلك أن الداهية لم تأت منها من انهزام حربى طارئ ، بل من داء متغلغل
سرت جراثيمه في دمها سريانا خبيثا ، فلو لم تسقط أمام خصومها الذين يناوشونها
لسقطت وحدها مغشياً عليها كما يسقط المنهوك أو المحموم . . . !

كانت الوثنيات السياسية والاجتماعية والعقدية تنخر في عظامها وتنشر ضباب
الخرافة في آفاقها وتعزلها عن قافلة العالم المائج بالاكتشافات الباهرة ، وتستهلك
آخر ما تبقى لديها من موارث الحضارة التي آلت إليها عن الأسلاف الصالحين .
كانت الخلافة الإسلامية في ملكها العريض تسمى حكومة الرجل المريض ،
وكانت « أوروبا » تعد الساعات القلائل الباقية في أجل المحتضر الهالك لتقتسم
تركته وتتوزع بينها ثروته . .

لم تكن مصائبنا إذن من اندحار عسكري مفاجيء ، بل من مرض متغلغل
قديم ، ومن هنا هب المصلحون في بقاع شتى من الوطن الإسلامى الكبير
يعالجون العلة الدفينة ، ويستنقذون عقيدة التوحيد من ضروب الوثنيات التي
أوشكت على إتلافها ، سياسية كانت أو مادية ، ويحاولون بناء الحضارة الإسلامية
على أصولها الأولى من حرية العقل والضمير . .

وقد كان محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وحسن البنا —

كان هؤلاء الأئمة الأبطال يحترقون دأباً في تعريف الجماهير الغافلة بالله وحده ويمسحون عن قلوبها الذليلة أرجاس العبودية للأوهام والأسماء ، بيد أن الوثنية السياسية لاحقتهم بأذاها فقتل محمد علي باشا دعوة ابن عبد الوهاب وقدم رجالها قرايين لسيده في « الآستانة » وقتل فاروق — حفيد محمد علي — دعوة حسن البنا — واغتال الرجل الكبير بعد ما أرسل وزراءه إليه يستدرجونه إلى مصرعه ! وأمل الوثنية السياسية من وراء هذه المذابح أن تبقى على تألهها وسط قطعان من الخدم والسدنة والعبيد ، لولا أن الله لم يخيب جهود المصلحين من عباده ، فإن الزعماء القتلى لم يتركوا الحياة حتى خلفوا من ورائهم من يحمل اللواء ، ومن يعاهد الله على تحطيم الأصنام ما بقي حياً . . .

قرأت وصفاً دقيقاً للحال التي انحدر إليها المسلمون في ظل هذه الوثنيات الجائرة ، نشرته جريدة « المصري » أخيراً تحت عنوان « أمراء ومشايخ قبائل لا يحرصون ، وعهد إقطاع لا مثيل له » والواصف يروي قصة عجيبة لألوف مؤلفة من السكان الذين يتضورون جوعاً ويعيشون في أغلال الاستعباد المطلق دون أن ينقذهم صرخ أو يرثي لهم حي ، وأين يقع ذلك ؟ جنوبي جزيرة العرب حيث تقطن شعوب ويقوم أمراء ، يقال عنهم : إنهم مسلمون (!) .

قالت الجريدة على لسان وفد من إمارة « لحج » : في جنوب بلاد العرب تقع الحميات التسع التي تبسط انجلترا عليها سلطانها ، وهي بيجان — يافع العليا — يافع السفلى — عواتق العليا — عواتق السفلى — الواحدى — حضرموت — مهرة — لحج . وقد احتل الإنجليز هذه البلاد سنة ١٩٣٨ م واحتلوا كذلك عدن . واستخدموا في هذا الغزو جنوداً من الهند ونفراً من ضباطهم ، ثم سيطروا على البلاد كمادات أبرموها مع أمراء القبائل وشيوخ العربان . معاهدات تضمن لهم ولاء الشعوب المقهورة ، نظير ماذا ؟ نظير حماية الولايات من عدوان المعتدين . . أى أن اللصوص الحر بعد أن سرقوا البلاد لأنفسهم قرروا ألا يسرقها منهم أحد ! وأعطوا بذلك عهداً حتم الوفاء ! . .

وقد شرعوا لفورهم يستغلون مياه بحر العرب ، ويستخرجون الملح واليود وبعض المعادن لقاء ريات معدودة . قالت الصحيفة : ويبلغ السكان مليوناً ونصف مليون ، ومع أن المحميات تسع — عدا عدن — فإن أهلها مبعثرون على سلطنات وإمارات لا حصر لها ، ثم إلى مشيخات صغيرة ، وإلى جانب كل سلطان أو أمير « مستشار بريطاني » يتلقى تعليماته من حاكم عدن الإنجليزي ولهؤلاء الأمراء والسلاطين والمشايخ امتيازات خطيرة وإقطاعات ضخمة . وكان من حق سلطان « لحج » السابق وغيره من الأمراء أن يزجوا بأفراد الشعب في السجون من غير محاكمة ، وكانت رئاسة الإدارات الهامة مقصورة عليهم ، وكانت مياه الري تمر بأرضهم أولاً فإن بقي منها فضل سمح بمروره للأهلين ، أما التجارة مع الخارج فهي احتكار على السادة الحكام فحسب .

هذه حالة فريق من الأمة الإسلامية التعيسة . وإلقاء اللوم على الإنجليز حماقة ، فهذه القطعان المسخرة لحكامها — الوطنيين أو الأجانب — ليسوا أسوأ عيشاً من القطعان التي تحيا على الطوى في اليمن ونجد والحجاز . حيث لا يوحد انجليز بل ملوك مسلمون — كما يقولون — إن اليمن لا تزال تعيش في عهد عاد وثمود . أما الحجاز فأذكر أنني سألت في مكة رجلاً من سرائرها : أما لكم هنا نشاط ؟ . فقال : طلبنا من الحاكم أن يبيح لنا فتح ناد يضم شبابنا فأبى ذلك علينا !! فقلت في نفسي : لقد كان بمكة في الجاهلية الأولى ناد أليس يقول القرآن : « فليدع ناديه » أما مكة في عهد الإسلام اليوم فمحرم أن يكون بها ناد !!

وقد كان فاروق يريد الرجوع بمصر إلى نكسة الحكم المطلق ، ألم يحكم على القاهرة أن تبني بعد العشاء داخل الدور الموصدة كما يبني الدجاج في القفص ؟ إن الأسر المقدسة في مصر واليمن وإيران والعراق وليبيا والحجاز لها من صفات الله أنها لا تسأل عما تفعل ، ونحن نجتهد أن نغير من دستورنا هذا القانون الوثني !! ولعلنا ننجح في التفصي من دنيا العبيد . .

والغريب أن الوظيفة تخلق العضو — في قوانين الحياة العامة — أما في منطق الوثنية السياسية فالعضو يخلق الوظيفة . يوجد الملك أولاً ثم يبحث — بعد — عن البلاد التي يحكمها والرقيق الذين يسودهم ، فعل هذا في الأردن . ويراد فعله في السودان !! وسيظل يفعل في بلاد الإسلام ما نسيت دينها وآمنت بغير الله وامتلات أفئدتها رغبة ورهبة للأصنام الحديثة ..

والسؤال الفذ الذي أريد إلقاءه . . ما هي المعارف الدينية التي تدرس في ظل الوثنيات السياسية ؟ ما هي الدعايات الدينية التي يسمح بانتشارها ؟ ما هي الجماعات التي يسمح بقيامها ونشاطها ؟

القرآن الكريم يقول : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » ففساد القرى وذلة الجماهير من لوازم الوثنية السياسية ، وهذه الوثنية لا تأذن لعلم ما أن يتعرض البتة لهذه اللوازم ، فإذا أراد دين ما أن يعيش ، فليبتعد أولاً عن لوازم الوثنية السياسية . . . فساد القرى وذلة الأهلين . . وقد استطاع المرتزقة والمحترفون أن يصنعوا جملة من الطقوس والأدعية أسموها الإسلام لا تعترض على فساد يقع أو إذلال ينزل ، وهذا الإسلام المدعى الملق هو الذي أسست له مدارس ، وقامت بنشره جمعيات ، ورضيت عن رجاله الملوك !! ولكنه إسلام لا يعرفه القرآن الكريم ولا السنة المطهرة ولا الرجال المجاهدون . هو الإسلام الذي طوح بأهله وراء وراء بعد أن كانوا طليعة العالم أجمع . والله ما أدري أية وظيفة لدين يسكت عن الفساد والمذلة ، وأية رسالة لمتدينين يعيشون في حواشي الملوك المسلمين على العباد بالجبروت والفسق؟؟

إن العالم خضع قديماً لوثنيات شتى ، وقد جرت عليه سنة التطور فتخلص من عبوديات كثيرة . وكما أن البشر الذين سخرروا قوى الكون لهم يستحيون اليوم من عبادة حجر فهم كذلك يستنكرون أن يخضعوا لرقيق لبشر .

وهم يتكبرون من الأنظمة والضمانات ما يوطد الحقوق ويمنع المظالم ، وقد كانت ثورات الحرية في الغرب لا دين لها ، أما ثورات الحرية في الشرق الإسلامي فإن الإسلام الحق كان ملهب نيرانها . وموقف جمال الدين ومحمد عبده من تحقير الملوك وتجريء الشعوب عليهم وتزكية الثورات على الطغيان في كل قطر إسلامي ، ذلك كله معروف ومدروس .

إلا أن الاستعمار الغربي — بما يكنه من حقد على الإسلام — آزر ملوك الشرق ضد هياج الشعوب المستيقظة ، وعمل على إبقاء الأوضاع المعوجة لتزيد المسلمين مرضاً على مرض . . .

ومن ثم انضم الإنجليز إلى « توفيق » ملك مصر في مقاتلة المصريين الثائرين على الوثنية السياسية بقيادة الزعيم العسكري أحمد عرابي والزعيم الديني محمد عبده . وانهزم الإسلام في المعركة لأن أمته المهيضة لم تطق الكفاح الطويل . وعادت الوثنية السياسية مرة أخرى تعربد وتغتال وتهلك الحرث والنسل . . . لكن قوى الإسلام ما لبثت أن تجددت على أيدي حسن البنا .

ولما كان الإسلام يححر البشر من أغلال الوثنية ليردهم إلى عبادة الله وحده ، فقد قدم حسن البنا مناهجاً للإصلاح العام يشمل الفاحيتين الروحية والمادية ، وفي الوقت نفسه وجدت هيئات أخرى تحارب المظالم والعبودية ببرنامج مدني بحث لا صلة له بالدين وقد استتبقت الفريقان في الميدان العام ، كل يبغى السيطرة عليه ، غير أن الملك فاروق استطاع أن ينسكل بالطلائع الحرة كلها ، وكان قتله لحسن البنا على النحو المشهور مثيراً للخاوف الجبناء ، ومغرياً للملك المجرم بالمزيد من الضحايا والسلطات . . .

إنني أقرر أسفاً أن الرجال المدنيين استكانوا وذلوا ، وأن الأحزاب المصرية سقطت في امتحان الرجولة ، وأن أحداً لم يجرؤ أن يقول للملك اللص الزنيم :
قف مكانك !!..

وأقرر كذلك محزوناً أن الجبهة الدينية سادها بعد مصرع البنا اضطراب شامل ،
لم ينبج منه إلا من عصم الله . وقد حاول بعض رجالها أن يصنعوا لونا من التدين
يصمت على إفساد الأرض وإذلال البشر لأن الوثنية السياسية تريد هذا !!
ولكن الله أذن بطرد فرعون قبل أن يفسد الدين كما أفسد الدنيا . فهل
يرجع المشتغلون بالتدين إلى أنفسهم ليروا من آيات الله في قصم الجبارين ما يثبتهم
على الحق ؟ ؟

هل يرجعون إلى أنفسهم ليعترفوا أنهم لم يعطوا الله حقه حين خشوا غيره
ورهبوا جانبه ؟ ؟

إن هناك رجالاً منذ قتل حسن البنا لم ينطقوا بحرف فيه رائحة من التحدى
لملك السفاك ، ولم يلمحوا ولو من بعيد إلى ما اقترفه الرجل المجهول على الشر من
آثام في حق البلاد والعباد ومع هذا كله فهم معروفون بين الناس بأنهم رجال
الإسلام كأن الإسلام هو الخضوع والاستسلام !

أفكار في الإصلاح

إن البون شاسع بين الإسلام الذي انتصر قديماً وصبغ العالم كله بمحضارة كريمة مثمرة ، وبين الإسلام الذي يتعثر اليوم وينكمش داخل حدوده ، يستجدي الحياة بعد أن كان يهبها وينتظر المنافع من أيدي الآخرين بعد أن كان يسدي الإحسان إلى الناس أجمعين . ولما كانت الأصول العلمية لهذا الدين لم تتغير في القرون الأخيرة عنها في القرون الأولى — إذ القرآن هو القرآن والسنة هي السنة — فإن السؤال الطبيعي الحائر على الشفاه هو : ما السر إذن في هذه النقائص الصارخة بالعجب ؟ وما الذي يجعل أمة ذات كتاب واحد تتقدم حتى تمسك بالزمام وتتأخر حتى تدوسها الأقدام ؟؟

إن نفرًا من الأئمة ألف كتباً قيمة في الإجابة عن هذا التساؤل ، وقد التقت آراؤهم عند اتهام المسلمين المتخلفين بأنهم عصاة لا ينفذون وصايا دينهم في مناحي الحياة المختلفة ، والعليل الذي يرفض تناول الدواء لو قتلته علته فلا لوم على طب ولا عقار ، بل اللوم على من ظلم نفسه وآثر الانتحار « وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » .

وهذا كلام صحيح في جملته ...

ولكن ماهي المعصية ؟ قد يأمر الله بالصلاة أو الصيام فيتهاون المرء في أمر الله ، ويدع هذه الفرائض المطلوبة أو يؤديها على نحو سيء قليل الجدوى : وبهذا العوج مع النصوص المحددة يعتبر عاصياً ، أليست هذه صورة العصيان كما نفهمها ؟ إنها كذلك !!

ولامراء في أن هذا الضرب من مخالفة الشريعة المرسومة إثم يستتبع عقابه في الدنيا ، والآخرة ، وتحمل الأمة أوزاره في حاضرها وغدها غير أن هذا النوع

من العصيان ليس أخطر ما تجنى الأمة ثماره ، فهناك معاص أخرى أساسها عدم فهم القانون — لفهمه ومخالفته — ونحب أن نقف طويلا عند هذا النوع الأخير لأن علاجه أشد عناء من غيره ...

إن الدين قبل كل شيء يصوغ القلب الذي يستوعب اليقين والإخلاص ، ويتوجه إلى الله — كما تتوجه الإبرة المغناطيسية في البوصلة — إلى قطبها الدائم فهي مهما اهتزت تستقر عنده ...

وصلاح القلب يتطلب كذلك صلاحية الوسائل التي تبلغه أهدافه ، فالرجل المؤمن حقاً يجب أن ينبعث في مشاعره كلها عن قلب سليم حتى ينفذ التعاليم الجزئية في الشريعة بدقة : وحتى ينفذ التعاليم الكلية يبصر سديد وإدراك جيد ...

وعمل القلب المدخول في الحياة هو عمل « البوصلة » الفاسدة في هداية الطريق !! إن الطاعة والمعصية ليست خطرات عابرة تعرض للقلب على عجل ثم تنفك كذلك على عجل ، كلا ، إنها آثار لانطباع القلب نفسه بالخير والشر ، ومظاهر لتوجهه إلى رب العالمين أو انقطاعه عنه ، وأكثر المسلمين يحسب الانقياد أو التمرد حالة للجسم لا حالة للنفس . وهم — لذلك — يظنون الحسنات والسيئات أموراً تعد على الأصابع قبل أن يظنوها صورة للروابط الحقيقية بين الإنسان وخالقه ، وهذا سر فساد كثير من المتدينين ، وسر الضعف الشنيع البادى في أخلاقهم ومسالكهم .

وصلاح النفس لا يغني عن صلاحية الوسائل التي تصل بها إلى ما تريد ، فالسيارة المعدة لقطع المراحل الشاسعة مهما جادت آلاتها وضخم استعدادها لا بد لها من طرق ممهدة ومن خبير بهذه الطرق !! وإلا . فلا جدوى لقوتها وعدتها .. والمؤمن الطيب القلب لن يقوم بوظيفته في الحياة إلا إذا عرف الحياة نفسها واتسعت إحاطته بدروبها ومتاهاتها وأسرارها ، فإن كان ساذجاً أو مغفلاً

أو قاصر النظر أو قليل الفطنة فسوف يقف مكانه محسوراً ، بل ربما اجتاحه من مكانه الآخرون .

والجهل بالحياة مرض شائع بين المتدينين ، وهم يعتمدون على سلامة طويتهم أكثر مما يعتمدون على عمق فهمهم ودقة فقههم ، ولذلك يفشلون حيث ينجح غيرهم !!!

لا بد لنجاح النهضة الدينية من سلامة النفس والعقل ، لأنه لا دين ، ولا نهضة به مع مرض النفس والعقل .

والرجل الصوام القوام ، المتخلف بفكره عن فهم العالم الكبير وما يدور فيه ، المتخلف بنفسه عن تذوق الحق والإخلاص له ، رجل ساقط في موازين الإسلام ، وهو — بالتالي — فاشل في ميادين الحياة ...

وإلى هذا النوع من العصيان يعود تأخر المسلمين في بلادهم ، وسقوط خلافتهم الكبرى في أرض الله ...

إن شرب الخمر معصية قد تنتشر وقد تنكمش ، بيد أن هذه المعصية لا تطوى ألوية الأمة طياً سريعاً كما يطويها قصور العقل وفساد الأفئدة ، ولست أهون بهذا من شأن جريمة السكر ولا من ضرورة حسمها ، ولكني ألفت النظر إلى أن الأمة الخمورة بالقصور النفسى والعقلى لا تفيق من غفلتها ولا تقوم من عثرتها ، على حين أن الأمم التى تنتشى بالأشربة المسكرة تغيب وتصحو وتكبو وتقوم ...!

ومن هنا حكم الأوربيون بلادنا — والخمر حلال بينهم — مع أنها محدودة الشر عندنا ، إلا أن لدينا شراً أنكى منها يأكل الأفكار والمشاعر ، هو هذا التبادل العقلى والموات العاطفى ...!

ولو أن المرء التافه فى قلبه ولبه يلقى عواقب عجزه فى خاصة نفسه لهان على الدنيا أمره ...

هب أن رجلاً دخل ميدان التجارة وهو لا يعرف عن طبيعة السوق شيئاً ،
أو دخل وهو ينوى اتباع وسائل اللصوص في الكسب والغش ، إنه لا يلبث
طويلاً حتى ينسحب من السوق وقد أضاع ماله وخرج صفر اليدين . ولن تعدو
القصة أن رجلاً جاهلاً فتح دكاناً ثم أقفله وانتهى الأمر...!!

لكن النكبة أن يدخل فرد أو تدخل جماعة ميدان الجهاد الرب ، فإذا
جئت تبحث عن هذا المجاهد ووسائل نجاحه التي أعدها وجف قلبك من
تفاهة ما ترى ...

قلب تغلفه نزعات الحمائم المسنون ففيه من شهوات الدنيا نتن . وعقل تثبت فيه
الأشياء مقلوبة ، فلا تكاد ترى له حكماً صائباً على شيء أبداً ...
في هذا الميدان يخسر الدين كل شيء لأنه لا يملك من أسباب الغلب شيئاً —
ورجاله كما ترى — ...

فإذا ظفرت الدعوات الأخرى برجال كبار القلوب والعقول ، فإن المستقبل
يتمخض لها وحدها !!

والدين قد ينفرد بالعبادات التي يلزم بها المرء من صلاة وصيام مثلاً ، ولكنه
في ميدان الإصلاح العام يزاحم ببرامج شتى ، فإن حارب الفقر ، أو الاستبداد
بمناهج معينة . فإن هناك مبادئ وفلسفات أخرى تحارب الفقر والاستبداد
كذلك ببرامج معروفة ، ولن ترجح كفة الدين على غيره وتنطبع الحياة بتعاليمه
إلا إذا كان العلاج الذي يتقدم به رجاله أسرع وأقطع ، وأصرح وأوضح ،
وإلا فلا بد أن يتقهقر الدين وتتقدم هذه البرامج...!

خذ مثلاً مشكلة « الإقطاع » وما تركه في جسم الأمة من علل سياسية
واقتصادية واجتماعية ونفسية .. كان الملك ، والنظام الذي يقوم عليه جرثومة
هذا الفساد العريض ..

فإذا رأيت أهل الدين ضعفاء الإحساس بهذه العقيدة خافتى الصوت باستنكارها

على حين يصرخ غيرهم بلمن الملك ونظامه وينعى بقوة على عهد الإقطاع الذى يلبسه فهل يضار من ذلك إلا الدين نفسه ؟

وإذا ولى الملك الفاسق فشيعة المتدينون بتعليقات فائرة بينما تعقبه الآخرون بالزجرة والويل فهل تنجح برامج الإصلاح الدينى بهذا الموقف المتهاافت ؟

ربما قال لى القارىء : إنك صاحب كتب تعتبر الطليعة العقلية للزوال الذى هدم الطاغوت ، وهى كتب داعية مسلم فى جماعة تكافح للإسلام ، ولغيرك كذلك هذا الجهد المذكور .

وهذا الاعتراض لا يغير شيئاً مما قلت ، فإن صلة المؤلف الحر بالقراء الأحرار لا ترسم سياسة تسأل عنها هيئة وقد رمقت الملك المطرود وأمواج البحر تحمل سفينته إلى حيث ألفت . . . ثم أمسكت بعدئذ بصحيفة يومية نشرت حديثاً لرجل مموه قديماً « الباشا الأحمر » قرأته ثم طويته وأنا أنهد ، يقول الرجل التقدى تحت عنوان : نهاية نظام « إن إخراج الملك السابق قهراً من الحكم ، وإبعاده عن البلاد ليس كما يتوهم البعض فى الداخل وفى الخارج ، استبدال شخص بشخص ، أو بأشخاص ، بل هو حادث تاريخى له آثار بعيدة المدى فى كيائنا القومى ، بل فى الحياة الدولية العامة . إنه نهاية عهد وانهايار نظام ، وبداية عهد جديد ، تسود فيه إرادة الشعب المصرى . متحرراً من الاستعباد والاستغلال الذى أرهقه وأشقاءه ، ولن أبعد عن الحقيقة إذا ذكرت لمواطنى وللناس جميعاً أن المدافع التى أطلقت حين غادر الملك السابق أرض الوطن لم تكن تحية ، بل كانت إيذاناً بدفن هذا العهد الذى كان يمثل الملك السابق بأوضاعه ، وإدخال هذا العهد ونظامه فى ذمة التاريخ ، وفى طيات الماضى .

ما هو هذا العهد ، الذى كان يمثل الملك السابق ؟ .

إنه كان نظاما يقوم على الطبقات ، جهاز الحكم وأوضاعه نسقت لتأييد هذه الطبقات ، والطبقة العليا منها هي التي تتصل بالملك .

فالحكومة التي كان يرأسها ، كانت من المصريين ، لكنها مع هذا ، كانت تعتبر نفسها منفصلة عن المصريين ، وفوق المصريين ، وسيدة عليهم ، لها قداسة تشمل حتى أصغر عمالها . هذه القداسة مفروضة بقوة السلاح وبالسجون .

يرى مواطني أثر هذا في أن أصغر جندي من جنود البوليس له بحكم القوانين صفة التعالي على الشعب . هناك في تلك القوانين مادة لمن ينتقص من الجندي بالقول أو بالإشارة ! وهذه القداسة تسمو وترتقي في طبقات الموظفين الذين يتكون منهم جهاز الحكم ، فإذا وصلت إلى الملك أو لعائلته كانت ذاته مصونة لا تمس ، وكان نقده محرما ، بل يعتبر جناية كبرى .

ويرى مواطني هذا المعنى ماثلا في أشخاص الوزراء إذ يتمتعون بامتيازات خاصة ، بل تفتح لهم أبواب يمرون منها حين سفرهم ، لا يدخلها الشعب ، تحوطهم هالة من السلطة والقداسة والحراسة .

كل هذه المعاني قد اندثرت وزالت أو هي في سبيلها إلى ذلك .

هذه الكلمات الصريحة على بساطتها في توديع عهد الاستبداد واستقبال عهد الحرية لم نسمعها للأسف البالغ — من رجال الجبهة الإسلامية هواة ومحترفين ، أفهذا الصمت مما يخدم به الإسلام ؟ .

كان الرسول معلما ومربيا ، لأن الإسلام يقوم على الأمرين جميعا . . . التعليم يتجه إلى العقل فيملؤه بأشتات من المعارف الصحيحة عن الحياة ورب الحياة .

والتربية تتجه إلى النفس فتتعهد غرازها بالتقويم والتهذيب فما كان من خير أبقتة ونمته ، وما كان من شر بترته أو حكمته .

ولم تكن وظيفة الرسول أن يتلو على الناس كتابه فحسب ، فإن رسالته يستحيل أن تتم بجملة من الأحكام والعلوم يشحن بها عقول السامعين ، كما أن البشر لا يبلغون كمالهم بالمعرفة المجردة ، بل لابد من تعهد الأجيال بالتمحيص والتجارب والابتلاء حتى يتربوا وينتجوا ويطيّبوا ، وذلك معنى التزكية التي قرن الله بها التلاوة في قوله .

« لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسُولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين . »

والرسالات الكبرى إذا تطلعت إلى الحكم وسلطانها فلكي تضمن تنشئة الجماهير على ما تقر من مبادئ ، ومن ثم فالحكم في الإسلام وسيلة لا غاية ، إنه وسيلة إلى إقرار الفضائل وإقصاء الرذائل ، وتربية النفوس على الحق والخير والنظر إلى الأفراد والشعوب على ضوء هذه الحقيقة وحدها ، وليس يتصور في دعوة إلى الله ورسوله أن تفصل بين العلم والتربية في منهاجها ، ولا أن تتخلى عن هذا الميزان الحساس في تقديرها لأصناف الناس .

إن التربية ليست أمراً سهلاً حلو المذاق خفيف المؤنة . ذلك أن المرء قلما يتخلص من نزعاته الرديئة إلا بعد جهد جهيد وزمن مديد . ونحن إذا دققنا النظر في الفرائض التي أوجبها الله على عباده وجدناها مدارج للكمال المنشود ، ولعل من أعظم وسائل التربية تعبئة الأمة في جهاد نظيف الغرض طويل المدى ، فإن ما يكتنف حياة الجهاد من قسوة ومصابرة يتسلط على النفس كما تتسلط أشعة الصيف على السنابل الطرية فتنضجها ، أو كما يتسلط لهب المواقد على الأطعمة الفجة فيطيّبها .

والمرء لا تطيب نفسه إلا على هذا النحو إنه يظل في عراك مع الأيام ترميه

بأغراضها ويلقأها بفضائله لا يسقط ولا يتعثر حتى ينتهى أجله فى الحياة وهو ممن قال الله فيهم :

« ولَنِعْمَ أَجْرُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

وفقدان التربية الصحيحة من أسوأ علل الشرق الإسلامى ، فإن كثيرين من المسلمين يلصقون عنوان الإسلام على أنفسهم كما تلصق الورقة المزوقة على حائط مثقوب أو جدار مشوه !

وهذا عبث إن تجاوز عنه الناس فلن يرضى عنه رب الناس إن الإسلام لا يستر بلى البناء بطلاء كاذب ، ولكنه يهدم ويحفر ليضع الركائز المتينة ثم يشيد بعد ذلك الشرفات السامقة . . . إن الإسلام يعرف الخير حقيقة متغلغة فى النفس ، ولا يعرفه مظهراتها . وإنك لترى فكرته عن الخير فى وصفه الأجواد الأخيار بقوله . « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ . وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » والفرق بين التدين المصنوع والتدين المطبوع ، كالفرق بين وجه دمى يخفى تحت مساحيق حمراء وبيضاء ، ووجه نقى أغر لا تفارقه ملاحظته فى ليل أو نهار . .

والفرق بين الرجلين كالفرق بين ممثل يؤدي دوره على المسرح فهو يتكلف له ريثما ينتهى منه . . ورجل يواجه الحياة بصميم نفسه وحقيقة حسه ! !

لكن الله لا يدع الجوهر يخفى والمظهر يطفى إلى آخر العمر ، فإن الناس على مر الأيام وأنواع البلاء يتكشفون على ما بين جوانحهم وحده .
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وعندئذ يكون الحساب الدقيق على خلائق الإنسان الغالبة .

ويرى المحققون من العلماء أن هذا معنى ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يبق بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيصير إلى أهل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يبق بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيصير إلى أهل الجنة » فليس القصد من الحديث إن رجلاً صالحاً يرتكب آخر عمره خطأ فيذهب إلى الجحيم ، أو لعكس ! كلا .. أن موازين العدل الإلهي أحكم وأدق مما يظن الجاهلون . . بل الحديث يصف ضروباً من الناس تخالف ظواهر أحوالهم خفايا نفوسهم ، يبقون سنين طوالاً على هذا التناقض ثم ترسو سفنهم آخر الأمر على ما يؤثرون ويستحبون .

إنك قد تلمح في أهل الدنيا رجلاً تحسبهم مغرقين في حبها فإذا غلغلت النظر في طويتهم رأيت انعطافاً نحو الله وشوقاً إلى عبادته وقد تلمح في أهل الدين رجلاً عليهم سيما الصالحين وإخبات المنيبين ، فإذا رجعت الطرف وجدت رغبة في الحياة وحرصاً على زخرفها .

إن هؤلاء وأولئك تناقض ظواهرهم بواطنهم ، هؤلاء باطن أهل الجنة وإن ظهرت على جوارحهم أعمال أهل النار . ولأولئك باطن أهل النار وإن ظهرت على جوارحهم أعمال أهل الجنة . وهذا التناقض لا يطول أمد . فإن الله يُنهيهم على النحو الذي ذكره نبيه الكريم وما أصدق قولهم : العبرة بالخواتيم .

وقبل أن تتمخص الأيام والليالي عن أفذار الناس نرى الأعاجيب . ومن الأعاجيب التي تبرز أمام أعيننا في هذه الأيام إن قوماً ما ظلوا في موكب الحق سنين يحاربون عنه ويهتفون له . ثم بدا لهم أن الشقة بعيدة والتكاليف باهظة فسكنوا . فلما سكنوا شاء الله أن يهزم الباطل بأيدي غيرهم . ولو أنهم صبروا قليلاً لأحرزوا الشرف أولاً وآخراً .

أما سمعت عن قوم ظلوا معتبرين أعداء الملك وأصدقاء الدستور ثلاثين عاماً ،

ثم إن أعداء الطاغية فكروا قليلا ، فسالموه . وما أن سالموه حتى سقط ، وهم اليوم يحاسبون على سالمهم له فحسب ! . أما خصامهم له ربع قرن فقد أضاعته هفوتهم الأخيرة . . ؟

كذلك صنع الوفد المصرى مع القصر !

إنى أريد من الإخوان المسلمين أن يذكروا ، وأن يتعظوا ، أن الحياة المبادئ المجردة قد تتطلب خصاماً لا يدرى له آخر ، ولا تلطف حدته سياسة ، ولا يجدى فيه إلا الرباط بعد الرباط .

الأمة .. والفساد الملكي

الحاكم في نظر الإسلام — رجل تختاره الأمة لأنها تراه أجدر بقيادتها وزعامتها ولأنها ترى في صفاته الموهوبة والمكتسبة ضماناً لولاية أمرها على وجه يحقق مصالحها في الدين والدنيا ..

(والحكم — كأي وظيفة — لا يرشح لها نسب خاص ولا لون معين) إنما يرشح لها من يسد فراغها ويحمل أمانتها . وقد يتساهل الناس في ملء الوظائف الصغرى بمن يفقدون بعض شرائط الاستحقاق . ولكن هذا التساهل إن قبل ضرره في الأعمال التافهة فإن وزره في إفساد المناصب الكبرى لا يطاق . ومن ثم فإن مناصب الإمارة والوزارة وأشباهاها يجب أن ينتقى لها العاقلة والأبطال ، والويل لأمة تسلم زمامها للسفهاء والضعفاء .

وقد جعل الله أمر المسلمين شورى بينهم ، ليجتثوا في صفوفهم كلها عن الكفء لإمامتهم ، فإذا وجدوه بايعوه عن رضا ومحبة ، حتى إذا أصبح أميراً فيهم وجب عليه ألا يقطع دونهم أمراً ووجب عليهم ألا يجنبوا عنه نصيحاً . وبذلك تسير القافلة . وقد قامت دولة الخلافة الراشدة على هذه الأسس وكان نظامها فريداً في العالم يومئذ . إذ كان الروم والفرس وأمثالهم من الأمم يسودون أسراً تتوارث الحكم بين أفرادها . كلما هلك ملك ورثه على نواصي العباد ملك آخر . وتورث الملك — والملك والحكم سواء — من أبرز مآثر الجاهلية الأولى .

بيد أن الإسلام — وهو دين الفطرة النظيفة والعقل الرشيد — شرع لأئمة معالم الشورى . (ورد إلى الشعوب حقها الكامل في اختيار حكامها) وأسقط قيم الدماء والعناصر في موازين التفاضل ، فلم يبق في أرضه مكان لمن يزعم مجداً ويستحق بهذا الزعم ملكاً !!

وهذا الذي قرره الإسلام قديماً . . هو ما قامت من أجله ثورات الحرية في المشرق والمغرب . فأصبح رؤساء الدول يختارون من صميم الشعب . في صورة منكبة للبيعة التي جاءت بالخليفة الأول في الإسلام .

غير أن طبيعة الحياة الدنيا غلبت طبيعة المثل العليا التي قررها الدين . فقد استطاع معاوية بعد ثلاثين عاماً أن يلتوى بنظم الحكم الأولى ، وأن ينقل عن الروم والفرس بدعة النظام الملكي ، إلا أنه واءم بين البدعة التي استجلبها ، وبين ما استقر في نفوس الناس من أن الأمر شوري ، وأن الخلافة بيعة . أو أن الأمة — كما نقول — مصدر السلطة . فاحتال لنقل الملك إلى ابنه يزيد . بأن دعا الناس في حياته إلى عقد البيعة له ، فأصبح يزيد ملكاً بالبيعة التي اصطنعت له ، وإن شعر الناس بأن النظام الإسلامي قد عراه تغير خطير ، وأن هذه البيعة المفتعلة ستار لعودة الجاهلية الأولى في توريث الملك . .

ولم يحتج الملوك المسلمون — بعد استقرار النظام الملكي — إلى هذه المبايعات الصورية ، فأصبحت ولاية العهد قانوناً مرعى الجانب مرهوب السلطان وهكذا تدرج الفساد في أصول الحكم . أتى بالملوك عن طريق البيعة ، احتراماً لرأى الإسلام في تحكيم الجمهور ! ثم أهملت مشاعر الجماهير وفرض عليهم ورث المجد المؤثّل ! ثم أصبح التفكير في تحكيم الجمهور جريمة يعاقب عليها القانون . . ! وهذا مصداق الأثر الكريم : « كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفاً والمعروف منكراً . . كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف » ؟ ؟

وامتلاك معاوية للأمر ، واستطاعته تحويل مجرى الإسلام على هذا النحو ، يرجع إلى أن البشر عادة يخضعون للكبراء وأبناء الكبراء إذا احترموا الدين وكانوا أصحاب تلاف وتسامح . وقد كانت أسرة عبد شمس صاحبة الحكم والسلطان في الجاهلية . فلما دخلت الإسلام أخيراً لم تلبث طويلاً حتى استطاعت بماضيها العريق وسياستها اللبقة أن تسترجع سيادتها الأولى ثم تسخر الدين والدنيا لتدعيم مكانتها . .

وتصور مثلاً أن الأمير محمد علي وبعض النبلاء انضموا إلى الإخوان المسلمين قبل وفاة حسن البنا بسنوات قلائل انضماماً صحيحاً ، أترى أن قيادة الإخوان ومناصب الدعوة والدولة كانت تتجاوزهم إلا قليلاً؟؟

إن كرم محتدم — كما يؤكد الناس — يغالب السبق والبلاء والتضحية . ولذلك لا أعجب إذا كان علي وصحبه من أولى السبق في الإسلام يلعنون علي المنابر في ظل الحكم الأموي الوراثي الجديد . إنها طبيعة الحياة الدنيا غلبت ثم وجدت من الكتاب والشعراء والعلماء من يمشى في الركاب ويرضى بالواقع ويستكين لسير الأمور ، بل لعله يبررها ويتصيد لها الفتوى ونحن لم نعدم — من فقهاء الدنيا — من كان يثنى على الملك فاروق خيراً ، ومع معرفتهم بأنه من أحط ملوك الأرض وأغلظهم كبداً وأقذرهم يداً ، فقد أصدروا الأمر للأئمة المساجد أن يدعوا له على المنابر قائلين : « اللهم إنا نسألك أن تنصر عبدك المخلص في طاعتك فاروقاً الأول » وكان كثير من الناس يؤمن على الدعاء وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال !!

وإنه من فضل الله علينا أن رفضنا السير في موكب العبيد وأننا شئنا حرباً ضارية على الفساد الملكي وحواشيه وذبوله وظاهره وباطنه ، وجرأنا العامة على النيل منه والتهجم عليه ، ولئن كانت ثورة الجيش قد أفلحت في اكتساح هذه المساخر فبتوفيق الله ثم بما نشرنا في طول البلاد وعرضها من أفكار حرة ضد الاستبداد والفوضى ! على أنى أوجه هنا شيئاً من اللوم للأدباء — الذين لم يكتفوا بسكوتهم في معركة الحق بين الأمة وجزاريها وبين الدين ومضيعيه — بل كانوا بين الحين والحين يعرضون لدعوتنا بالنقد والرد ، والغمز واللمز .

ويريدون تحت عنوان الدفاع عن الصحابة أن يوهموا الناس بأن للوثنية السياسية أصلاً مشروعاً ، وأن توارث الملك قد سبقت به الأسوة الحسنة فيما صنعه معاوية باستخلاف يزيد !!

ومع أن جمهور المسلمين يخطيء معاوية فيما صنع . ومع أن العالم الإسلامي

قد أمسك بالفأس في يده يريد أن يجتث من ربوعه المنهوكة آخر ما أبتقت الوثنية السياسية من مآثر منكزة ..

[ومع ذلك فقد فوجئت بكتاب للقاضي أبي بكر بن العربي يجدد في هذه الأيام نشره ، وأحر ما فيه دفاع عن يزيد بن معاوية وعن تقاليد الحكم الملكي المطلق وإليك عبارات مما حوى الكتاب ص ٢٢ :

« إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى وألا يخص بها أحدا من قرابته .. فعدل إلى ولاية ابنه وعقد له البيعة .. فانعقدت له البيعة شرعاً لأنها تنعقد بواحد وقيل باثنين » ..

وهذا الكلام الذي يقوله ابن العربي فارغ لا وزن له في الإسلام ، فالعدول عن الشورى ليس عدولاً عن الأفضل بل عدولاً عن الواجب وانعقاد البيعة بواحد أو اثنين فهم منكرو دين الله !!]

ومن غرائب ابن العربي هذا تعليقه على مقتل حنظل بن عدي بقوله « فإن قيل الأصل قتله ظلماً إلا إذا ثبت عليه ما يوجب قتله ، قلنا : الأصل أن قتل الإمام بالحق فمن ادعى أنه بالظلم فعليه الدليل » !! ص ٢١٢ أى الأصل في تصرف الحكام الصحة ، والخطأ يعرض لهم من بعيد ...

وهذا قول كان ينبغي أن يظل مطموراً فما يساء إلى الإسلام بنشره في أيام توضع فيها الشرائع لقمع الحكام وإلزامهم حدود الأدب ... ولكن الإسلام المتعب من كيد أعدائه ، يقوم فريق من بنيته بنشر هذه السخافات دعاية له ...

إننا سنفرد فصلاً خاصاً بما في هذا الكتاب من أخطاء ونحذر الإخوان من أخذ دينهم بالإعمن يوثق بعلمهم وفقههم ...

فما كل قديم له قداسة ، ولا كل جديد يقابل بريية ، وقد بسطنا لهم في كتبنا سياسة الإسلام في الحكم وفي المال ، فإن كان هذا رد المعارضين علينا فما أهون الرد وأوهن النقد ...

هل الحكم الشرعي كلام فارغ...؟ (*)

لو سألتني سائل عن الصحف الدورية الحبيبة إلى ، الأثيرة عندي ، لكان أول ما يخطر بباله في الجواب عليه أنها صحيفة « الدعوة » و « المسلمون » .

ولو سألتني أن أسمي له عشرة من الكتاب هم في طليعة من أحبهم وأحترم إخلاصهم وأكبر جهادهم ، لكان من هؤلاء العشرة — الذين أرجو الله أن يكونوا من أهل الجنة — الأستاذ محمد الغزالي والأستاذ سيد قطب . وأعترف بأنني إذا وصلتني « الدعوة » فأول ما أقرأه من فصولها مقالاتها هذين الأخوين الفاضلين .

وقد صدمت في هذا الأسبوع صدمة آتني في أمتع ناحية من عواطف ، وأدناها من قرارة المحبة والطمأنينة والسعادة ، عندما قرأت لأخي الشيخ الغزالي مقاله الأخير « الأمة . . . والفساد الملكي » ، ولو غيره قالها ممن يسفهون أحكام الإسلام ، ويتعمدون تشويهه جمال ماضيه لأدركت القول معه من ناحية « حق الله » وما يجب على المسلم من الدفاع عنه والمحافظة عليه . ولكن الشيخ الغزالي — فيما قرأت له من نفثات قلمه — أرعى مني لحق الله ، وأشجع مني في الدفاع عنه ، وأيقظ مني في المحافظة عليه . ثم إنه رجّاع إلى الحق ، قوام بأحكام الشرع — يسره أن يكون تاريخ المسلمين — ولا سيما في صدره الأول — نقياً في الواقع مما يصمه به المغرضون . لذلك أصبح من الواجب عليّ أن أدير القول مع الأخ الحبيب من ناحية « حق المسلم على أخيه المسلم » لتكون يدي بيده وهما في طريقهما إلى الهدى إن شاء الله .

يقول أخى الشيخ الغزالي :

« فوجئت بكتاب للقاضي أبي بكر بن العربي يجدد في هذه الأيام نشره وأحرّ

(*) هذه الكلمة للأستاذ محب الدين الخطيب يرد بها على المقال السابق .

ما فيه دفاع عن يزيد بن معاوية ، وعن تقاليد الحكم الملكي المطلق . وإليك عبارات مما حوى الكتاب :

« إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى ، وألا يخص بها أحداً من قرابته ، فعدل إلى ولاية ابنه وعقد له البيعة . . فانعقدت له البيعة شرعاً ، لأنها تنعقد بواحد ، وقيل باثنين » .

قال الشيخ الغزالي :

« وهذا الكلام الذى يقوله ابن العربى فارغ لا وزن له فى الإسلام ، فالعدول عن الشورى ليس عدولا عن الأفضل ، بل عدولا عن الواجب ، وانعقاد البيعة بواحد أو اثنين فهم منكرك لدين الله » .

وكنت أتمنى أن يكون ما قاله الأستاذ الغزالي عن إمام فقهاء أهل الأندلس والمغرب فى عصرهما الدهبي القاضى ابن العربى قد قاله لى أنا ، ولتعليقاتى على (العواصم من القواصم) إذن لكان قوله أهوز على ، ولـكان وقعـه فى صدرى أرحب وأوسع . أما أن يقول ذلك فى إمام فقهاء عصره ، وهو الذى لو أدركه كل الذين يحترمهم الشيخ الغزالي من زعماء الإسلام وعظمائه فى هذا العصر جلسوا فى حلقاته فى مجلس تلاميذ تلاميذه ، وإن كتاباً واحداً من مؤلفاته وهو : (أنوار الفجر) لو عشت أنا وأخى الشيخ الغزالي مائة وخمسين سنة ما بلغ بنا العلم أن نترك للمسلمين كتاباً عن كتاب الله فى حجمه وجودته وغزارة مادته وسداد فهمه فيه للإسلام وتشريعاته ، فهل هذا الإمام — حتى على فرض أنه يتكلم من رأيه واجتهاده — يتناول هكذا ؟ كان ينبغى لنا أن نتأنى كثيراً وأن نفكر طويلاً وأن نبحث وندرس قبل أن نصف قوله بأنه « كلام فارغ » ، فكيف به وهو يقرر لنا حكماً شرعياً من أحكام الفقه الإسلامى استمده المجتهدون من الينابيع التى استمدوا منها سائر فروع الفقه وأحكامه ، وهو يقول لنا صراحة ونصاً : « فانعقدت له البيعة (شرعاً) لأنها تنعقد بواحد ، وقيل باثنين » .

إن هذا الذى يقرره هذا الإمام من أئمة المسلمين هو الحكم الشرعى ، قرره الذين سبقوه أو عاصروه أو جاءوا بعده من الأئمة ، وليس رأياً له هو ولا اجتهداً . ومن الكتب القريبة التداول فى أيدي الناس والمطبوعة غير مرة والتي لم يتخلف عن دراستها والاعتماد عليها أحد من المشتغلين بعلوم الإسلام أو المستشرقين كتاب (الأحكام السلطانية) لقاضى قضاة الشافعية فى البصرة والعراق الإمام أبى الحسن الماوردى ، فقد قال فى ص ٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٧ مانصه بالحرف الواحد : « فصل — والإمامة تنعقد من وجهين : أحدها باختيار أهل الحل والعقد . والثانى بعهد الإمام من قبل . فأما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء فى عدد من تنعقد به الإمامة منهم على مذاهب شتى : فقالت طائفة لا تنعقد إلا بجمهور أهل الحل والعقد من كل بلد ، ليكون الرضا به عاماً والتسليم لإمامته إجماعاً . وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبى بكر رضى الله عنه على الخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر بيعته قدوم غائب عنها . وقالت طائفة أخرى : أقل من تنعقد به منهم الإمامة خمسة ، يجتمعون على عقدها ، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة . استدلالاً بأمرين : أحدهما أنبيعة أبى بكر رضى الله عنه انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ، ثم تابعهم الناس فيها وهم : عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأسيد ابن حضير وبشير بن سعد ، وسالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم . والثانى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جعل الشورى فى ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة ، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة . وقال آخرون من علماء الكوفة : تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكماً وشاهدين ، كما يصح عقد النكاح بولى وشاهدين . وقالت طائفة أخرى تنعقد بواحد ، لأن العباس قال لعلى رضوان الله عليهما : أمدد يدك أبايعك فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان ، ولأنه حكم ، وحكم الواحد نافذ . »

وقد بسط القول فى هذه الوجوه ومصادر استنباطها ، وناقشها ، ونصر

أقواها ، إمام آخر من أئمة الفقه والعلم ، وهو الإمام أبو محمد بن حزم في كتابه :
(الإمامة والمفاضلة) المدمج في الجزء الرابع من كتابه : (الفصل في الملل والنحل)
ص ١٦٧ من طبعة مصر سنة ١٣٢١ قال :

« قال أبو محمد : أما من قال إن الإمامة لا تصح إلا بعقد فضلاء الأمة في أقطار
البلاد ، فباطل ، لأنه تكليف مالا يطاق وما ليس في الوسع وما هو أعظم الحرج ،
والله تعالى قال : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . ولا حرج ولا تعجيز أكثر
من تعرف إجماع فضلاء من في المولتان^(١) والمنصورة إلى بلادهمرة إلى عدن إلى أقاصي
المصامدة إلى طنجة إلى لشبونة إلى جزائر البحر إلى سواحل الشام إلى أرمينية
وجبل القبيج إلى اسبنجاب وفرغانة وأسروشنة إلى أقاصي خراسان إلى الجورجان
إلى كابل فما بين ذلك من المدن والقرى ، ولا بد من ضياع أمور المسلمين قبل أن
يجمع جزء من مائة جزء من فضلاء أهل هذه البلاد . فبطل هذا القول الفاسد ،
مع أنه لو كان ممكناً لما لزم ، لأنه دعوى بلا برهان .

وأما قول من قال إن عقد الإمامة لا يصح إلا بعقد أهل حضرة الإمام . . .
فهو قول فاسد لا حجة لأهله ، وهو قول في الدين عرى عن ذلك - من القرآن
أو من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من إجماع الأمة المتقدمة - فهو باطل
بيقين . قال الله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وأما قول الجبائي (إنها تنعقد بخمسة) فإنه تعلق فيه بفعل عمر رضي
الله عنه في الشورى إذ قلدها ستة رجال وأمرهم أن يختاروا واحداً منهم ، فصار
الاختيار منهم بخمسة فقط . قال أبو محمد : وهذا ليس بشيء ، لوجوه : أولها
أن عمر لم يقل : إن تقليد الاختيار أقل من خمسة لا يجوز ، بل جاء عنه أنه قال
إن مال ثلاثة منهم إلى واحد وثلاثة إلى واحد فاتبعوا الثلاثة الذين فيهم عبد
الرحمن بن عوف . فقد أجاز عقد ثلاثة . ووجه ثان ، وهو أن فعل عمر رضي الله

(١) هذه البلاد التي ذكرها ابن حزم تمثل أطراف الأمة الإسلامية التي انبسط ملكها
قديمًا في آفاق المشرق والمغرب .

عنه لا يلزم الأمة حتى يوافق نص قرآن أو سنة ، وعمر كسائر الصحابة رضى الله عنهم لا يجوز أن نخصه بوجوب اتباعه دون غيره من الصحابة رضى الله عنهم .
والثالث أن أولئك الخمسة رضى الله عنهم قد تبرءوا من الاختيار وجعلوه إلى واحد منهم يختار لهم وللمسلمين من رآه أهلا للأمانة وهو عبد الرحمن بن عوف ، وما أنكر ذلك أحد من الصحابة الحاضرين ولا الغائبين إذ بلغهم ذلك ، فقد صح (إجماعهم) على أن الإمامة تنعقد بواحد . فإن قال قائل : إنما جاز ذلك لأن خمسة من فضلاء المسلمين قلده ، قيل له : إن كان هذا عندك اعتراضا فالتزم مثله سواء بسواء ممن قال لك : إنما صح عقد أولئك الخمسة لأن الإمام الميت قلدهم ذلك ، ولولا ذلك لم يجز عقدهم . وبرهان ذلك أنه إنما عقد لهم الاختيار منهم لا من غيرهم ، فلو اختاروا من غيرهم لما لزم الانقياد لهم . فلا يجوز عقد خمسة أو أكثر إلا إذا قلدهم الإمام ذلك . أو ممن قال لك : إنما صح عقد أولئك الخمسة لإجماع فضلاء أهل ذلك العصر على الرضا بمن اختاروه ، ولو لم يجمعوا على الرضا به لما جاز عقدهم . وهذا مما لا غلص منه أصلا . فبطل هذا القول بيقين ، ولا إشكال فيه والحمد لله رب العالمين . فإذا قد بطلت هذه الأقوال كلها فالواجب النظر في ذلك إلى ما أوجبه الله تعالى في القرآن والسنة وإجماع المسلمين ، كما افترض علينا عز وجل إذ يقول « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فوجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الإمام الميت إلى إنسان يختاره إماما بعد موته ، وسواء فعل ذلك في صحته أو في مرضه أو عند موته ، إذ لا نص ولا إجماع على المنع من أحد هذه الوجوه ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأبي بكر ، وكما فعل أبو بكر بعمر ، وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكره غيره ، لما في هذا الوجه من اتصال الإمامة وانتظام أمر الإسلام وأهله ، ورفع

ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع في غيره من بقاء الأمة فوضى ، ومن انتشار الإمارة وارتفاع النفوس وحدوث الأطماع .

فهذا البحث الفقهي عليه مدار الحكم الشرعي مؤيدا بالتطبيق التاريخي في أزهي عصور الإسلام وأعظمها بركة والصقها بالينبوع الأول .

أما سائر ما ورد في أجزاء مقال أخى الأستاذ الغزالي فكان يجد عليه الجواب المقنع ، والنص الدامغ ، والاتجاه السديد ، لو أنه استوفى قراءة كتاب (العواصم من القواصم) الذى تقربت إلى ربي عز وجل بكل فقرة وبكل سطر وبكل كلمة مما علقته به عليه ، لتصحيح ما تعمد المبطلون الذين شوهاوا تاريخ الإسلام ، وقلبوا الأوضاع فجعلوا ما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير القرون » شر القرون ، وعطلوا ثناءه صلى الله عليه وسلم فأحالوه ذما وتشويهها وافتراء . وما كنت لأكلف أخى الأستاذ الغزالي بقراءة الكتاب كله لولا أنه تصدى للكتابة عنه على أنه لو لم يكن ينوى الكتابة عنه ، وضحى ببعض وقته لقراءته مرة أو أكثر لما ندم على ذلك ، وكان قلبه الطيب يمتلئ بالراحة والطمأنينة والابتهاج ، لأن ما فيه من الحقائق المؤيدة بأصدق البراهين تزيل ما فى قلوب كثير من إخوانه المسلمين من الغل للذين آمنوا ، ووثقوا إيمانهم بما امتاز به أظهر العصور فى تاريخ الإنسانية .

وأقتصر الآن على ما بادرت بتصحيحه وتحقيقه مما ذكره ابن العربى عن نصاب البيعة مكتفيا بذلك لأنه قد طال به المقال ، واعتقد أن رجوع الأستاذ الغزالي إلى كتاب (العواصم من القواصم) سيغنيه عن مواصلي للكتابة فى سائر ما تعرض له من بحوث . ومع ذلك فإنى مستعد للافاضة فى كل ما يطلبه منى هو أو غيره لإثبات أن ماضى المسلمين كان أنصع وأظهر وأجمل مما أراد أعداؤه أن يوهموه للناس .

هل هو حكم شرعي ... ؟!

من حق أستاذنا الجليل السيد محب الدين الخطيب أن نقرأ ما يكتبه بعناية وتدقيق ، وأن نتلقى رأيه باحترام وتقدير ، فإن له من دراسته الطويلة وسبقه البعيد ما يجعله إماماً في الأدب والنقد . . .

وسوف أذكر له بالإيجاب أنه — من قبل أن أولد — حمل قلمه ودافع عن بيضة الإسلام ضد هجوم الملاحدة من أذئاب الغرب المستعمر . . .

ومثلي لا يجحد حق الذين شاخوا في خدمة الإسلام ، ولا يزالون قدوة للشباب في الدأب على الدرس والتوجيه !

والأستاذ محب — إن أصاب — فهو أهل الصواب ، ومنه نستزيد علمنا بديننا وتاريخنا . . .

وإذا خالفته في فهم — وقلمنا يحدث ذلك — فكما ذكر ابن القيم : أن الهدهد قال لسليمان « أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين » وسليمان هو سليمان النبي الحكيم ، والهدهد هو الطائر التافه الضعيف . ولن أزال بعد أن أعود إلى شرح موضوع البحث — في وضعي من الأستاذ محب ، أي في موضع الطالب للعلم من شيخه الكريم !

وأريد قبل الخوض في صلب البحث ، أن أعلن انسحابي من ميدان الكلام في أحداث الفتنة الأولى . فلا أدع الكلام لعن عثمان وعلي ومعاوية ويزيد . فإن إصلاح حاضرنا المعوج ممكن من غير نظر إلى ذلك الماضي البعيد . !

ولنتحدث الآن عن المبادئ التي نستهديها في إقامة الحكم الإسلامي المنشود.

كيف ينصب رئيس الدولة؟ بالملك المتوارث أم بالاختيار الحر؟ أtestشار
الأمة في تنصيب رئيسها وجوباً أم نافلة؟ من الذى يختار الحاكم المسئول؟
وكم...؟

إذا اتضحت لنا الإجابات على هذه الأسئلة انتهينا إلى أمر نافع ، وقدمنا إلى
الإسلام ، وإلى أمته فى هذه الأيام خدمة جلّى .

إن رياسة الدولة تعنى — فى الفقه الإسلامى — الإشراف الدقيق على مصالح
الدين وشئون الدنيا ، والإسهام بنصيب كبير فى توجيه الأمة إلى تحقيق رسالتها
— إن كانت لها رسالة — ثم تحمل تبعات ذلك الإشراف والتوجيه أمام
الله والناس !

وفقهاء المسلمين يعدون الرياسة للأمة والدولة أو ما سموه الخلافة العظمى ،
أخطر المناصب وأشرفها ومن البديهى أن يختار لهذا المنصب الضخم أليق الناس
له ، ومن البديهى كذلك أن يعتبر حصره فى سلالة رجل معين خرافة ضخمة ،
خرافة تصادم الفطرة والعقل ، وأصول الإسلام وفروعه ومصالح الجماعات والأفراد ،
فإن توريث الزعامة أو الخلافة أو القيادة أو الحكم أو الملك ، إن ذلك كله جرى على
عادة المخرفين فى تقديس الأساطير ، وكما كان المغفلون يصنعون بأيديهم صنما
ثم يعبدونه من دون الله — وهذه هى الوثنية الدينية — كذلك صنع المغفلون
رجلا أو طفلا اعتبروه فوق الخطأ ، وقدسوه وهو يبول فى لفائفه — وهذه هى
الوثنية السياسية .

وليس يهمنى أن نعرف متى ولا على يد من ؟ تسربت جرائم هذه الوثنية
السياسية إلى بلاد الإسلام ، وإنما يهمنى إنقاذ الدين ومثله الفاضلة وأمته المنهوكه
من سيطرة هذه الوثنيات التى لا يزال لها سدة ومريدون وأتباع . . .

إن العالم يحترم « بانديت نهرو » الزعيم البرهمى الذى اختاره الهنود رئيساً لهم

ويستمع إلى كلماته باهتمام وبصر . ولكنه إذا نظر إلى أمراء العرب والمسلمين — وهم السلالات التي تتوارث المال والحكم — رمقهم بازدراء وسخرية ، وازدرى معهم مقومات الإسلام والعروبة كلها ، وقصة الملك فاروق مثل لا شذوذ فيه وكذلك أحزابه من ورث الحكم في بلاد الإسلام المنكوب .

وما بد — من إقصاء هذه الوثنيات السياسية — ورد الأمر إلى جمهور المسلمين ليختار الأرشد لقيادته ، بعيداً عن هذه الأسر المتنبلة الدعوية الكذوب . . .

ورد الأمر إلى جمهور المسلمين ليس نافلة يتطوع بأدائها ، إذ الشورى وفسادها الواضحة ليست منحة من حاكم ما ، يهبها إذا شاء ويستردها إذا شاء ، بل هي حكم الله ومنطق الفطرة ، ونحن لا نفهم أبداً سلطاناً لبشر — حاشا أنبياء الله — يفرض به إرادته على الناس ، والأنبياء أنفسهم خارج دائرة الوحي لا سلطان لهم على غيرهم إلا بالعقل والإقناع .

فمن هذا الذي يعطى نفسه حق المضي بأمور الناس دون الرجوع إليهم ؟ ومن أولئك الذين يذلون لهذا الوهم ؟

أعرف أن هناك فقهاء أفتوا بأن الشورى لا تلزم ، وفسدوا فتاويهم هذه في كتب الدين . بيد أننا في حل من أن ننبذ هذه الفتاوى المغرضة ، لأنها كتبت زلفى إلى الملوك وحملت على الإسلام حملاً . والإسلام منها برئ . . . ! !

إننا — نحن الذين اكتوينا بنيران الاستبداد في دمائنا وأموالنا — نكره هذه الفتاوى ونتهم أصحابها . ولا يستغربن أستاذنا محب الدين الخطيب أن ننكر على ابن العربي قوله بأن العدول عن الشورى عدول عن الأفضل ! ! وكذلك نظرت إلى توريث الخلافة على أنها مسألة لا ريبة فيها ! ! مع أنها خروج على

سنة الخلافة الراشدة يندرج في تحذير الرسول « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » .

وإذا رفضنا مبدأ توريث الحكم ، وأوجبنا أن يكون أمر المسلمين شورى بينهم ، فهل يتصور عاقل أن يتم تنصيب الخليفة الأعظم ببيعة رجل أو رجلين ؟ ؟
إننا لو سائرنا هذا الفرض لوجدنا أنفسنا — في الأمة الإسلامية التي تبلغ أربعمائة ألف ألف — أمام ألف ألف خليفة تتم البيعة لهم في وقت واحد .
وبطريقة مشروعة وهذا ما اعتبرناه كلاماً فارغاً . ! !

والصورة التي تتجه إليها الفطرة ابتداءً أن جمهور المسلمين ينتخب رئيسه إما عن طريق الاختيار المباشر كما يحدث الآن في الولايات المتحدة ، أو عن طريق الهيئات التشريعية المنتخبة كما يحدث في فرنسا مثلاً . . .

وما حدث في الصدر الأول لا ينقض هذه القاعدة . وقبل أن نبين هذه الأحداث نلفت النظر إلى ما يقع في عصرنا هذا من شئون تبدو — إذا لم تعرف ملابساتها — غامضة متناقضة .

خذ مثلاً أحوال إنجلترا وأمريكا وألمانيا في الحرب الأخيرة ، إن « هتلر » الذي انتخب رئيساً لألمانيا عن طريق الشعب استخلف بعده « جورنج » !!
و « روزفلت » الذي اختاره الأمريكيان رئيساً لهم جاء بعده « ترومان » بالطريق الآلى ، و « تشرشل » ظل حاكماً إنجلترا دورتين برلمانيتين وعطل — في إطالة حكمه — الانتخابات العامة .

هل السبب في ذلك أن مبدأ الشورى في تنصيب الحاكم أهدر وأن سلطان الفرد في إنفاذ مشيئته قرر ، وأن هذه الدول خرجت على دساتيرها المعروفة ؟ ؟ ؟
كلا كلا . ولكن هذه الدول كانت تخوض حروباً طاحنة عبأت لها كافة

ما تملك من أنفـس وأموال ، فمن السفه أن تنشغل بإجراء انتخابات وتجديد حكومات وهي مشتبكة في حرب حياة أو فناء . . .

وعلى ضوء الملابسات التي أحاطت دولة الخلافة ننظر إلى سلوك الحكام الأولين .

لقد اختير أبو بكر صاحب رسول الله خليفة له ، وبدأ إعطاء الأصوات له في السقيفة على نحو كريم واضح لا إكراه فيه ولا احتيال ، ولم يقم أمامه منافس تلتف حوله الجموع وينخرق به الإجماع . فصح استخلاف أبي بكر ! وتضافرت كفايته الخاصة وإيثار الأمة له على السير بالإسلام قدما ، فكان عصره امتداداً لشعاع النبوة .

ثم اندلعت الحرب بين المسلمين وبين الروم والفرس جميعاً أى بين المسلمين وحدهم ، وبين قوى الدنيا كلها ، ففعل أبو بكر ما فعلته الدول العظمى في عصرنا هذا . إذ جمع الأمة على رجل معروف ، يتولى قيادها في أعقد الأزمات وأخطر الجبهات ، وصدف عن إنشاء بيعة عامة للخليفة الثانى ، لا يهدم مبدأ الشورى ولا ليضع قاعدة تقول : إن اختيار الخليفة يمكن أن يتم بصوت واحد ! كما يقول بعض الناس ويسمون قولهم هذا فقها !!

وأبو بكر لم يختار ابنه ، ولم يعل إلى رجل مغموص ، ولم يفاجئ المسلمين بمن يرشحه ، وإنما وطأ له الأكثاف ويسر له القبول . . .

وما صنعه عمر في استخلاف من بعده قريب من صنيع أبي بكر . فقد ترك أمانة الحكم في وصاية ستة نفر — هم خيرة أصحاب رسول الله — وهؤلاء الأوصياء على الخلافة المسئولون عن توجيهها إلى أهلها ليسوا جماعة من سواد الناس حتى يقال أن اجتماع خمسة أصوات على واحد يرشحه للخلافة العظمى ! إذا تم اختيار عميد كلية بخمسة أصوات يفهم منه أن عمادة كلية ما تتم بخمسة رجال ولو من عرض الطريق ؟ ؟ . . .

إذا تم انتخاب البابا بعشرين كردينا لا يفهم منه أن عشرين نصرانيا ينتخبون رئيسهم؟؟ إن هذا باطل . ولا ينبغي أن ننسى أن عمر لم يدع العامة إلى انتخاب رئيس لهم للملابسات التي ذكرناها لك وهي اشتباك الجيوش الإسلامية في قتال اتسعت ساحته حتى شمل المشرق والمغرب . ومع ذلك فهو لم يتجه إلى توريث ابنه حكما ، ولم يصنع إلما تصنع الدول العريقة في ديمقراطيتها حين تواجه أمثال هذه الأزمات . . .

وقد نقل الأستاذ محب عن ابن حزم هذا الكلام « . . . أما من قال إن الإمامة لا تصح إلا بعقد فضلاء الأمة في أقطار البلاد فباطل ، لأنه تكليف بما لا يطاق ، وما ليس في الوسع وما هو أعظم الحرج . والله يقول لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . . » . هذا كلام لا نسلمه لصاحبه !!

من أين يجيء هذا الحرج؟ يجيء — كما يرى ابن حزم — من اتساع رقعة البلاد وصعوبة التنقل فيها لتعرف آراء أهلها !!

وهذا الكلام إن صح النظر فيه قديما فلا يجوز النظر فيه الآن . فإن الولايات المتحدة والروسيا والصين تقيم نظمها على انتخاب رئيس الدولة ، وهي تضم أعدادا من السكان مثل العرب والمسلمين أو أكثر .

وإذا كان ابن حزم يريد بهذا الحرج المتوهم تسويغ قيام النظام الملكي باسم الإسلام فكلامه باطل ، ونحن لا نترك قاعدة الشورى في اختيار الحكم لأمثال هذه التمحلات وليس من الشورى البتة أن يختار الخليفة الأعظم بصوت واحد أو بصوتين ، فما يكون الاستبداد إذن؟؟؟

إن ابن حزم يقرر في كلامه الحكم الفقهي المعروف من أن عمل الصحابي ليس حجة حتى يؤيده نص من كتاب أو سنة . ونحن نقول : إن رأى ابن حزم كذلك لا حجة فيه لأحد ما لم يؤيد بنص من كتاب أو سنة ، فليس رأيه أرجح من رأى الصحابة .

وما ادعاه من الإجماع على انعقاد الإمامة العظمى بصوت واحد ، وما رتبته
على ذلك من أن الخليفة الحى يعهد بعد موته إلى إنسان يختاره هو نفسه
إماماً للناس . . .

هذا كله ليس حكماً شرعياً يجب علينا قبوله وتوقيره بل هو فهم لمجتهد غير
معصوم ، وابن حزم له صواب كثير وله خطأ كثير ، وهذا الكلام له مما يرفضه
من آرائه ، بل إننا نحسب أنه فاته التوفيق فى تصوير الإسلام هذه المرة ! ولماذا
لا نكون أكثر صراحة ؟ فنقول : إن عرض الحكم الإسلامى فى هذه الصورة
القائمة ، صورة حاكم يفرض إرادته على اليوم والغد ويستجلب قبل موته الحاكم
الذى يرتضيه من بعده . . . هذه الصورة هى خطأ مزدوج فى فهم الإسلام والدعاية
له ، وهى انقلاب من قاعدة الشورى التى شرعها الله وفزع إليها العالم بعد ما آذته
كوارث الماضى البعيد والقريب .

وخير الإسلام وأهله أن تدفن هذه الآراء الشاردة .

الشورى ركيزة الحكم الصالح

الشورى ركيزة الحكم الصالح فى أى عهد ، وفى كل بلد ، وقد تقرر هذا المعنى فى أذهان الناس من فجر الخليقة إلى عصرنا هذا .

وقد احترم الإسلام الشورى وما كان له أن يفعل غير هذا ، وبني عليها النبى العظيم حكمه ، وكذلك فعل الراشدون من خلفائه ، ولما رأى الرجل الصالح عمر ابن عبد العزيز أن الحكم صار إليه بعيدا عن رأى المسلمين ، كره أن يفتات على جمهورهم ، فخلع البيعة التى ورثها ورد إلى الأمة خيارها ، فرمت الأمة بزمامها بين يديه عن طواعية ومشئت خلفه راغبة لا راهبة .

ثم مرت على المسلمين وعلى غيرهم أعصار درست فيها معالم الشورى وانهدمت قواعدها ، والتوى المستبدون بمصاير الشعوب المستضعفة ، وأكروهوها على الخنوع ، وحملوها أثقالا من أطماعهم الآئمة ، وقد ظلت الأرض تميد قرونا طوالا تحت وطأة ذلك النفر الغاشم ، حتى شرعت تتخلص منهم فى العصور الحديثة .

(وإنى اعترف بأن الغرب كان أسبق منا فى نهضته وأسرع فى يقظته ، وأنه تمكن من إزاحة الحاكمين بأمرهم عن طريقه ، ثم رد إلى الشورى قيمتها المسلوبة ووضع لذلك دساتير حسنة .) . وها نحن أولاء نقتبس عنه نظم الحياة النيابية ، ونعيد للأمة سلطانها فى توجيه الحكم ورقابة الحاكمين .

ومن أيام قلائل كانت ليبيا « المستقلة » تجرى انتخابات عامة لتدعيم كيانها الجديد على نحو من كفالة الحريات ، وإقرار الحقوق .

ومع ما يشوب الأحوال هنالك من غموض وريبة فإن حظ هذا القطر الشقيق أفضل من أقطار إسلامية أخرى لم يعرف لها بعد دستور ، ولم تجر فيها إلى اليوم انتخابات . . . وليس على المسلمين حرج فى أن ينقلوا من أنظمة الحياة عند غيرهم

ما يتلاءم مع المبادئ التي تمهدت في دينهم ، والشورى عندنا حقيقة مجملة فإذا وجدنا من الفروع ما يضبط اتجاهاتها ويدنى ثمراتها فلنحرص عليه سواء أكان من نتاج أفكارنا أو من أفكار الآخرين ، فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث تقع له . لا يبالي من أى وعاء خرجت .

غير أن هناك ملاحظات لا بد من ذكرها حتى لا يكون تقليدنا لغيرنا تقليداً أعمى ، فإن رأى العام في إنجلترا مثلاً قد بلغ من النضج العقلي والمرونة النفسية ما يتيح له خوض سلسلة من المعارك الانتخابية دون أن تصاب عواطف العامة فيه بأذى يذكر ، ودون أن تصاب صفوفهم بأذى تصدع ، وتضافر الدولة والأمة على جعل الانتخابات صورة صادقة لآراء الجمهور بلغ حداً من الكمال يغبط عليه هؤلاء القوم .

أما الأمور في الشرق العربي فعلى العكس ، إذ توجد لدينا جماهير غفيرة تحتاج إلى جهد مضاعف من التربية والتعليم حتى تحسن فهم واجبها وتحسن أدائه على وجهه الصحيح ، وهذا العيب ليس خطراً بالغا ، ولا داء عياء ، وليس هو — لو أنصفنا — مثار الشكوى من الاضطرابات التي تعصف أحياناً بالأوضاع المستقرة .

ففي مصر دستور يعد من خيرة دساتير العالم لو أحسن استغلاله ، حصلت عليه الأمة في أعقاب ثورتها من ثلاثين عاماً وكان من الممكن أن يكون هذا الدستور محور حياة آمنة عزيزة لو خلصت النيات في إبقائه وصيائه . . ولو أن الذين فشلوا في إقناع رأى العام باحترامهم وإعطاء زمامه لهم صابروا الأيام وعاودوا الكرة ، ونزلوا على حكم الأمة أولاً لنزلت الأمة عند رغبتهم أخيراً ولما كتبهم أمرها عن إجلال وإعزاز .

ولكن النفر الذين انصرف عنهم الأمة في انتخابات حرة ، قرروا أن يغتصبوا مشيئتها وأن يشقوا كلمتها فجاء وزير فالغى الدستور القائم ، واستبدل به دستوراً شامها ومجلساً مزيفاً منذ ربع قرن وتآلفت من قبل ومن بعد أحزاب تبني

وصولها إلى الحكم على تزوير الانتخابات ، وتحقير الأمة أمام نفسها وأمام العالم أجمع . . . وهي لا تعرف الدستور القائم إلا قصاصة ورق وقد جربناها في الحكم وبلونا أعمال رجالها فما زادتهم الأيام في أعيننا إلا ضعة « وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .

واليوم تستيقظ هذه الأحزاب من خمول ، وتتنادى بضرورة انتخابات جديدة لأن الأحزاب التي حُرمت لذة الحكم — يسيل لعابها إليه شوقا — .

والحكم في الشرق لذة لا لدعة . ونحن نعرف خبيثة هذه الدعوة فإن القلة التي لم تتول الحكم يوما إلا بالحديد والنار ، والتي لا تذكر الأمة لها إلا إقامة المنافي واختطاف الأحرار تريد أن تكرر المهزلة القديمة ، وأن تعود إلى الحكم من الأبواب الخلفية التي يدلف منها للصمصام .

وهذه الصيحة النابية تحدث في الوقت الذي اجتمعت فيه الكلمة على مطالب محددة وأهداف واضحة . . .

ونحن ننصح الهازلين أن عقبي اللعب بالشعوب ستقع على إمام رأسهم وأن جرأتهم على أمتهم إن نجوا من عقابها أولا فسيؤخذون بها أولا وآخرا . « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » .

في أطوار الدعوات

أرأيت إلى هذه المبادئ المنتشرة يَحْتَشِدُ حولها معتنقوها ، وهذه المذاهب الحاكمة تمسك بالسلطة في أيديها ، وتنفذ بالقوة ما تريد ؟

إنها لم تولد في ميدان الحياة العامة على هذا النحو المكتمل ، بل وصلت إلى أوضاعها الأخيرة بعد مراحل متناسقة وأطوار متلاحقة .

لقد بدأت فكرة ، ثم ارتقت إلى عقيدة ، ثم استحالت إلى نظام . وهذه السلسلة — من فكرة إلى عقيدة إلى نظام — قريبة الشبه بمظاهر الشعور التي قررها علماء النفس ، وهي الإدراك والوجدان ، والنزوع .

وينبغي لمؤرخي الرسالات وحملة الدعوات أن يلاحظوا هذه الأدوار التي تجتازها المبادئ والمذاهب ، حتى يواجهوا كل دور بما يستلزمه من إعداد خاص .

وعلى ضوء هذه الملاحظات سننظر إلى جملة من النصوص والأحكام جاءت في القرآن الكريم ، وهو الدستور الأول للرسالة العظمى التي اضطلع بأدائها خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله .

واضح أن الإنسان إذا عُرِضَ عليه اعتناق منهاج ما ، فإن أول ما يفعله ، أو ما يجب أن يفعله ، هو أن يستقبل هذا العرض بعقله ويحيل فيه فكره ، فإما قبله وإما رفضه ، وهذا ما طلبه القرآن الكريم من المشركين : « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

والتفكير المطلوب ، هو تفكير الدارس المحصن الذي يقلب ما أمامه على وجوهه الممكنة ليكتشف الحق من الباطل ، ولميز الخبيث من الطيب ، ومن ثم استنكر القرآن على جمهور المشركين أن ينجحوا إلى الخرافات في تدينهم ، وأن

يبتعدوا عن مناهج المعرفة الصحيحة « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ؟ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . »

ومرحلة التفكير هذه ، تعتمد على التأمل طال أو قصر ، وعلى افتراض الصدق والكذب ، ولما كانت النفس خالية — قبلاً — من الحكم على ما ترى فإن تشككها فيه حتى تستبينه أمر طبيعي ، والأصول التي قامت عليها الدعاية للإسلام لم تتجاهل هذا الواقع بل توقعته ، ولذلك قامت على هذه الآية المحكمة « أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . »

وختام هذه الآية يشير إلى أن الله وحده هو العليم بأهل الهدى وأهل الضلال ، فهو يؤكد لإحسان الدعوة وإحسان الجدل عنها والجدال مع خصومها ، إذ أن تحويل الناس عما ورثوا أو ألفوا يحتاج قدراً كبيراً من الحكمة والخبرة بطبائع النفوس ، وليس معنى خطأ الإنسان في رأى ، أو اختلاط الأمور عليه أنه شخص فاسد يستحق المطاردة والتجامل والعنف أول ما يستحق ! .

وقد قرر الإسلام مبدأً للحرية العقلية لتكون لكل امرئ الخيرة فيما يأخذ ويدع ، والإيمان الذي يولد في هذا الجو يولد سليماً كريماً لا غبار عليه ولا حرج فيه .

ودعوة القرآن إلى التفكير والنظر كما شرعت لتكون أساس اليقين فهي كذلك مشروعة لتكون سياج اليقين وسر بقاءه على تطاول الأيام . إنها توقظ الغافل حتى يذكر ، وتصون الذاكر حتى لا يغلبه النسيان فيرجع إلى غفلته الأولى ! .

كالرجل يتناول الدواء إن كان عليلاً ليصح ، وإن كان صحيحاً ليقوى . وقد أمر الله المشركين أن يفكروا وينظروا ويتدبروا ليتكون لهم من هذا كله إيمان حق ، فقال : « قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . » .

« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ،
وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ . . . » .
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . » .

وكما توجهت هذه الآيات إلى المشركين لتكشف الغطاء عن قلوبهم ، وتزيح
الغشاوة عن عيونهم ، وتثير لديهم مشاعر التيقظ حتى يعرفوا ربهم ورب العالمين ،
توجهت أيضاً آيات مشابهة إلى المؤمنين لتزيد دلائل الحق في نفوسهم ، وتوثق
صلوات المعرفة والتوجه إلى الله : « إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ؟ » .

إن الأخذ والرد والبحث والنقد من سمات هذه المرحلة الأولى ، مرحلة التفكير ،
بيد أن هذا التفكير القلق لا بد أن يصل إلى نهاية يستقر عندها ويهدأ العقل بعدها ،
إذ من الحق أن نضع الحقائق جميعاً موضع شك وبحث إلى آخر الدهر .
خذ مثلاً مبدأي التوحيد والتثليث في الألوهية ، إن الرجل الخالي الذهن قد
يفكر فيهما حيناً ، وقد يفاضل بينهما في نفسه ، ومهما طالت أو قصرت المدة التي
يستغرقها هذا التدبر ، فهو لا محالة منته إلى أحد الأمرين ، إما الإشراك وإما التوحيد ،
أي أن التفكير العائم سيرسو في القلب عقيدة راسخة ، كفراً كانت أو إيماناً .. !
وعندما تتحول الفكرة إلى إيمان لا يكون عند صاحبها مجال للشك فيها
أو لإعادة النظر في بحثها ، وهذا لا يعني استغلاق الفكر دون أي جديد ، ولا انتهاء
الحرية العقلية . وانسداد باب النقاش أبداً . كلا .

غاية ما هنالك أن المرء عندما تشرب روحه عقيدة ما تصطبغ نفسه بلونها وتمتزج
بمشاعره بمعناها ، ويقيس صلاته بالأشخاص والأشياء على ضوءها ، ويمتد به العمر
فيكبر وتكبر عقيدته معه ، ثم تدعمها التجارب وتصلبها السنون ، فإذا تكلم
عنها فليس كلام المحايد عن أمر لا يأتيه له ، بل كلام المعنى بما يشغله .

وهو قد يناقش غيره ، فيشرح بوضوح ما عنده ، ويبسط الدلائل التي عمرت باليقين قلبه ، ويفند الشبه التي قد توجه إليه ، ويستمع إلى الاعتراضات والافتراضات ليدحض ويشرح ، كالمدرس الذي يفهم تلامذته حقيقة علمية مشرقة في رأسه ، فهو يتلقى أسئلتهم وحدثهم بثقة العالم ليكشف الغماء ويزيل الخفاء .

بيد أنه لا ينسى — وهو يحاور — أنه يحمل حقيقة راسخة لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ولهذا المعنى ظواهر يجب إثباتها ، ونسوق هنا مثلاً لها ، فالقرآن الكريم يوجب — وقد تحولت الفكرة إلى عقيدة — أن يعتز صاحبها بها ، وأن يتعصب لها ، وأن يرفض النيل منها والزراية عليها من الساخرين والمتهكمين « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفروا بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذن مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » .

ولئن كانت هذه حقوق العقيدة المرتبطة بأعلى المبادئ إنك لتجد المسوغ لهذا المسلك من طبيعة الاعتقاد الخاطيء في الجانب الآخر .

ذلك أن الكفر الذي بدأ رأياً عارضاً ثم تحول عقيدة جازمة قد حلا في عيون أصحابه ، وقامت عليه حياتهم . وتوثقت به صلاتهم ، حتى أصبح في عيونهم كل شيء . وانظر إلى تصوير القرآن لحياة أولئك المبطلين وآمالهم : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ، ويسخرون من الذين آمنوا . والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ... » « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ، كذلك زين لكل أمة عملهم ... » .

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه ! » .

والواقع أن الرأي الذي تحسبه خطلاً وتأبى القول به قد يجعله غيرك دعامة تفكيره ، ومحور أعماله ، ثم لا يعتنقه فحسب ، بل يدعو إليه في حرارة ويستमित في الدفاع عنه ، ويرى أنه هو وحده الحق المبين ، وأن ما عداه هو الضلال الشنيع ! إن المبدأ الشيوعي الذي كان — من سنوات — فكرة تستقتل في سبيل الحياة وتسعى جاهدة لإثبات جدارتها بالبقاء قد أضحى — في بعض الأمم — عقيدة يرتكز فوقها نظام ، وتحمل رسالتها دولة .

فإذا تركت هذا الجانب من الأرض — حيث لقيت الشيوعية نجاحاً — وجدت الشيوعية في أرجاء العالم الرأسمالي وهما تطارده التقاليد والقوانين ، وتعهده رذيلة أو خيانة أو ارتداداً ، وهذا الذي تراه في الفلسفات المدنية البحتة ترى مثله بين أتباع الديانات السماوية المختلفة ، فاليهود يصرون في أنفسهم على أن عيسى لقيط زنيم ، ويرمقون مؤلهيه ومكرمييه كليهما بنظرة ملؤها السخرية ، ولا تريد لهم الأيام إلا بقاء على ما ادعوه واعتمدوه . . .

وعندما يتحول الخطأ إلى عقيدة ضاربة الجذور في أعماق النفس ، وعندما تتحول هذه العقيدة إلى أساس متين لنظام يفرض تعاليمه على المجتمع ، وعندما يكون التعرض لهذه العقيدة تعدياً على النظام ، وتحدياً للسلطة القائمة ، عندئذ يتوسل الحق إلى بلوغ أغراضه بطرق أخرى إلى جانب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذه الطرق ليست عدواناً ، بل حداً لعدوان وكسراً لطغيان ..

فالرجل الذي شاخ وهو يدرس الخطأ ويدعو إليه ، ويريد أن يستمد من شيخوخته وقاداً يدعم به الباطل ، ومن علو منصبه في المجتمع هالة يحيط بها الأكاذيب — هذا الرجل لا يرى في الإسلام حرجاً من تجريح مكانته وخذش منزلته ، لا إهانة لشخصه ، بل إهانة للضلال الذي يمثله ، ويجتهد في الإبقاء عليه .

وهذا هو سر تعنيف القرآن الكريم لبعض الطوائف والأشخاص ، وحملته

القاسية عليهم .

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سِيَاحَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » . . . !
« كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنَ بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فليَدْعُ نَادِيَهُ ،
سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » ، « مِثْلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ
يَحْمِلُ أَسْفَارًا » . . .

« وَآتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ
مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ،
فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ : إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ . . . » .

وهذه الآيات كما أنها قمع للباطل في أشخاص الكبار من مثليه ، هي كذلك
تجريء للناشئة من المؤمنين ، حتى يشبوا وليس في نفوسهم إلا إجلال الحق مهما
هانت منزلة أصحابه ، وازدراء الضلال مهما علت مكانة ذويه .

وهذا أسلوب من التربية والتوجيه تنهجه الدعوات في كل زمان ومكان ،
فلا غرو إذا اتبعته رسالة القرآن ، والله عز وجل أعرف بعباده وما يخاطبون به .
« وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ » ، إن الله
عزيز حكيم .

إن انتهاء الفكرة العارضة إلى نظام راسخ يتيح لها في الحياة العامة حقوقاً
شتى ، فالبرامج التي توضع للتلامذة في مدارسهم تقوم على تشقيف الطلاب
بأصول هذا النظام وفروعه ، وتتعهدهم وهم ناشئة غضة حتى يكبروا وهذا النظام
جزء من نفوسهم وعقولهم !

والتقاليد التي تسود المجتمع وتتحكم في سلوك الأفراد وتلزمهم مقاييس خاصة
في فهم التقدم والتأخر ، والرفعة والضعفة ، والاستقامة والشر ، وهذه التقاليد تقوم
هي ، الأخرى على احترام النظام السائد وتوجيه الجمهور إلى الاستكانة إليه بل
إلى التسابق في تقديسه !!!

ولو أن رجلاً من غمار الناس سرق أمة من الأمم — كما فعل محمد علي باشا حين سرق مصر ، وكما يفعل غيره من الملوك الذين يسرقون أقطاراً شاسعة وخلائق غفيرة — ثم استقر الأمر للسارق ، لأمسى وهو بين عشية وضحاها صاحب جاه عريض وجلالة كبرى ولأمسى أهله أمراء ونبلاء تنحني لهم الهامات !!!

فلا عجب إذا كانت الدعوات المعارضة لمثل هذه الأوضاع المستقرة — تقرن بين النصيح والوخز ، وبين الهدى والإيحاء .

وعذرها في ذلك بين . فالفرق كبير بين خطأ تافه وبين خطيئة مبسوطة السلطان . .

ونحن نرى القرآن الكريم يشرح الأدلة على البعث مثلاً بأسلوب هادئ في سور كثيرة ، بيد أن ذلك لا يمنع من تجريح مجتمع أقام كيانه على الكفران باليوم الآخر ، وأشاع في نواحيه الإباحية والإلحاد « إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَّهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ، أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هُمُ الْآخَسِرُونَ . وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » .

على هذا النحو ينبغي أن نفهم أسلوب القرآن الكريم في العنف والالطف وخطابه المتنوع لصنوف الناس .

دواء مسموم

من المؤسف أن تشفى الأمة الإسلامية من علة لتقع في علة أخرى . كان إصلاح شئونها أصر عز على الأساة والرحماء !! إننا صحونا على هذا العصر من أعصار الإسلام فوجدنا أمره عجبا . حكم نقضت عراه ، فالرجال الذين يجلسون في دسته ليسوا ولاية رشد ولا هداة قصد ، بل نفر من الأفاكين لو نكبت بلاد الكفر بأمثالهم لضجت من آسيهم ومعاصيهم ، ولكنهم مع ذلك حكام الإسلام ومسيرو دفته !!! .

وجماهير غريقة في الجهالة السائدة ، تعيش في الخرافة ، وتتعلق بقشور من الدين لا تزن عند الله شيئا ، وتنقاد في الجبال التي وضعها الحكم الفسقة في أعناقها فهي تنجر إلى مصارعها دون وعي !! وبلغ السوء مداه عندما أطبق الظلام على الإسلام وأهله فسقطت خلافته الكبرى — أو ما يسمى في العرف خلافة — وهجمت الصليبية الغربية على أرجاء الوطن الإسلامي الكبير . فسارت فيه كما تسير الحربة السنونة في العجين الرخو ، ما لقيت عائقا يردّها عن نفاذ ولا حرارة تمنعها من الازدراء .

ولم تخل البلاد البائسة من رجال لهم دين وخلق وإباء ، كرهوا هذا المصير القاتم ، ورفضوا التسليم به ، وشرعوا ينفثون روح المقاومة في كل قطر ، ويؤرثون نار الجهاد لاستنقاذ أنفسهم وأمتهم من هذه الوهدة الشائنة .

وقد نجحت الثورات التي اشتعلت ضد الاحتلال الأجنبي ، وضد الفساد الداخلي ، وأحرزت نصراً كبيراً في ميادين شتى .

ونستطيع القول بأن عصر التراجع والانهيار قد انتهى ، وأن المسلمين — وإن لم يستردوا كثيراً من خسائرهم الفادحة — إلا أنهم أفلحوا في وقف هذا الخسار المتلاحق أو في تخفيف ويلاته .

وزيد أن نؤكّد حقيقة خطيرة في هذا المجال ، أن هذا التحول الحسن يعود قبل كل شيء إلى يقظة الإيمان الصحيح في القلوب ، وعودة هذا الإيمان إلى صفوف الجماعة في صورة الاتحاد الذي يربط الصفوف ، والتضحية التي تساند الحق ، والإخلاص الذي ينزه الغاية .

ولولا لهفة المسلمين على استنقاذ بلادهم في تركيا ، وسيل المساعدات التي تقدم بها الأخيار مدفوعين بحب الله ورسوله إلى معاونة الجيش التركي في قتاله المرير للحلفاء المغيرين — لولا ذلك لما استطاع مصطفى كمال أن يفلح في هزم اليونان وأنصارهم ، ولا أن يطهر الأناضول من وبائهم .

ولكن القائد التركي نسي أو تناسى فضل القوى التي أمكنته من الفوز في أعصب الأزمت ، فما لبث أن تنكر للإسلام ، وخان الأمة التي التفت حوله ، فصنع بها وبدينها ما نعلم .

أنا لا أنكر أن الخلافة كانت فاسدة وأنها ارتكبت في حق المسلمين أجمعين ما تستحق به الشنق ، ولكن الذين حاربوها وأعانوا مصطفى كمال على إسقاطها لم يفعلوا ذلك ليذهب الفساد ويحىء بعده إلحاد (!) بل هدموها ليمحو عن الإسلام وصمة حكم جائر قام باسمه ، ولينشئوا دولة أرضى الله وأخشى لعقابه وأرجى لثوابه من الدولة التي بادت .

إن عناصر السخط على الحكومة الفاسقة والملك العضوض ، لم تتوفر في بلادنا ثم تتحول إلى عراق رهيب إلا بين الغاضبين لله الآسفين على دينه وعباده ، ولم يحدث في أرجاء الشرق الإسلامي أن استطاعت الفلسفات المجردة والمبادئ الخيالية إسقاط وزير واحد بله حكم ضخم ، إنما كان تفجير الوعي الإسلامي الحر هو الزلزال الذي طاح بالظالمين ، وثل عروشهم . مهما كسى هذا الوعي من ألبسة سائرة ولقب بأسماء مستعارة .

والملك فاروق ظل يبسط يديه بالأذى لأهل هذا الوادي طرا ، فما خشى

منهم شيوعيا ولا قوميا ، ولا اكثر لفتاف هؤلاء وصياح أولئك ، لقد خشى
لونا واحدا من التفكير وصنفا خاصا من الناس ، خشى موجة من الإيمان الحق
ترتفع إليه ثم تطويه في ثبجها فلا تبقى له رسما ولا وسما .

والواقع أن كبار الملاك ومحترفي السياسة وصنائع الاحتلال ومعتادى
الظلم لم يجدوا مذاق الحرب المرة إلا في صراعهم مع الإخوان المسلمين . وقد
قتل في هذا الصراع نفر من قادتنا وإخواننا وذهبوا ضحايا البطش والإرهاب .
إلا أن وطأة الإخوان لم تخف ، وظلت الحرب دائرة الرحي يصلها الجبارون
يوما بعد يوم ، حتى تجرأ عليهم العامة فأطلقوا ألسنتهم فيهم إذ عجزوا عن منالهم
بأيديهم . ولعل من آثار هذه الجرأة أن الملك الذي كان يدعى هو وأباؤه أصحاب
جلالة انطلقت الجماهير في أيام معلومات تذكره وأمه فترتفع صيحاتها بلعن البغاة
والبغايا ، ومن ذلك اليوم عرف أن نار الطاغوت إلى رماد . . . !!

وقد آتت اليقظة الجديدة أولى ثمارها بطرد الملك الداعر ، وشفيت صدور
قوم مؤمنين بهذا المصير العادل . ولله وحده المنة فلولا عونه الأعظم لبقينا في عهد
سفه وعهر ليس ليله صبح . . .

على أننا في أوائل الطريق لما نزل نتحسس خطانا ، وأحب أن أذكر بأن
القوى التي انتصرنا بها يجب أن نستصحبها في سيرنا ، أعني قوى الإيمان بالله
والاستمداد منه والاستنارة بتعاليمه فذاك وحده ضمان النجاح المطرد . . .

إن بعض السفهاء يحسب أو يود أن تنتهى الثورة المصرية بما انتهت به
الثورة التركية ، وهيئات هيئات . . . !!

فإن هذا الصف الثائر لن يخون بلاده وتاريخها ورسالتها كما فعل ذلك
مصطفى كمال عندما تنكّر للإسلام وكفر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر . . .

ونحن الذين انتصبنا للذود عن حياض ديننا سوف نتفانى رجلا رجلا قبل
أن يغتال الإلحاد أرضنا ويحقر مقدساتنا . . . وقد يكون الكائدون للإسلام

مخدوعين في تقدير مقاومته لما يراد به فإن يكن القوم قد أصابهم من قتشهوا
أن تكفر مصر كما كفرت حكومة تركيا فإن البون بعين ، ودون ذلك خبط
القتاد ، وسيصحو المخدوعون على الويل ! « فليَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عن أمره
أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ! .

إننا قبل غيرنا نستنكر الصورة الموهومة للإسلام الحاكم بشرائع الله ،
صورة التعصب والرجعية وإثارة الفتن ومحاربة الارتقاء ، ذلك أننا ألد أعداء
هذه الخصال المستقبحة ، ولو كان ديننا على هذا القرار الشائن لكفرنا به
وتبرأنا منه ...

إننا نحن الذين محقنا هذه الصفات . وقاتلنا الملك السابق وحاشيته وأحزابه
لأنهم مظهرها وجوهرها ، وعندما حاربنا هذه الصفات كنا نستوحى كراهيتها
والهجوم عليها من كتاب الله وسنة رسوله ، أى من صميم الإسلام ! فكيف
يرمى هذا الدين الكريم بأضداده ، وكيف يصور حكمه المنشود على أنه
ترمت ورعود ؟ .

غير أن الحاقدين على الإسلام يلجأون إلى التزوير في محاربته وهم يطبلون
لكل حكم ماعداه ، ويودون أن تنتقل الأمة من فساد الحاكمين بأهوائهم
إلى فساد الحاكمين بأهواء غيرهم ، أى من فساد الحكم الشرقى البعيد عن
الإسلام إلى فساد الحكم الغربى الناقم على الإسلام ، وهذا هو علاج المموم
بدواء مسموم ، ولن يكون العهد الجديد كما يبتغون .

نعم . . . دين الدولة الإسلام

لو كان الإسلام ديناً لا يقوم إلا على أنقاض غيره ، أو كان يستمد حياته وازدهاره من إمارة الآخرين وترويعهم لكان من حق الدنيا كلها أن تقف في وجهه وتمتنع من شره . لكن الأمر على عكس ما يتصور الجاهلون وعلى عكس ما يشيع الناقون والمغرضون ، فإسلام يحيا ويعطى غيره حق الحياة إلى جواره ، والمسلمون يؤدون حقوق دينهم في الوقت الذي يعاملون فيه غيرهم معاملة بارة مقسطة معقولة . وقد مات نبي الإسلام ودرعه مرهونة عند يهودى مرعى الجانب محترم الدم محفوظ الحق كثير المال في دولة يعتبر الإسلام دينها ودولتها وشعبها وحكومتها . فلماذا يراد إقصاء الإسلام عن مكانته وبتر تعاليمه شقين ، يشل أحدهما ويهمل الآخر ؟ ؟

إن المادة الثالثة من الدستور المصرى تنص على أن المصريين لدى القانون سواء ، وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة دون تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين . وتنص المادة الثانية عشرة على أن حرية الاعتقاد مطلقة ، والمادة (١٤٩) تنص على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى . . . وهذه المواد جميعاً يصدق بعضها بعضاً وتسير في اتجاه واحد .

ذلك أن تأمين الحرية الدينية ، والتسوية في الحقوق والواجبات بين المسلمين وأهل الذمة من مبادئ الإسلام المقررة : وقد عرفت بها بلاد الإسلام قبل أن تعرفها أقطار الغرب بألف عام أو يزيد !!!

فلماذا يراد إقصاء الإسلام عن الحكم ؟ وما هي العلة الدفينة وراء الحملة عليه ؟ ولحساب من تؤخذ الدولة منه ؟ وما معنى أن ينادى كاتب ما في مجلة « روزاليوسف » بفصل الدين عن الدولة قائلًا « إن تطهير الدستور من نص المادة ١٤٩ هو خطوة

يجب أن نقوم بها في شجاعة حتى نمحو من مجتمعا كلمات الطائفية والتعصب !!
الحق أن البغض العميق للإسلام بسبب الطائفية والتعصب هو سر هذه
الصيحات النابية ضد الدين الرسمي للدولة . . .

وليس تقديس حقوق الإنسان و ضمان حرية الطوائف هو مبعث هذا التهجم
على الإسلام الحنيف فإن هذا الدين مصدر الشرائع التي صانت حرية العقل
والضمير ورفعت قدر البشر في كل مكان .

الحق أن جحود الألوهية واحتقار الأديان كلها : والإصرار على تعطيل
الأحكام السماوية التي أنزلها الله في كل كتاب سبق ، وإتاحة فرص اللهو الحرام
لكل ذي شهوة مريضة ، وإقامة حكومة تحترم الكفر والإلحاد وتستسيغ الفسوق
والعصيان . . . هذه الدوافع كلها هي التي تتحرك وراء محاربة الإسلام ، مطالبة
بإقصاء الدين عن الدولة ، ومنادية بإلغاء النص الدال على ذلك في مواد الدستور . . .

إن الحرية بريئة من هذا العمل المنكر ، فإن الإسلام لم يسيء إليها حتى تسيء
إليه . . وأن الوطنية بريئة كذلك من هذا العمل . فإن الإسلام لم يحقر مواطنا
لدينه أو لونه مثل ما تفعل ذلك اليوم دول كبرى أبرمت ميثاق حقوق الإنسان
ثم هزأت نصوصه عند التطبيق ، إن الرجعية الحاكمة على الإسلام فحسب هي التي
تفرى بعض السفهاء بالتطاول على دين الكثرة العظمى مسترة وراء كلمات جوفاء
من العدالة والحرية والمساواة . كأن العدالة والحرية والمساواة أصابها ضمير من وجود
مادة في دستور الدولة تنص على أن الإسلام ديننا الرسمي . . . !!

ثم ، مامعنى هذه الجملة التي يلوكونها ولا يفقهونها « الدين لله والوطن
للجميع » ؟ إن الدين لله حقا . بل ذلك ما يجاهد الإسلام له . قال تعالى « وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » !! .

وأن الوطن للجميع حقا . ألم يسمع الإسلام الزوجين المختلفين ديناً في بيت
واحد ، فكيف لا يسمع فريقين كبيرين من أمة في وطن واحد ؟

إن الإسلام منذ أربعة عشر قرناً يرى الوطن للجميع وقد سمح أتم السباحة
لأبناء الديانات الأخرى أن يعيشوا معه أحبة متوادين وأخوة متعاونين ، لكن
المؤسف أن الآخرين لم يكتفوا له هذه المشاعر الخالصة : ذلك سر نكبة المسامين
في الأندلس وغيرها من بقاع « أوربا » .

ومع ذلك فإن كلمة « الدين لله والوطن للجميع » يراد اليوم استغلالها لحرمان
الإسلام حقه البديهي في الحكم بما أنزل الله وفقاً لتعاليم التوراة والإنجيل
والقرآن . .

ومن تافه القول أن يطالب بفصل الدين عن الدولة لأن « المقصود بالدولة
المصرية مجموع الأجهزة التي تقوم بتسيير شؤون المجتمع وتوجيه نشاطه وطاقاته
إنتاجه ، وصيغ هذه الأجهزة رسمياً بالديانة الإسلامية معناه أن تقوم في البلاد بحكومة
دينية تطبق الشريعة السماوية ، وتقيم الحدود كحد السرقة الذي يقتضي قطع اليد ،
وحد الخمر والزنا ، وهذه يتعذر تطبيقها . . . » .

هذا ما يسوقه الكاتب المخدوع من حجج ، ونحن نعجب كيف يسيغ عقل
هذا اللغو !!

على الحكومة المسلمة أن تشيع العفاف واليقظة في المجتمع ، فهي بداهة
لن تبيع فتح ما خور للفسق ولا حانة للخمر ، وهذا نصف عملها أو أكثره في هذا
الباب . ثم عليها بعد أن تعاقب الزناة والسكران إذا وقعوا في أيديها كما تعاقب
تجار المخدرات ومتعاطيها الآن وكما تعاقب غيرهم من مثيري الفتن ومبتغى الشر
فأى تعذر في هذا وأي صعوبة ؟

أم أن المراد أن تكون الحكومة تقدمية تدع طلاب الآثام من غير وازع
ولا رادع ؟ يبدو أن هذا ما يريده الراغبون في إقصاء الدين عن الدولة . لأن
هدفهم الأكبر أن يكون الكفر دين الدولة .

أيها الشعب .. تعلم الحق المقدس

وتعلم صناعة الموت

قلنا إن سياسة الجهاد لا تكترث لحساب الأرباح والخسائر ، ولكنها تهتم بمدى وفائها أو إخلالها بحقوق العقيدة التي تحملها ولتكن العاقبة ما تكون

وإذا كنا أمة مجاهدة تريد أن تحفر في بلادها لحد الاستعمار ، وأن تكسر عموده الفقري بإعلان حرب دائمة على الانجليز فيجب علينا أن نتبع الخطوات الصحيحة الجادة التي تبلغ بنا هذا الهدف العظيم .

على كل مسلم أن يكتب وصيته وأن يستعد للكفاح فوق أنقاض بيته ، ويجب أن تتحول المدائن والقرى إلى ساحات للقتال ، فيعرف الإنجليز أنهم لن يدخلوا بلدا إلا وهو أكوام من التراب ، وسحب من الحريق والدخان ؟ ! وقد نفقد في هذه المعركة مليون نفس ، ولا يفقد الإنجليز إلا نصف هذا العدد أو رבעه ، أو عشره ، ليسكن ! ! فإن الخسائر لا تضير الأحرار قدر ما يضيرهم الرضوخ للضيم وتحمل العار .

ولنبدا من الآن حرب الحق ، لنذكر حكم الإسلام الصريح أن موادة أولئك المعتدين ردة ومها دنهم كفر ، وأن من لم يكن معنا في خصومتهم فهو علينا ، نقاتلهم جميعا بسلاح واحد فالمنافقة في حقنا تساوى جحوده .

إن الحروب الأولى بين المسلمين والفاجرين لم تبلغ ذروتها وتؤد نتيجتها إلا يوم اضطربت الجوانح بالبغضاء لمن آذوا الله ورسوله فكان من وراء كل سيف يهوى قلب مقروح وفؤاد ثائر « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ . . . »

ولنبداً من الآن حرب الجدد ، فطبيعة موقفنا تفرض العبوس على الوجوه ،
والعزوف عن اللهو والترفع عن الصغار ، والتنزه عن الدنيا . . . يجب أن نحرس
من الآن الأصوات الخنثى والألحان المهتاجة بالشر والفسوق ، وأن تغلق الحانات
وتراق دنائها ، وأن توصل المراقص والملاعب ويشرد أحلاسها وروادها ، وأن
تتواصى الأمة جمعاء بالعكوف على العمل ومضاعفة الإنتاج ومواصلة السعى في كل
ناحية ، ولنضع سياسة بعيدة المدى لحرب طويلة الأجل ، فإن من الغفلات أن
نظن حقوقنا تنال في حرب خاطفة أو تدرك في ساعة من نهار . . . يجب أن تطوى
على عجل سياسة جمع التبرعات لأسر الشهداء أو لتمويل الجهاد العام . . . فإن الأمم
التي تدير حرب التحرير على ما يتجمع لديها من الصدقات المستجداة أمة
لا تستحق الحياة ولا مكان لها بين الأمم الكريمة . يجب أن ترصد الثروات
الكبرى لهذا الغرض ، وأن تحبس أموال المترفين على حرب المستعمرين
فنتخلص بهذا من شرين ، شر الاستعمار الداخلى وشر والاستعمار الخارجى
على سواء .

إن الشعب دفع من أقواته ما كفل به مستقبل عمال القنال ، وهو مستعد أن
يدفع أكثر من ذلك لو خلت الجيوب المنتفخة وأقفرت الخزائن المفعمة ، جيوب
وخزائن السادة والكبراء .

ومن الآن يجب أن ننذر . . .

ننذر الباشوات الذين قد يتاجرون بمستقبل البلد في السوق الصفراء ، ويساومون
على حقوقها حاسبين أنهم سيعيشون حتى يستمتعوا بثمن خيانتهم .

لقد انتهى العهد الذى يعتبر مخالفة الإنجليز أمراً مباحاً وبدأ العهد الذى يعتبر
إلقاء السلم لهم جريمة نكراء ، لا تكفر عنها الدموع . . . بل تكفر
عنها الدماء . . .

أيها الشعب . .
تعلم الحق المقدس . .
وتعلم صناعة الموت . .

هيهات حال الموت دون الفوت وانتضى السلاح !
كيف الحياة إذا خلت منا الظواهر والبطاح ؟
أين الأعزة والأسنة عند ذلك والسماح ؟

فرنسا في بلدين

في الوقت الذي تزار فيه فرنسا زئير الأسود الكاسرة وسط إخواننا من مسلمي المغرب ، وفي الوقت الذي تغتال فيه الأحرار وتشنق الأبطال وتنسف الدور الآهلة وتكظم على صيحات الغضب المكومين من أبناء هذا البلد المقهور ... في هذا الوقت تلقى فرنسا نفسها حظاً أشأم نكداً في بلد آخر ، ففي الهند الصينية تتحول الآساد الكاسرة إلى حمر مستنفرة . والإقدام الرهيب إلى تقهقر معيب ، في هذا الوقت تجيء الأبناء بأن الوطنيين الحمر يطاردون الغزاة من قرية إلى قرية ، ويكتسحونهم في كل ميدان ويكسون وجوههم الكالحة حللاً مضاعفة من الخزي والهوان ...

قلت لنفسي : أليس في الدنيا مستضعفون غيرنا نحن المسلمين ؟ إن البغاث يستنسر بأرضنا ، والتافهين العجزة يصولون ويجولون في ربوعنا ، حتى إذا تخطوها إلى أقطار أخرى استقام ميلهم وساروا وهم حذرون أن يخطئوا أو يجوروا ... إن القوميات الوثنية مرهوبة الجانب ، وحسبك أن فرنسا التي خرجت من المغرب مزهوة بما نالت من نصر لم تمكث غير قليل حتى أحنث رأسها أمام الثوار المظفرين في الهند الصينية ، وهاهي ذى تجمع فلولها المدحورة لتختار بين التسليم أو الغرق ! أما على ظهر الأرض أسوأ منا حالاً ؟ ماهذه الاستكانة المخزية ؟

قد يعتذر لها بأن الوطنيين الحمر يملكون من صنوف السلاح الحديث ما يبلغهم أبعد الآمال ، ويخلق منهم أجراً الأبطال ، وأن وراءهم دولاً كبرى تمدهم بالعون وتحمي ظهورهم إذا تكالب الباغون على الكيد لهم ... لكن الشعوب المسالمة فقيرة في هذه الأدوات ، فريدة في دنيا عاثت فيها الذئاب وضاعت العدالة !..

وهذا عذر — في رأي مردود ، فليست قلة السلاح آفتنا ولا ضعف الوسائل
المادية علتنا . . فما يجدى السلاح مع القلب المرعوب والبدن المهوك والأم
الحريصة على الحياة في أى وضع وعلى أية صورة . من قديم قرر المتنبى هذه الحقيقة
المرّة في بيته الحكيم :

إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع
أعتقد أن المسلمين لو أرادوا التحرر من أسار قاهريهم ما أعجزهم الأمر . فإن
القيود تتكسر على معاصم الأحرار ، والأمم الأبية لن يخضع شوكتها الحديد والنار .
إن الأزمة التي يعانيها كثير من بلدان الشرق أزمة رجولة قبل أن تكون أزمة
أسلحة عتيقة أو مستحدثة .

هذه « ألمانيا » التي هدت الهزيمة قواها ، وخربت الحرب الجائحة مدائنها
وقراها ! ما إن سقطت حتى نهضت ، ومامت سنين على تخريبها الشامل حتى
ازدهرت جنباتها بكل شيء . فإذا بعداتها يتقربون منها ليستعينوا بكفائتها
على أخطار الغد المبهم ...

أخشى أن أقول أن قيودنا من أنفسنا لا من غيرنا ... وأن الغرب لم يسبقنا
باكتشاف البخار والكهرباء ، وأخيراً باكتشاف مافى الذرة من أهوال كامنة
إنما سبقنا باكتشاف مافى النفس البشرية من طاقات كبيرة لو سخرت لأتت
بالعجب العجيب ...

أجل ، إنه كما يمشى (العرب) فقراء على أرض من الذهب يعيشون غرباء
بين ما أودع الله في نفوسهم من ملكات مهددة وقوى مبعثرة ، وما ورثهم من
رسالات كبيرة وصحائف مطهرة واصلاحنا لنفوسنا أو صفوفنا ليس ضرباً
من المحال إن أردنا ... واستنقاذنا لبلادنا ومقدساتنا أيسر شيء علينا يوم تزكو
أنفسنا وتتسق جموعنا ...

ولئن كانت الشقة بعيدة إن اجتيازها سهل لمن شاء . ومن سار على
الدرب وصل ...

وقبل أن نجمع على هذا المسير فإن فرنسا المهزومة في كل ميدان ستسترد
خسائرنا منا وحدنا نحن المسلمين ...

وليس فرنسا وحدها التي تصنع ذلك ، بل الدول المستعمرة كلها وفي طليعتها
البنى العجوز انجلترا .

إن تطهير الأوطان من أدران الذل نتيجة تتبع تخلص القادة والجاهلير
من آصار الجهالة والخرافة ، وسائر أمراض النفوس والعقول ...

الإسلام جامعة

قرأت نبأ المحاضرة التي ألقاها الدكتور راشد البراوي في جمعية الشبان المسيحيين عن الجامعة الإسلامية المقترح إنشاؤها ، وعن الريب والظنون التي تكثف مولدها . .

وليس يهمني أن أتتبع المحاضر في عودته إلى التاريخ القديم للإسلام ، ولا في فهمه للحركات التي حدثت مؤخراً في بعض بلاده ، فإن القليل الذي طالعته لا يغني عن الكثير الذي لم أسمع ، وإن كان هذا القليل يدل على أن المحاضر لا يعرف الإسلام معرفة جيدة ، ولا يدرك الفروق الضخمة بينه وبين ما سبقه من أديان ولا يقدر ما يفيد العالم عن الإسلام لو أنه أخذ به واستقام على صراطه .

ويبدو أن الفكرة المسيطرة على المحاضر هي أن الإسلام كان خيراً بالنسبة إلى الجاهلية التي سبقته فحسب ، وأن تطور الزمن وتقدم العالم في ميادين الكشف العلمية الواسعة يفقد الإسلام — والأديان الأخرى طبعاً — حق التوجيه والقيادة للبشرية السائرة إلى الأمام .

ونحن المسلمون مستعدون أن نترك ديننا هذا لو وجدنا أفضل منه في قياد الدنيا ورعاية مثلها وكفالة نشاطها العام ، فإن كان المحاضر ومن على شاكلته يريدون أن نتركه ، وأن نهجر تعاليمه لنعيش بلا دين البتة فليقترح ذلك ، وإن كان يريد أن نعتنق ديناً آخر من الأديان السابقة ، أو التي اخترعها البشر فليقترح ذلك أيضاً ، وأظن أنه من حقنا أن نرفض . . لأن أحداً لن يستطيع إرغامنا على نبذ إسلامنا الذي أثرناه عن فهم واقتناع . .

وإسلامنا الذي نحرض على التمسك به يوجب علينا أن نتآخى مع المسلمين في كل مكان ، وأن نأسي لآلامهم ، ونفرح بخيراتهم ، بل هو يوجب علينا أن نتواصى

معهم بالحق والصبر ، وأن نتعاون على البر والتقوى ، وأن نتساند في دفع العدوان ومحق الطغيان ، والمسلم الذي ينقطع عن إخوانه — مهما بعدوا — وتجف من قلبه عواطف الحنو لأحزانهم ، والابتهاج بأفراحهم يعتبر منسلخاً عن هذا الدين ، وخائناً لأمته الكبرى .

فالمسلمون وحدة وإن اختلفت أجناسهم وأقطارهم . . وتجاهل هذه الوحدة ، أو النيل من خطرها والتهوين من رسالتها ، عمل تكسر له الآن جهود شتى ، سوف ينكشف اللثام قريباً عن وجوه أصحابها وأغراضهم .

وبداهة نحن لا نفكر في تكوين جامعة إسلامية لتكون ذيلًا لإحدى الجهات المصطرعة في العالم ، ولا أن تكون هذه الجامعة المقترحة عقدًا مزيفاً يضم في خيطه الطويل دويلات مسخرة وحكومات مستأجرة ! كلا . . فالمسلمون كأمة مناضلة في سبيل الحق والحرية هم دعامة هذه الجامعة ، وكل عدوان على هذه الأمة ، أو انتقاص من حقها وحريتها فهو وأد للجامعة الإسلامية وقتل لها في المهد .

إن التفكير في محاربة الجامعة الإسلامية — للأسف الشديد — ينبع من جهات تكيد للإسلام ، وتتمنى الخيال لأهله والانطفاء لمنازه .

والغل الكامن في طوايا بعض الأفراد والهيئات ضد الإسلام هو بقية من تعصب أعمى . . لو أتيح له أن يتنفس لقتل النهضة العلمية التي وصل إليها العالم أخيراً بعد كفاح دام ضد الجمود الذي لم يعرفه تاريخ الإسلام يوماً ما ، لأن هذا الدين لم يعلن حرباً مقدسة على العلماء والمفكرين والمخترعين .

ألا فلينعم بالا من ينوّهون بالتقدم المادي الذي أحرزه العالم ، فإن الجامعة الإسلامية يوم تقوم فلن تعوق سيره ، ولكنها ستدفع به إلى المنهج القويم . . . حيث لا عدوان ولا استعمار ولا تعصب .

النزعة القومية

عندما احتفل باستقلال باكستان ، وازدانت الدور بالأنوار المتألقة ، ودوت فيها الخطب الرنانة ، نظرت من خلال هذه المظاهرة الفرحة إلى الماضي القريب أتأمله وأغلغل البصر في أعماقه وجوانبه . ثم عدت إلى نفسي وقد شابها كدر خفيف !

إن باكستان وهي إنقاذ ما أمكن إنقاذه من الحكم الإسلامي في الهند الكبرى ! أجل فقد كان الحكم في الهند إسلامياً وكانت الوثنية الهندوكية المخرفة قابضة مستكينة لا تطمع إلا في النجاة بتقاليدها البالية .

كانت العقلية الإسلامية تقتعد مكانها الصحيح في بلاد لا تزال بدائية في طقوسها وكهانتها . وكان المسلمون قلة نسبية ولكنهم كانوا أكثر ذاتية . ومهما أصابهم من انحلال وتأخر فهم على كل حال أكرم مرتبة وأسلم كياناً من عبدة البقر . !

حتى جاء الإنجليز واستعمروا الهند . ومعنى الاستعمار الإنجليزي أن الحقد السام على الإسلام والغيظ الدفين على أهله ، ومحاولة إلحاق الأذى بهم في كل مكان ، واستنزاف قواهم في كل قطر . إن ذلك كله وجد متنفسه العميق في ظلال الاحتلال البريطاني ، وبدأ الإنجليز يحميون القومية الهندية بعد غزو الهند ، ويستخدمون الهندوك في الأعمال الكبرى ، ويجلون المسلمين رويداً رويداً عن المناصب التي ظلوا قروناً طويلة يملأونها .

وفي الوقت الذي كان الإنجليز فيه يحميون العصبية الهندية للقضاء على الإسلام في القارة الهندية لأن المسلمين هناك قلة كانوا هنا في مصر يحميون العصبية المصرية والنصرة الفرعونية للقضاء على الإسلام كذلك وإن كان المسلمون هنا كثرة !

إن المهم هو إزاحة الإسلام من الطريق الإمبراطوري ، ولا بأس من استخدام الشيء وضده للوصول إلى هذه النتيجة المنشودة ، فلما شبت الثورة الاستقلالية في الهند ، وأحس المسلمون بالخطر على حياتهم ودمائهم وأعراضهم ، وأدرك الإنجليز أن بقاءهم في الهند أصبح مستحيلا ، قرروا أن يخرجوا بعد أن يتركوا الأمور بعدهم مشار فتن وقلاقل لا تنتهى ، فوضع مشروع التقسيم في أسلوب يغرى الهند بالعدوان ، ويضعف في المسلمين روح المقاومة !

وفي هذه الظروف الكئيبة ولدت باكستان ، ولولا أن الرجال الذين احتضنوا نشأة الحكم الإسلامى في وطنه الجديد كانوا ذوى يقين وصلابة لماتت الدولة الإسلامية في مهدها . . ولكن الله سلم !

إن الروح الأوروبية متشعبة بالحققد الأعمى على ديننا العظيم وقد عاد الزحف الصليبي مرة أخرى يحاول بكل قواه أن يجتث جذور الإيمان من قلوبنا وبلادنا وهو في هذه المرة يتستر وراء النزعة القومية ليسلخ المسلمين أنفسهم عن الإسلام .

من ينصحه ؟؟..

هل جلست يوماً تستمع إلى (الراديو) يذيع على الناس اللهو والشجو والحق والباطل ؟ لقد ضبطت أزراره على المصدر الذي يرسل ذلك بحيث يخرج الصوت سليماً واضحاً . ثم تركت الآلة المضبوطة تستقبل ما يصل إليها وتتلأ به الآذان الواعية أو الغافلة ...

لو أنك أدت بعض المفاتيح في هذه الآلة العجيبة وملت بها يمناً أو يساراً فإنك إما أن تسمع صوتاً أجش منحرفاً مزعجاً . وإما أن يختفي الصوت وتنقطع أنفاسه فلا تسمع لاهمسا ولا صياحا . وسيبقى الصوت أجش غليظاً مابقيت الأزرار مائلة عن وضعها الصحيح ، وسيبقى خامداً صامتاً ما ظلت مفاتيحه موصدة . ولن تعود إلى السماع الهادئ الرتيب حتى تعيد الجهاز إلى ما كان عليه من ضبط متقن دقيق ...

إن قلوب البشر في التقاط الحقائق كبراً وصغراً كما هذه الأجهزة الحساسة . وهي كذلك في أدائها وقرع الآذان بها . يوجد أقوام تنطبع في نفوسهم الحقيقة كاملة . فإذا تحدثوا كان كلامهم مصداقاً لها ، وإذا عرضت لهم قضية كان فصلهم فيها تجاوباً تاماً مع الحقيقة السارية في الكون . وقد أنصف القرآن اليهود أنفسهم إذ أبان أن منهم ذوى قلوب تنجذب إليها الحقيقة فهم يتحدثون بها ويحكمون . قال عز وجل : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » . وهناك أقوام تصل الحقيقة إلى أفئدتهم محرفة منقوصة . فهم يتحدثون ويخبطون كهذا (الراديو) المعوج الأزرار تسمع منه فرقعة وقرقعة ، وقد تعى منه شيئاً أو لاتعى منه شيئاً أبداً . ومهما أنصت إليه فلن تخرج إلا بصداع في رأسك . ذلك أن الآفة تجيء من داخله ، ولن يصفو لك سماعه إلا إذا غمزت يدك أزراره المائلة فأصلحتها أو أخذتها ...!!

وهناك أقوام لا تصيب الحقيقة من قلوبهم هدفا ، ولا تجد بها مقراً ، فهم
« أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يشعرون أيانَ يُبعثون » !.

وقيمة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة ترتبط بمدى صلاحية قلبه للإدراك
الناضج والحكم الصحيح لافي قضية فرد بعينه ، أو حالة بعينها ، بل في شئون
الحياة كلها ، ومع أهل الأرض أجمعين ...

ولعل ذلك ما عناه النبي الكريم وهو يقول : « ألا وإن في الجسد مضغة
إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله . ألا وهي القلب » ...
وما قررته الآية الكريمة : « يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونٌ إلا من أتى اللهَ
بقلبٍ سليمٍ » . وأستطيع أن أوكد بقوة أن تقدم جماعة أو تأخرها منوط بمدى
مالديها من أصحاب هذه القلوب الواعية . القلوب التي تتصل بالعالم وأحداثه
اتصالاً فاقها نظيفاً ، فهي لا تنخدع في إدراك مسألة . لأنها تلتقط لها صوراً
صحيحة ، ولا تزيع في إصدار حكم لأن وسائلها في الأداء ، والبلاغ لم يدركها
عوج ولم يصبها عطل .

ومن تجاربي مع الناس والأيام رأيت أن الإسلام لن يفهمه ولن يخدمه امرؤ
حرم هذا القلب ، ولو استجمع شارات التدين من قدمه إلى رأسه أو من رأسه
إلى قدمه ... وأن قضاياه لن تنجح إلا إذا حملها أصحاب القلوب الكبيرة ،
وتوفروا على نصرتها بفهم حصيف وبصر عفيف . ولن يعارض هذا الكلام
ما جاء في الحديث عن رسول : « لن تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة وقد ينصر الله
هذا الدين بالرجل الفاجر » فإن الرجل الفاجر قد تستغل قواه في سبيل الحق
عند ما يكون فرداً خبيثاً وسط جماعة طيبة تضع هي نفسها الخطط وتملك القيادة
وتوجه الأمور !! أجل . فإن الجندي المرأى قد يؤدي عملاً ما وسط الجيش
المخلص ، فريأؤه على نفسه وسلاحه لمن معه . لكن النصر يكون أبعد ما يكون

عندما يستبد ذوو القلوب المدخولة برسم الخطة وإدارة المعركة . . عندئذ يرفع الله يده ويدع الناس وشأنهم ...

والخسائر التي أصابت الإسلام في العصر الحديث ومكنت لنزعات أخرى أن تسود وتبرز ، سرها أن زمام الإسلام وقع في أيدي رجال لهم قلوب لا يفقهون بها . .

ومنذ سنين بح صوتي وأنا أرى حكام الشرق يأكلون شعوبه ويتركونها فضلات محطمة للمحتلين الأجانب . فإذا بي أطمعن من ظهري أو أألطم على فم من رجال يقال : إنهم قادة الإسلام .

أفكذلك يجزى العاملون للإسلام ؟

آيات (*)

« ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلنَّ أكونَ ظهيراً للمجرمين » .

علو الهمة ميزة تختص بها النفوس الكبيرة وليس خلقا يستطيعه سواد الناس . وعندما يعتنق الرجل مبدأ كريماً ثم يسير في الحياة على ضوئه تلقاه عقبات جمة وتعرضه صعاب كثيرة . . . فإن كان واهن العزم قريب القاع فت ذلك في عضده وثنائه عن غرضه . أما إن كان على الهمة صلب الإرادة فإن احتكاك الشدائد بنفسه الكبيرة لا يزيده إلا مضاء واعتدادا . .

وقد تتكون بعض النفوس من عناصر هشة تقبل الكسر عند أول صدام . وقد يتكون بعضها الآخر من معادن ذات بأس وعنف إذا التقت بالأحداث العاتية قدحت الشرر وتآلق جوهرها على مس الشدائد والملمات . . .

عندما انهزم المسلمون أول الأمر في معركة حنين وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وأنا وانكشفوا عن قائدهم العظيم فرأى نفسه في موقف تكتنفه الريبة والخرج . . لم يكن لهذه الهزيمة قط أي أثر من الضعف أو التردد لدى النبي صلى الله عليه وسلم بل صاح في ثقة ويقين ورسوخ .

أنا النبي لا كذب . . .

أنا ابن عبد المطلب !!

فشاب الناس إلى رشدهم وجرف تيار الثقة والصدق المنبعث من قلب رسولهم كل أثارة للشك في أنفسهم فجاء النصر والفتح .

(*) كتبت هذه التفاسير الموجهة في أعقاب حل الإخوان المسلمين لأول مرة سنة ١٣٦٨ هـ . وقد ضاع بعضها فأثرنا إثبات ما بقي منها .

وقد يثبت الإنسان لأول مخاطرة تعرض له حتى إذا بجا من عواقبها قرر
ألا يتعرض مرة أخرى لمثلها . ومر بمخاطره المثل الذي يردده الجبناء من العامة
(ما كل مرة تسلم الجرة) .

ولكن شأن النفوس الكبيرة أعظم من هذا فالنجاة من الأخطار التي
يتعرضون لها في سبيل مثلهم العليا ، لاتعلمهم الحرص على الحياة ولا تثير فيهم
غرائز التهيّب والتوجس بل تزيدهم وفاء لما يعتقدون ، ولقد كان موسى عليه الصلاة
والسلام يكره الظلم والاستبداد ، ويحارب نوازع الإجرام في الحكم التي تعرض
لها قومه حكى عنه أنه (دخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين
يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من
عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) .

ورأى موسى أن هذه العاطفة الحرة قد تأدت به إلى غير ما ينبغي وأنه وهو الذي
يحارب الظلم — قد زاد في الانتصاف لقومه . وخشى أن يكون قد تعرض لسخط
ربه فهتف (ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) .

فماذا كان من موسى بعد ظفّره بهذا العفو ؟ لقد جدد العهد أن يظل حراً
ينافح عن الأحرار . وأن يظل ثائر العاطفة ضد الفساد والطغيان وأن يجعل شكره
لهذا الصفيح الإلهي أن يقول (ربّ بما أنعمت عليّ قلن أكون ظهيراً للمجرمين) .

وهكذا شأن النفوس الكبيرة لا يصرفها عن غاياتها العظمى صارف من
عنت تلقاه أو خطأ تقع فيه . بل تبقى نماذج حية لعلو الهمة ومصابرة الأيام .

إن هذه الكلمة العظيمة لها دلالتها التي تجعل موسى في طليعة الرجال الذين
آلوا على أنفسهم أن يحرروا العبيد ، ويحاربوا التآله ويهدموا القداست المزيقة . .
وقد كان يستطيع إفراغ هذه المعاني في صبغة تنطوي على العناد والإصرار ، لولا أنه
في مقام الضراعة لربه والاعتذار عما فرط منه !! ومن ثم اكتفى بتوثيق العهد

على نفسه على الصورة التي لا يمكن أن يكتنفها خطأ والتي يبدأ حدها الأدنى من مقاطعة المجرمين والبعد عن مظاهر تأييدهم وينتهي حدها الأعلى عند تطهير الحياة من هؤلاء المجرمين وأوزارهم . . .

فدعوة موسى (رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين) تعنى مراتب الجهاد كلها ، من عدم مظاهر المجرمين على شيء ، ثم على التخلص من قيودهم والانطلاق من إسارهم ! . .

ولقد وفى موسى بالعهد ولم يهدأ له بال حتى آراه الله أمواج اليم تنفرك ثم تغلق على الجبابرة الذين قتلوا الرجال واستحيوا النساء (وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ . إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » .

الطعن في قيم الدعوات عند نشأتها دأب المعارضين لها في كل عصر ، فهم يحاولون انتقاص مكانتها والإضرار عليها وعلى أصحابها ، وقد يتأدى هذا بهم إلى عزيد من التهمك والتهجم يخرج النفوس ويجعل أتباع الحق يشقون بتكاليفه ويثودهم حمله .

وقد عالج القرآن الكريم هذه الحال بما رأيت ، فأمر بالتعصب للحق ثم شرح المبررات الأدبية الحاسمة التي تدعو لذلك ، ثم ختم العلاج بإنذار عام يموج صده في آذان المصدقين والمكذبين جميعا يسمعه من أمروا بالثبات على الحق ومن نكلوا عن اتباعه « وسوف يُسألون » .

إذا احتوت قبضتك على شيء نفيس فحاول اللصوص انتزاعه منك قسرا . . . ثم أصخت إلى صوت الحارس المؤنس يهيب بك استمسك بما معك ! فمعنى ذلك

شدد قبضتك ، وركز قوتك ، ووقاوم عداتك ، ولا تركزن أبدا إلى التراخي والتفريط ...
وهكذا تنطلق آيات الله إلى أفئدة عباده . ففي ضمير كل مؤمن منها هاتف يصرخ
في أعماق قلبه كلما تكاثرت الفتن وحيكت المؤامرات ، وانتشر لصوص العقائد وسراق
المبادئ يقول : « فاستمسك بالذى أوحى إليك . . إنك على صراط مستقيم »
أجل إنك على صراط مستقيم . فما دمت قد أسلمت لله وجهك وبعته مالك
ونفسك فمن ذا يكون أحق منك بصفة الاستقامة ؟ أحم عبدة الهوى وأشيع
الطواغيت ؟ إن معالم الهدى لا تخفى مهما لغط المبطلون وعلا نقيقتهم ، والصراط
المستقيم لا نأخذ « خريطة » من أيدي البشر . فقد أخذناها عن الله تبارك
وتعالى ، وعرفنا حدودها في كتابه المبين « فذاكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق
إلا الضلال فأنى تصرفون ؟؟ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم
لا يؤمنون » .

وأعداء الحق في كل زمان ومكان يستمدون نباهة الذكر وآية الشرف من
احترام التقاليد السائدة ، ومسايرة الأوضاع المقررة مهما كان فيها من عوج وفساد .
أما اعتراض القافلة الشاردة ، ومحاولة لفها عما وجدت عليه آباءها وثنى عنانها لتلتزم
خطه رشيدة جديدة . فهذا عمل الشائرين الذين يتعرضون لفقد مكانتهم الاجتماعية
في مبادئ الصراع بين الهدى والضلال !! بيد أنهم يسترجعون كل شيء
في نهاية المعركة والله عاقبة الأمور . . وقد كان أشراف مكة في الجاهلية الأولى
يحسبون أن أتباع الإسلام سيفقدون منزلتهم كسدنة موقرن للأصنام المعبودة
وسيفقد مكة منزلتها كعاصمة للوثنية السائدة فأبان الله لهم أن ما سيربحون من
أتباع الحق أضعاف ما يخسرون ، وأن التماس الشرف والذكر من وراء التمسك
بالباطل لا يجدى فتىلا . إلا بهذا القرآن الذى تجهمننا لقوانينه ووصاياه . « وإنه
لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » .

« إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » .

للطبائع الملتوية أسلوب قد تنجح به في ميادين شتى فإذا تعلق الأمر بالأخلاق والفضائل لم تصب من النجاح سهماً ، فإن سياسة المبادئ غير سياسة المصالح وسياسة الدعوات القائمة على الشرف والاستقامة غير سياسة الشهوات القائمة على الانتهاز والتصيد . وأخطر ما نخشاه على أتباع الحق أن يحسبوا سياسة الدين تنجح بالطرق المعوجة التي احترفها بعض الدجالين وأن يظنوا قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر تحمل بالمساومة والتبذل والأخذ والرد . . . !

إن النبي صلى الله عليه وسلم رفض رفضاً حاسماً العروض المغرية التي قدمها إليه — في إبان ضعف الدعوة — بعض من يظنون النصر يشتري بأي ثمن . فعندما كان يعرض نفسه على الناس في مواسم الحج — بعد جهاد يأس مع أهل مكة ظل سنين عدداً — جاءه سيد منيع في قبيلة ضخمة يعلن استعداده وقبيلته للإيمان على شرط أن يكون الحكم له ولقومه بعد وفاة الرسول ؛ ولكن الرسول أبي قبول هذا الإيمان المشروط ، وآثر أن يبقى بين الناس قليل الناصر ضعيف الأتباع إلى أن يلتف به من لا يؤمن بقيود وشروط .

ولو كانت سياسة الإيمان كسياسة الأحزاب المعاصرة المبنية على تبادل المنفعة (خذ . . وهات) لكان هناك موقف آخر بيد أن شأن الرسالات السماوية أعلى مما يظن الواهمون . . . وكذلك جاء سادة العرب يعرضون إيمانهم على أن يميزهم الرسول في مجلسه ويحفظ مكانتهم الاجتماعية فلا يختلطون مع السوق والأتباع . لو كانت سياسة كسب الأنصار والانتفاع بالعصبيات القوية تعلو منطق الإيمان والصلاح لكان هناك موقف آخر ولما كان هناك يأس من قبول أولئك الكبراء والانتفاع بما لهم وجاههم في خدمة الدين . بيد أن الرسول أبي . ونزل الوحي يعلن هؤلاء بالرفض القاطع . فإما أن يدخلوا في الدين من الباب نفسه الذي دخل منه الفقراء أو . . لا . فليبقوا على كفرهم . . . ! !

إن للسياسة منطقاً لا تعرف في قاموسه حدوداً للشرف أو القيم الكبيرة في هذه الحياة ، وقد حكى التاريخ أن ملكة روسيا افترشت عرضها لقائد تركي حصر جيشها في إحدى المواقع وقد نجحت فعلاً في فك الحصار . وقد تكون نجحت في ميدان السياسة . ولكن الذين يفكرون في نقل هذا الأسلوب إلى ميدان الدعوات الكبرى لن ينتظروا منا إلا أن نركلهم بأقدامنا إلى بعيد . . .

إن النصر يعوز المسلمين فعلاً والحناق علينا شديد أتريدون طريق النجاة ؟ يوم يطلع الله عليكم فيرى أن في التمكين لكم تمكيناً للفضيلة والمعروف وأن في إسناد الأمر لكم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . . . يومئذ فقط يفرح المؤمنون بنصر الله ويومئذ ينجاب الغشاء وتنكشف الضراء .

« الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » .

لو أن المسلمين لما اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ابتعدوا به عن مواطن اللهو ومجالس العبث لكان ذلك أدنى إلى الجد وأقرب إلى توقيف كلام الله عز وجل .

ولكنك تعجب لصورة التلاوة الشائعة والسماع المعروف وتجزم بأن الأمر خرج من حدود العبادة المرجوة القبول . وأصبح هزلاً لا يستساغ البتة .

لقد جاء في الحديث « إن هذا القرآن نزل بحزن . فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » وليس المعنى ادعاء التأثر وتصنع الخشوع وإنما القصد إشراب القلب خشية الله واستحضار هيبة صاحب الكلام والمقارنة بين النصائح المبذولة في تضاعيف هذا الوحي الكريم وبين صدور البشر عنها وجماع الشهوات دونها مما يؤذن البشرية جمعاء بشر مستطير .

أما أن تتحول مجالس القرآن إلى حفلات صاخبة . يرسل القارئ نغماً فيتبعه

السامعون « بتأليها » وتأوهات ، وإعجاب وطرب ، وتمايل ونشوة ، واستعادة واستجادة ، فذلك كله دجل صغير ومسلك ناب سقيم وجرم يستحق مقترفوه التأديب .

فضلا عن أن تصايح هؤلاء المعجبين لادلالة فيه على فقه ولا يقين فلو كلفوا بجهد في سبيل الله أو بذل لإعزاز هذا القرآن أو تضحية لإنفاذ أحكامه .
لخرست الألسنة الصياحة وانفضت الجموع الملتاعة .

إني أكره من أعماق قلبي اختلاط الطاعة بالمعصية وتنفيس الإنسان عن شهواته باسم أنه يعبد الله .

ماذا على من يعجبهم التلحين والتطريب أن يستمعوا لذلك في قصيدة غزل وأن يبتعدوا به عن كتاب الله .

وإذا كان الناس يحبون أن يزينوا القرآن بأصواتهم فما غناء هذه الزينة في عصر عطلت فيه أحكام القرآن . وأصبحنا نجد أمما لا تسقط من القرآن حرفا وقد أسقطت العمل به كله .

إن آيات الإنذار تنطلق أحسب أنها غارات ورجوم تنزل على الأهواء والوساوس فتحطمها فإذا بي أسمع صوتا خنثا حمقا ينبعث بالاستحسان الطائش .
ويطلب الإعادة في ابتسام يكاد يتحول ضحكا . فاذ كر قول الرحمن في وصف عباده « واذن إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » بيد أن هؤلاء عموا وصموا . . إنهم لا يعقلون حرفا مما يسمعون !

يا أمة القرآن . ماهكذا يعبث بكتاب الله .

« وقالوا : ما لنا لا نرى رجلا كذا نعدهم من الأشرار ؟ أتخذناهم سخرى أم زأغت عنهم الأبصار ؟ . إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ! ! ... »
كأن غرور الجبارين وسفاههم من اللوازم التي لا تنفك عن ذويها أبداً .

لقد كانوا في الدنيا أغبياء عند ما صادروا العقائد وحاربوا الأحرار وضيقوا عليهم الخناق . وإنهم كذلك في الدار الآخرة . . لم تفارقهم هذه الغباوة ولم يستحيوا أن يتساءلوا : ما لنا لا نرى رجالا كفا نعدهم من الأشرار ؟ .

كيف ترونهم وأين ؟ ؟ لقد ارتفع كتابهم في عليين على حين هويتم أنتم في أسفل سافلين . لقد حسبتم أنفسكم عظماء لأنكم ملكتم وحكمتم وحسبتم أنفسكم أقوياء لأنكم قتلتم وسجنتم . وظلتم في غوايتكم سادرين فما رجعتكم إلى الله بتوبة ولا أخلصتم لعباده في عمل وطالما استهزأتم بمن دعا إلى الله وعمل بشرعه واستمسك بحكمه . . فاليوم بعد ما أعزهم الله وأذلكم تتساءلون : ما لنا لا نرى رجالا كفا نعدهم من الأشرار ؟ ؟

إن الذكريات تعود بي إلى أيام المحنة القريبة عندما انطلقت كلاب الصيد تتخطفنا من المدائن والقرى وألسنتها مندلعة كأن بها جوعا إلى النهش من لحومنا . ثم رمت بنا في أطراف الصحراء البعيدة وفتحت لنا معتقلات بذلت الجهد أن تجعل منها مقابر . .

واستمعنا إلى أصحاب الأقلام المأجورة يصفوننا — نحن حراس الأمان والإيمان في الشرق — بأننا خطرون إرهابيون ، أشرار !! أجل أشرار . . وسيتكرر هذا الوصف منكم لنا مرة أخرى عندما تسلكون في سقر ، ثم تتصايحون مع أشباهكم من الأوغاد ، ما لنا لا نرى رجالا كفا نعدهم من الأشرار ؟ ؟ .

وهكذا تفعل الحكومات العاجزة في هذه البلاد المسكينة ، إنها لما عجزت عن تعمير الصحراء بالزروع والثمار كما فعل اليهود عمرتها بالمنافى وشحنتها بالأحرار من حملة المبادئ ، وأوعزت لأبواقها من المتسولين والمرتقين أن يقولوا فينا خطرون وأشرار .

إن إهداء النعوت السخيفة ديدن السفهاء في كل عصر . ووصف الأطهار الأبرياء بأنهم أشرار أشقياء ليس بدعة هذا الزمن ، فإن الكفار في عهد الدعوة الأولى ، كانوا يسمون النبي العظيم « مذمما » وهو أحق بشر بالحمد في مشارق الأرض ومغاربها . ولقد علق النبي على هذه التسمية بقوله : « ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما وأنا محمد » وبهذه المواجهة الحصيفة لتطاول السفهاء يموت الخصوم بغيظهم ويؤدي النبي صلى الله عليه وسلم رسالته في مضاء وإصرار . وما انطلق عظيم في هذه الحياة إلى غايته حتى يواجه من الكيد واللؤم عقبات وعقبات .

وستظل القوى الغاشمة تمضي على غيرها وتطارد أصحاب الحق أبدا « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون » .

إذا جاء الشر من حيث تنتظر الخير كان وقعه على النفس شديد القسوة . هب أنك اشتريت دواء يستشفى به من علة مؤذية فإذا بالدواء فاسد التركيب مخلوط بالعناصر الخطرة ، كيف تكون المفاجأة إذا تناولته لتستريح فوجدت فيه الختوف والمعاطب ؟ .

هذا هو بلاء الإنسانية من الدعاة الكذبة والعلماء المزورين تصور قوما عملهم أن يمهّدوا الطريق إلى الله ويتعبوا في قيادة الناس إليه ثم هم ينقلبون على رسالتهم فيقطعون الطريق وينفرون الناس ، ويا كلون السحت ! يقول الله في أمثالهم « إن كثيرا من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

تصور قوماً يكرهون الإيمان ويغتazon إذا انشرح به صدر ، ويتمنون

من صميم قلوبهم أن يبعد الناس عن الله ، ويقعوا في الشرك « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا . . » ولم ذلك ؟ لأن إشباعهم لشهواتهم واطمئنانهم إلى مكانتهم أغلى عندهم وأهم من الدين واتباعه « .. حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق » .

هذا الصنف الذى يحترف الدين — على غير عقيدة ويصطنع الدعوة على غير إخلاص ويثرثر بالاصلاح ويبارز الله بالعظائم ، إنما هو لعنة تحيق بالأمم ومد في موجة الشر . وكما كثروا في أمة انتشر فيها الفساد :

كان رسل الله قديما آحاداً وسط شعوب هائلة فهدوها للخير . أما هؤلاء المتأكلون باسمهم المرتزقون من مواريتهم فإنهم يكثررون وتكثر معهم الأزمات الروحية والضوائق المعنوية لأنهم طابور للشر يشتغل تحت راية الخير ، فلا تنتظر منه إلا الخيانة والدسائس .

اشتغلوا بخدمة أبدانهم فسمنت على حين خف فقهها ، ولذلك قال النبي فيها : « إن الله يكره الحبر السمين » وكان مفروضا عليهم أن يحياوا للمثل العالية فوقفوا حياتهم على خدمة الأغراض الحيوانية ، ولذلك جاء في الحديث أن الواحد منهم تندلق أمعاؤه من بطنه فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى ، أجل لقد دار حولها في الدنيا فهو مربوط بها في يوم الجزاء . . .

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .
وأن الله سميعٌ عليمٌ »

هذه سنة ماضية في المجتمع الإنسانى قديمه وحديثه يخضع لها الأفراد كما تخضع لها الشعوب .

إذا أحل الله بامرىء خيراً فلم يحسن القيام به والتصرف فيه يوشك أن

يقبضه عنه وينقله إلى غيره ممن ترشحه أخلاقه لحسن العمل فيه
والإشراف عليه . .

ومن حكم النبوة البالغة ما روى (إن لله عند أقوام نعماً أقرها عندهم ما كانوا
في حوائج المسلمين . ما لم يملوهم ! فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم) .

فسناد النعمة الذي ترتكز عليه وتستمسك به تقدير صاحبها لها ومسارعتها
إلى أداء حقوقها ومعرفة أنه موظف فيها يبقى منتسباً إليها ما بقي وفياً لها . . فإذا
تبرم واستبد فسوف تطيح به الأقدار يوماً .

وإذا استخلف الله أمة في الأرض فإنما يهبها الله نعمة الأمان والتمكين
والسيادة لمصالح ترتبط بمنصبها وحقوق تجب رعايتها وجهاد لا يصح النكول عنه
وأهداف لا يجوز نسيانها . وقد قال الله لليهود قديماً (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم
من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من
طيبات ما رزقناكم ولا تطفؤا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحل عليه
غضبي فقد هوى) .

وهذا القول الموجه لليهود مسوق كذلك لكل أمة . والمسلمون مخاطبون بما
فيه من إنذار مخوفون بما فيه من وعيد . بل إن ما أصابهم من إذلال بعد استخلاف
ومن رق بعد سيادة يرجع إلى ما تضمنته آيات الله من سنن لا تتخلف
ولا تحابي أحداً .

إن هذه الآية جاءت تعليقا على الهزيمة التي أصابت المشركين في غزوة « بدر »
فقد عرض الإيمان عليهم أمداً طويلاً وعرفوا بالله وبدينه أتم تعريف فلما أبوا
إلا الجراح والضلالة خسف بهم ، كانوا من ما لهم في سعة وبين العرب في منعة
فسلط عليهم الجوع والخوف وأصيبوا في بدر بنكبة أذهبت ما لهم
وأسقطت هيبتهم .

ومثل هذا لا يتم في يوم وليلة فإن الأحكام الإلهية الحقّة تستغرق شهورا أو دهورا في نفاذها وذلك دأب القدر مع الأمم السابقة « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ؛ إن الله قوى شديد العقاب » .

إنما تلمع في الأفق بوارق النصر وتضحك بوادره يوم يتهيأ المؤمنون له بأخلاقهم وأعمالهم ، ووفائهم وفدائهم .

وإنما صارت بلاد الإسلام مستنقعا تتجمع فيه الأكدار والهزائم لما انخفض مستواها وهبطت قيمتها ، فإذا ارتفعت كالجبل الأشم تحدر من على جوانبها كل ما تكره وعرف الناس لها فضلها ونبيلها .

« إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس فبشرهم بَعَذَابٍ أَلِيمٍ ، أولئك الذين حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَأْوَاهُمُ مِنَ النَّاصِرِينَ »

قد يرتكب الفرد هفوات يسيرة ثم يقلع عنها وينجو من عقابها .

قد يقع في ورطة تفسد عليه حاضره ومستقبله معا .

والدولة في ذلك كالفرد قد يرتكب رجالها إنما خفيفا فيمرون به . وقد

يقعون في ورطة تحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة تسجل عليهم خزي الهزيمة وقلة الناصرين .

هناك من الناس من يخسرون الدنيا ويكسبون الآخرة وهناك من يخسرون الحياتين جميعا . . وملاحظة تاريخ الأفراد والجماعات تنطق بهذه الحقيقة فالشر مراتب وآثاره متفاوتة .

والقدر الذى يرقب المجرمين قد يمهلهم حتى يقتربون الذنب الذى يطفح به
الكيل فيأخذهم أخذة أسف لا تبقى لهم رسما ولا وسما . أجل فإن مساوىء الأمور
يسلم بعضها إلى بعض وتتوارد نتائجها الوخيمة على المجتمع متلاحقة متا سكة حتى
تنتهى به إلى سوء المصير .

ذكر القرآن الكريم أن الله حكم على اليهود بالخزى . وأبان أن هذا الحكم
كان جزاء منكرات ارتكبوها وأن هذه المنكرات الغليظة بدأت أول الأمر
عصيانا ثم نما نبتها وانتشر شوكها .

فقال تعالى : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من
الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . .) وما سبب ذلك ؟
(ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات ويقتلون الأنبياء بغير حق . .)

ولم هذا الكفرو القتل ؟

(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

فكأنهم استحقوا الذل لما استهتروا بالكفرو القتل . وكأنهم تجرءوا على ذلك
لما استباحوا العصيان والعدوان .

وهذا ترتيب دقيق فالعصية ترتكب أولا على استحياء ثم تقترب على توقع
ثم تصبح عملا معتادا لا يحس فاعله بخرج والمجتمع الذى يتطور إلى أسفل على هذا
النحو يصم أذنيه أولا عن دعوات المصلحين ثم يضع يده فى أفواههم يريد
إسكاتهم . ثم يقرر آخر الشوط إخماد أنفاسهم والأمة التى تنهدم فيها منابر
الإصلاح وتخرس فيها ألسنة الحق لا تلبث أن تهون فى الحياة ويسلط عليها
خصومها وهذا ما حدث لليهود عندما قتلوا المصلحين والمرسلين فحقت بهم
اللعنة . . ولئن دل هذا على شيء فعلى ضرورة تيقظ الدعاة والمرشدين إلى بذور
الفتنة ومغارس الجريمة يقتلونها فى مهدها حتى لا تقتلهم عند اشتدادها ومن ثم

تنكب الفضيلة في الصميم . أعجبنى قول ابن مسعود فيما رواه أبو داود (إن رسول الله علمنا سنن الهدى . وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه . وما منكم من أحد إلا له مسجد في بيته ولو صليتم في بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لكفرتم) .

وتفسير هذا الكلام أن ابن مسعود يخشى أن نتعود ترك الجماعة فيجر هذا إلى ترك الصلوات نفسها ثم ينتهى الأمر بالنكوص عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ثم الانسلاخ عن الإيمان جملة ! !

والذى يلاحظ سير الأحوال العامة وأسلوب الخروج على الفرائض والآداب يتأكد من صدق هذه الملاحظة فالحريق المستعرة تبدأ شعلة هينة والموت المجهز يبدأ مرضاً تافها والله في خلقة شئون .

أهواء العوام لا تهادن

عادت محطة الإذاعة إلى عاداتها القديمة في تلحين الأذان وإخراجه للناس غناء مائماً كرية الأداء سيء الواقع ...

ونحن ننظر إلى هذه النكسة لنستفيد منها عبراً شتى . ولا يهمنا أن نسجل النتيجة القريبة لما حدث كله ، من انتصار البدعة وانهزام السنة وغلبة المجون على الجد والصواب ، وتمكن المتسولين بالعبادات من تحويل الدين إلى هـو ولعب ! تلك كلها نتائج مأموسة لا يهمنا هنا إثباتها . إنما يهمنا أن نبرز الوسائل التي أدت إلى هذه النهاية لنعرف منها حقيقة الأساليب التي يطارد بها الإسلام وتستغرب بها فكرته وتستبعد بها دولته ...

وأول ماننبه إليه من هذه الأساليب هو نجاح الغزو العقلي في إفساد تفكيرنا وإضلال تصورنا لمبادئ ديننا الحنيف ! .

ولا أدل على ذلك من أن وزيراً كبيراً يكتب في صحيفة سيارة فيعترض على الأذان المشروع . بحجة أن الكنيسة أدخلت الموسيقى في محرابها لتغري الجماهير بالتردد عليها ، فلماذا لا نسمح لمؤذني المساجد بأن ينهجوا نهج الكنيسة في إغراء الناس بالإقبال على بيوت الله ؟ .

ومن هذا القبيل أن صحافياً من هـواة النشر والتعليق كتب يقول : إن الأذان فن ، وإن الأداء الفني أمر تتحكم فيه الأذواق ولا يسمع فيه رأى الفقهاء ، أو يلتفت فيه لقواعد الشرع ! وكتب أزهرى يمنح نفسه لقب دكتور إن التغنى بالأذان والإضافة إليه لاشيء فيهما . وساق كلاماً ملاً به صفحة كاملة يدلل به على أن الابتداع من هذه الناحية مستحب !! وأخيراً التقت عدة آراء على أن الفن يجب أن يسود وأن الخبراء بالفن أولى بالتقديم من العلماء بالفقه . ومن ثم صبح النزول على توجيههم والانصراف عن غيرهم ...

ومضى هذا الغزو العقلي في طريقه فإذا برجال الفن « ! » يفتحون باباً آخر من أبواب الفتن التي شوهت الإسلام ومسخت تعاليمه مسخاً شائناً . إذ كتب أحدهم عن « حلقات الرقص الديني » التي يسميها السفهاء ذكر الله !! كتب يشرح بواعثها النفسية ومدى ما تتضمنه من أصول فنية تستحق الرعاية والإشادة ، بغض النظر عن أحكام الشريعة في هذه السماجات .. وذلك ما نشرته « الجمهورية » في ملحقها الصادر في ١٢/٣/١٩٥٤ تحت عنوان « رقصة الذكر » قالت : « تقام في مناسبات (موالد الأولياء والصالحين) حلقات تجمع حشداً من الرجال تسيطر عليهم إلى جانب العاطفة الدينية نوع من الولاء الخاص لهؤلاء الأولياء ويتوسط كل حلقة من هذه الحلقات التي تعرف باسم « الذكر » أو « الحضرة » منشد أو أكثر من منشد ...

ومهمة المنشدين ترديد بعض قصائد المديح أو القصائد الشعبية التي تقوم على تمجيد شتى الصفات الأخلاقية والجمالية في غناء يقوم على إيقاع رتيب ، أما الحشد الذي يلتف في الحلقة فلا يلبث أن يستجيب لغناء المنشد ولأنغام الصفارات ودقات الدفوف الرتيبة المصاحبة للإنشاد ، ويأخذ كل واحد في تحريك رأسه ثم صدره .. ثم الجزء الأعلى من جسمه حركات ثنائية الاتجاه تماشي في سرعتها وقوتها درجة دقات الدفوف ...

وليس من شك أن هذه الحلقات الشائعة في المدن والأرياف تتضمن نوعاً من الرقص البدائي الساذج الذي يرضى فطرة أصيلة في النفس البشرية .. فإن الجسد يستجيب بطبيعته للنغم كما أن الميل للرقص والحركة طاقة غريزية . وبالرغم من معارضة وكرهية بعض رجال الدين لهذا اللون من الرقص فإن الذين يمارسونه يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنهم يمارسون طقساً من طقوس الدين والعبادة .. وبالطبع من الضروري أن نواجه هذا اللون من الرقص باعتباره ظاهرة اجتماعية لها صلة بالفن . حقا قد يرى علماء النفس وعلماء الاجتماع في هذا النشاط حقائق نفسية أو عادات اجتماعية تحتاج إلى دراسة وعلاج .

ولكن مواجهة هذا النشاط بعين الفنان تثير في الذهن أسئلة تتعلق بالمجال الفني وحده .
ما قيمة هذا الرقص . . وما هي العناصر الفنية التي يتضمنها . . وما مستواه
الفني . . وهل يمكن تطويره بحيث يجرى وفق نظام معين وقواعد محددة من
حيث الحركة والموسيقى والأزياء ؟ .

وهكذا تجدد حقائق الإسلام ، بل تجهل وتغفل ، ويتناول الخرافات
الزرية بعض الحق فيحاول إلباسها مسوح الدين ثم ينقلها بعد ذلك إلى الدائرة
المبهمه التي لا حدود لها ... دائرة الفن !!

ومن الميسور على أولى العلم أن يكشفوا النقاب عن كثير من البدع
والخرافات ، وأن يصارحوا العامة بما يقومون فيه من أخطاء . ولكن المؤسف
أن تملق الجمهور وترضيه يغلبان على بعض العارفين . بل لقد رأيت الحق يخفى
ويوغل في الخفاء لأن نفراً من الحراص على عواطف العامة كره مصادمتهم
وآثر الاعتذار لهم والتعمية عليهم ، ولو أن أدنى جور عن طريق وجد من يصرخ
عنده منذراً ، لا من يسكت عليه متأولاً ، أو مترخصاً ، ما أطبق على مجتمعنا
هذا السواد الكثيف من الجهالة والوهم ...

وقد كان سلفنا الصالح يرى شرطاً في رسوخ الرجل واستقامة إيمانه « أن
يكون حامده وذامه في الحق سواء » كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
فلاحمد الناس يغريه بإقدام ولا ذمهم يوسوس له بنكوص . مادام يعمل وقد أسلم
الله وجهه وابتغى ماله وحده ...

وأمتنا فقيرة إلى الرجال الصرخاء ، الرجال الذين يجابهونها بالحق ولو فقدوا
تأييدها لهم في معركة انتخاب قريب أو بعيد . . . وإذا كانت جملة من تعاليم
الإسلام قد ضاعت ، وجملة أخرى توشك أن تضيع بسبب تملق العامة والسكوت
عن باطلهم ، فإن جملة كذلك من دعائم الحياة الصحيحة ضاعت ، أو هي في طريقها ،
بسبب هذا الإغراق البارد في استرضاء الجمهور بدلا من تعليمه ولو بالوخز والوكز .

ولعل هذا هو السرفيا كتبه الأستاذ على أمين أخيراً تحت عنوان «فكرة» إذ قال :

الشعب المصرى شعب مظلوم ! ويظلمه الذين يحترفون الدفاع عنه ، وإيهامه
إذا مرض بأنه فى تمام صحته ، وإقناعه إذا ضعف بأنه فى أعلى مراتب القوة ،
وإفهامه إذا أفلس بأن تحت أقدامه مئات الملايين من الجنيهات ! وإذا أخطأ
أقسموا له أنه فى عدالة الآلهة ، وحكمة الأنبياء وخبرة أساتذة جامعات موسكو
وستالينجراد . . . وإذا انهزم فى معركة أكيدوا له أنه انتصر وذكروه بأنه من
أحفاد الفراعنة الذين بنوا الأهرام ، والهكسوس الذين طردوا الفراعنة
والرومان الذين طردوا الهكسوس ، والعرب الذين طردوا الرومان .

وبهذابقى الشعب فى فقره وحرمانه وجهله ، واستطاع المحترفون أن يتاجروا
ويكسبوا على حساب الجهل والفقر والحرمان .

ونحن نقول إن هذا الشعب غير معصوم من الخطأ ، وإنه فى بعض الأحيان
يفكر بقلبه وعواطفه وإنه فى بعض الأحيان يغمض عينيه ليرى ، ويخلق أذنيه
ليسمع . وإن من واجبنا أن نقول له أنت أخطأت ، لا أن نصور له الخطأ على أنه
صواب ، ليتأدى فى أخطائه ، وإن علينا أن نفتح له العيون إذا أغمضها ، والآذان
إذا أغلقها . وأن ننير له الطريق حتى يرى أين اللصوص وأين الأشراف ، وأين
الحرية وأين الفوضى ، وأين الديمقراطية وأين الطغيان . . . وأين الرخاء وأين
الرشوة واستغلال النفوذ . . .

ونحن غير راضين عن مستوى هذا الشعب . وزيد أن نرفع هذا المستوى مالياً
وعقلياً وأديباً . . . ولا يمكن أن يرتفع الشعب إذا قلنا له إن جليابه الأزرق أجمل
من بنطلونات الشعب السويسرى ، وحكمه على ساسته ، أنضج من حكم الشعب
البريطانى ، ومستواه الأدبى أرق من مستوى الشعب السويدى !

إن من واجبنا أن نصارحه بالحقيقة . . . وقد يغضب اليوم وقد يصم أذنيه
ويغمض عينيه . . . ولكنه سيرى ويسمع غداً . . . ويقتنع بعد غد !

نذير

أظن أننا — بعيدا عن مراسيم الحكم وسلطان الحاكمين — نستطيع أن نصنع الكثير لديننا . ففي ميدان الثقافة والتربية ، وبين أرجاء المجتمع الرحب ، وفي ميدان المال والاقتصاد ، بل في دولاب العمل الحكومى القائم والتشريع الوضعى السائد — يجد الرجل المخلص لدينه مجالا واسعا لتحقيق رسالته وأداء أمانته .

ومن عجز عن إسداء خير لأمته في هذه الأنحاء فهو في غيرها أعجز ! كيف يدرك الكل من فشل في تحصيل البعض ؟ كيف يصلح أمة من أعياء إصلاح أسرة ؟ .

إن المنى بضائع الحمقى . والشباب الذين يحملون بالأمة الإسلامية في حين أن واقع حياتهم ملىء بالخدوش ، ولأقول منخور بالفراغ ، هم شباب هازلون .

إذا لم يكن الطالب المسلم مبرزا في علومه ، وإذا لم يكن التاجر المسلم مكينا في ثروته ، وإذا لم يكن الموظف المسلم أميناً في ديوانه ، وإذا لم يكن الجندي المسلم آية في شجاعته ، وإذا لم يكن المهندس المسلم نابغة في فنه . . . وإذا . . . وإذا . . . وإذا لم يكن أولئك جميعا صورا طيبة شائقة لليقين الحق والأدب الجم والمعاملة القائمة على التوقير والرحمة والنقاء . . . أفترى أحدا من هؤلاء المقصرين يحسن به ادعاء الإسلام فضلا عن ادعاء الصدارة فيه والقيادة له ؟؟ .

إن جلد الزناة والمفترين ، وقطع السراق والمفسدين مواد من فروع الفقه تنضاف من تلقاء نفسها إلى قانون العقوبات يوم تريد الأمة باسم الإسلام إصلاح قوانينها . . .

والقعود عن العمل في انتظار ذلك ، أو اعتبار المطالبة بهذا الإصلاح عملاً هائلاً .. وجهاداً مضنياً . هذا — في نظري — ضرب من الكسل ، أو لون من الفرار دون أداء الواجب الأصيل الذي يفرضه الوقت . وهو كما أسلفت خدمة الإسلام في ميادين الثقافة والتربية والاجتماع والاقتصاد ... الخ وهي خدمة تفرض على راغبها يقظة مرهقة ونشاطاً عظيماً . حتى تنفسح الميادين الكبرى لعمل آخر تتحقق به رسالة الإسلام .

وأؤكد لإخواني أن الميادين الكبرى لا ينجح فيها العلم القليل ولا الخلق الضعيف ، ولا يتقدم فيها العرج من ذوى الهمم المشاولة والأنفاس الباردة ، ولا يوفق فيها المشغولون بأنفسهم . ثم هي لا يؤذن في دخولها — ابتداءً — لمن يجهل قيم الرجال ، ويستمرى قلب الأوضاع ممن يصغر الكبار ويكبر الصغار ، ويتلمس للأبرياء العيوب ، ويخفى عيوب الشائئين ... ذلك أن الذى يفقد ملكة التقدير وفضيلة النزاهة أبعد الناس عن الحكم بما أنزل الله .

إننى أخشى أن يكون الكلام فى الإسلام أصبح عملاً لجمهور كبير من الناس كان ينبغى أن يعقلوا ألسنتهم ، ويطلقوا أيديهم حتى يتركوا الضمائر تشهد بنبل سلوكهم وجلال إنتاجهم خصوصاً فى عصرنا هذا ...

فإن الثغرات التى يهدد الإسلام منها كثيرة مخوفة . وما لم يستيقظ الحراس فالويل للغفاة ولمن وثقوا فيهم من العامة .

فليؤد كل مسلم واجبه لدينه حيث كان ، قبل أن يفوت الأوان .

إنه كما تعجز العصا — مهما اشتد الساعد الذى يحملها — عن مواجهة دبابة زاحفة أو طائرة منقضة ، تعجز الوسائل التافهة عن تحقيق أى كسب فى ميدان الأدب والثقافة ، وميدان العلم والصناعة ، وميدان السلم والحرب . إنها لا تعجز فحسب ! بل ترد وبالا على أصحابها ومشاراً للسخرية منهم ، أمام خصوم أتعنوا وسائل الغلب واستكملوا أسباب النجاح ...

والإسلام في هذا العصر يعاني هجوماً منظماً ما كرا ، رسم في أناة ودقة سياسة بعيدة المدى طويلة الأجل تنتهي حتماً بالقضاء عليه ، وعلى أمتة الكبرى ما لم تقفها مقاومة مستميتة صادقة ، وما لم تحتشد لردها كل الوسائل الصحيحة والقوى المتفوقة أو — على القليل — القوى المكافئة ، التي يجمعها أنصار هذا الدين والآخذون به ...

ولن أسأم من التنبيه مرة أخرى إلى أن الرجال الذين التصقوا بالإسلام ، ونصبوا أنفسهم لحمايته مازالوا يحملون (العصا) القديمة في ملاقات أحدث الأسلحة ! بل أستطيع الذهاب في اتهامهم إلى أبعد من ذلك . إنهم قبعوا في أماكنهم يتحدثون ويتحمسون . ولم تحدثهم أنفسهم أو يوحى إليهم حماسهم أن يدعوا أماكنهم العتيدة ويبرزوا إلى عمل رائع . كأن الدعوة إلى الإسلام قطار يسير على شريط من القضبان الممتدة الممهدة فليس يخشى عليه عثار أو اعتراض . وهذا جهل بالإسلام كبير وبالحياة أكبر ...

إن الجندي الذي يكلف بحراسة الأمن لقاء جنديات قليلات قد يفقد حياته وهو يؤدي واجبه في مطاردة لص آبق أو معتد أثيم ...

فما بال الذين نصبوا أنفسهم حراساً على الإيمان واقتطع لهم من الدنيا المال الجم والجاه الواسع لقاء هذه المناصب . ما بالهم يبنون خططهم على كل شيء إلا التعرض للحتوف والاستهداف للنوائب ؟

كيف يقوم دين بهذه الخطة ؟ وكيف تنكسر شوكة الماكرين به . وبين جوانحهم روح الهجوم وبين جوانحننا روح التوجس والمحاذرة ؟

إن لواء المشركين في معركة أحد فني تحت قبيل من بني عبد الدار وهم يذودون عنه ! أفتحسب أن هذا الاستقتال في صفوف المشركين كتب عليه الفشل آخر الأمر إلا لأنه وجد تجاهه استقتالا أشد ، وإقداما أقسى وأحد ، ورغبة في التضحية أقوى وآكد ؟ ...

إنه لولا رجحان المسلمين — في خلال القوة — ما كتب لهم على عدوهم نصر .
ذاك من الناحية النفسية . أما من الناحية المادية والعقلية فإن جمهور المسلمين
الأولين ما كانوا قط أنزل رتبة من غيرهم ولا أدنى مكانا . . لم يكن المسلمون أميين
وخصومهم أذكاء مخترعين . لم يكونوا أقزاماً أو أصفارا في شئون التجارة
والصناعة وخصومهم عمالقة جبارين . . .

كانوا في هذه النواحي الخطيرة سواء . . .

وبذلك أخذ الإسلام طريقه في الحياة بوسائل لا افتعال فيها ولا افتيات .
وأي نقص يعتري الإسلام — في مقدار هذه الوسائل — فالعمل الأول والأخير
يجب أن يقوم على سده . لأنه لن يبلغ غاية قريبة أو بعيدة عن طريق القفز في
الهواء والسير على الماء !

في هذه الفترة الصعبة من تاريخ الإسلام يجب أن نعقل ما نحن عليه ، وما عليه
غيرنا . ويجب أن نزيح من طريق العمل للإسلام الأشخاص الملتأئين العاجزين عن
إدراك الوسائل الحقة وعن توفيرها . إنهم عوائق وحجب لا أنصار وأعوان . . .
أنظر بعينيك اليوم كيف أقام اليهود إسرائيل ، وأي الأسباب جمعوها حتى
وصلوا إلى هذه النتائج السريعة ؟

وانظر إلى ساسة الشرق وحدثني عما ترى :

إن ساسة الشرق الإسلامي من أبرع الناس في صوغ الخطب الرنانة . ولكن
الخطبة البليغة من الطبيب هي إقامة مستشفى كبير ، والخطبة البليغة من المهندس
هي مد طريق أو تشييد جسر ، والخطبة البليغة من الضابط هي إجادة صناعة
الموت ، والخطبة البليغة من الوزير هي إتقان فن الحكم . والجماعة التي تزعم
العمل للإسلام ثم لا تحول أعضائها على عجل إلى رجال مبرزين في شئون الحياة
وقادة مرموقين في ركب الحضارة هي لاريب جماعة فاشلة .

من أيام استقبال المسلمون ذكرى ميلاد نبيهم استقبالا يدلّك على مبلغ فقههم
في الإسلام وإعدادهم لتحرير أرضه وإنقاذ تراثه .

أنشئت سرادقات تعد بالآلاف لبيع الحلوى ! وكان ينبغي أن تحرم أفواه
الجاهل من هذه الحلوى لينفق ثمنها في إرسال الأقوات للاجئين المطرودين من
أرض فلسطين !

كيف نسينا هزيمتنا هناك ؟ وكيف نسينا إخواننا الذين يعانون ذل الحاجة
والخوف والضياع ؟

وهناك سرادقات أخرى تسمع فيها الخطب الطوال . هناك خطب أنا أسميها
خطب السكر الإلهي ، أو على حد تعبير المتصوفة خطب الخمر الإلهية ، لأن
موضوعها يقوم على إسقاء السامعين معاني تثير في أبدانهم نشوة دينية مهمة .
لا صلة لها بحقيقة الإسلام الواضحة ولا بحاضر المسلمين المر .

وفي نفس سخط كبير على أولئك الخطباء السحرة إنهم لم يغضبوا لله يوما ،
ولا ناصبوا العداة ملكا ظالما ، أو حاكما مجرما أو محتلا غاشما ! ولا تمعرت
وجوههم لإثم شقي به الناس وسخطه رب الناس ولا عناهم البحث عن أجدى
الطرق لانقاذ ديننا وبلادنا وأنفسنا من النكبة التي حلت بنا ! ذلك أن خطباء
السكر الإلهي لهم أسلوب انفردوا به في التحدث عن الإسلام جعل العوام
وأنصاف المتعلمين وأشباه المتقين يلتفون بهم ويهتزون لكلامهم اهتزاز
السكران الخبول .

ومن البديهي أن الإسلام يتأخر بهؤلاء ولا يتقدم ، وأن قضايا المعقدة لن
تزيد في أيديهم إلا خبالا ، وأن الجمهور الساذج الحائر لن يهتدى إلى طريق
العمل الصالح والإنتاج السليم لا بالقاء هذه الخطب ولا بالإنصات إلى أصحابها .

انظر إلى ميدان العلم في بلادنا . إن بعثات التبشير وما إليها أسست عشرات المدارس المبتوتة الصلة بالإسلام حتى أن الإسلام في ميدان التعليم الحر غريب .

وانظر إلى ميدان الصحة . إن مصانع الادوية ومتاجرها الكبرى والصغرى قلما اهتم المسلمون بها ونبغوا فيها .

ولو ذهبنا نستنبى شتى الميادين عن جهد المخلصين لله الهاتفين بالقرآن والسنة لو جدنا قصورا مخزيا . ومرد ذلك إلى غباوة الخطباء المتحدثين عن الإسلام والرؤساء المسكين بزمام التوجيه العام وغلبة المحترفين والهواة على الفاقهين والمبصرين .

إذا سبقت في ميدان السياسة لأنك جبان ! أو سبقت في ميدان البر والاحسان لأنك كسول . وإذا انهزم دينك بين يديك فلم تمسح عنه غبارا ، وأقبل عليك الجمهور فكان قصارك أن تبدأ معه حديث ألف ليلة وليلة ، لا ينتهى كلام حتى يتبعه كلام . . فكن ما تريد أو من تريد ولكن احذر أن تحسب نفسك رجل الإسلام أو حامل لوائه أو ترجمان دعوته .

الروح ... الروح

تبعث السباق الذي جرى هذه الأيام في نهر النيل . وأحصيت السباحين المهرة وهم يغالبون الموج ، ويجالدون التيار ، ويحاولون شق طريقهم في حماسة وعلى عجلة ليلبلغوا الغاية البعيدة . كم يقاسون من سبرات البرد واتصال العوم وطول الشقة !! ..

إن بعضهم هزمه الإعياء فانسحب ، وبعضهم كابر المتاعب الباهظة حتى أخرج من الميدان إخراجاً ، وبعضهم كبت الضنى في أعصابه وظل يرمي ب صدره إلى الأمام حتى وصل إلى شاطئ النجاح وهو يلهث وينوء ...

هذا السباق في نهر النيل ذكرني بالحياة نفسها ، وما يتمخض عنه الليل والنهار من سباق هائل بين جماهير البشر ...

بين الأفراد سباق على أهداف محدودة . وبين الأمم والمذاهب سباق على أهداف أكبر وأعم . وفي المجرى الدائم لهذه الحياة المصطنعة المائجة قد يلفظ اليم بعض الناس غرقاً ، وبعضهم منسحباً قد غلبه الروع أول الطريق ، وبعضهم متهاكاً والغاية منه على مدى سهم ، وبعضهم ناجحاً ناجحاً يطلب مكافأته وهو باسم قرير ...

ومن قديم وأولو الأبواب يعرفون هذه الحقيقة ، فإذا شاركوا في هذا السباق القائم أعدوا له عدته واستكملوا أهبتهم ثم رموا بأنفسهم في العباب الزاخر وملء قلوبهم الأمل في إدراك قصب السبق ..

وقد سخر شاعر حكيم من متسابق في هذه المباراة وهو واهن خائر فقال له :

ديبت للمجد ، والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
فكابروا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا!!
ولكن لعق الصبر وتحمل مرارته لا يستطيعه أو لا يستسيغه كل إنسان
والإنسان الذى يعالج الشدائد وهو باسم ، لا يهش إلا لمعنى أضمره فى فؤاده
وقبل من أجله الإرهاق . فهو فى الحقيقة يوازن بين ألمين ، ألم التعب والكفاح
والمهزيمة والسقوط ! فيختار أخفهما على رجولته ، ثم يمضى إلى هدفه — وحلاوة
الرجاء الذى يملأ روحه أشهى عنده من كل شيء ، وأغلب على فؤاده من لدع
الألم الذى يعاينه ... إن الإنسان يحمل الكثير فى بدنه يوم يطوى قلبه على
الكثير من المعانى ، وذاك قول البوصيرى :

وإذا حلت الهداية روحا نشطت للعبادة الأعضاء !!
والرسالات الكبرى هى التى تتعهد النفوس بالإذكاء والإعلاء ، والتى
تشحنها شحنا بفضائل القوة وخلال المناخة العميقة ...

والإسلام أغنى حركة ظهرت فى الحياة بهذه المعانى الحية ، إنه وجود
جديد استطاع على الإنسان بغاية مجاوة وصراط مستقيم . فإذا بدوافع الخير المؤكد
تسوقه ، وأمانى المستقبل الكريم تحدوه ، ذلك لأن الوحي الذى يوجهه
روح دافع « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن
أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » ...

والروح الدافع عاطفة حارة وهمة بعيدة . ومن ثم فالمؤمن الكامل لا يعرف
انكسار الهمة ولا سورات الخمول ولا استسلام الخور ...

إنه يعمل إلى آخر جهد فى نفسه ، وإلى آخر رمق فى حياته ...

إن التعبئة الروحية للفرد والجماعة ألزم للسير الدائب من البترول للسيارات
والطائرات — ويوم ينضب المعين الروحي للإنسان أو أمة فلن تقف فى الطريق
فحسب ، بل سيدفعها إلى الوراء زمام المتسابقين ، وربما ذهبت بدداً تحت
أقدامهم الراكضة ...

والقدرة على التغلغل في النفوس ومزج أعماقها بتعاليم الدين لا يملكها كل إنسان . والقادة الذين مدوا رواق الإسلام في هذا العصر وربوا جيلاً يتعشقه ويفنى فيه ، كانوا طرازاً خاصاً من أصحاب القلوب الكبيرة والمشاعر المشبوبة ، ما أن تتصل بهم حتى تحس إيحاءً دافقاً يتغلغل فيك ، ويخلعك عن حاضرك وماضيك ، ويسيرك مع القافلة الهاتفة لله العاملة لله ...

وكما توصل نور الكهرباء إلى بيتك فيندفع التيار إلى أسلاك لم يمر بها قبلاً ، كذلك يطويك شعور من الإيمان والإخلاص والثقة عندما تتصل بهؤلاء القادة وتسير معهم إلى الله ... إن الجندية للإسلام ليست احترافاً ولا ارتزاقاً ولكنها تطوع وافتداء أساسها العلاقة الموطدة بعالم الغيب والشهادة . ورجال الإسلام هم الذين يفلحون في إقامة هذه العلاقة وصيانتها ...

كنت طالباً بمعهد « الاسكندرية » عندما اتصلت بحسن البنا ، كان ذلك من عشرين عاماً تقريباً ، بيد أن الأمسية الرفافة العذبة التي وصلتني به لا تزال محفورة في ذاكرتي ، ولست أنسى طريقة هذا الرجل في صقل الأرواح ووصلها بينابيع الحياة والحركة من كتاب الله وسنة رسوله .. والتربية الروحية فن دقيق ، إن النار على مسافة محدودة تدفئ ، وعلى مسافة أقل تحرق . وكذلك تحدث الناس عن الدنيا والآخرة .. إن هذا الحديث قد يخلق الفدائيين ، وقد يخلق الانطوائيين المتواكلين ...

وأشهد أن حسن البنا عرف كيف ينقل الإسلام إلى قلوب واعية فإذا بها تتحدى الحتوف في ميادين البطولة ، وتكسب الحياة في ميادين العمل للدنيا ... إن خدمة الإسلام لا تصح خبط عشواء . وإنما تصح كما رسم القرآن : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ... »

والفتيان الأخيار الذين شرفوا الإسلام في هذا العصر هم ثمار ناضجة لهذه التربية الروحية الموقفة . فروسياتهم بالنهار وليدة رهبانيتهم بالليل . ونجاح خطاهم

في الحياة أثر صلّتهم الموثقة بالله . ترى هل تعود الليالي المباركات التي كنا نصف
فيها قلوبنا ، ثم نصف أقدامنا ونصلي لله ؟ ليتها تعود ؟ من أيام كنت أتصفح
مختارات من الشعر ردت على ذكريات الماضي البعيد . ذكريات الكتائب التي
جمعتنا على التهجد وبنّتنا على نيات الخير ...

لله ما كان أجلها من ليالات ، وما كان أنور الأصباح التي أعقبها .
إن الأحداث بلبت نفوسنا منذ هجرنا هذه المناهج الساهرة ...
أما الأبيات التي أثارت لواعج الشوق فهي ما قال ابن الرومي في وصف
العباد من قوام الليل :

تتجافى جنوبهم	عن وطىء المضاجع
كلهم بين خائف	مستجير وطامع
تركبوا لذة الكرى	للعيون الهواجع
لو تراهم إذا هموا	خطروا بالأصابع
وإذا هم تأولوا	عند مر القوارع
وإذا باشروا الثرى	بالحدود الضوارع
واستهلت عيونهم	فأضأت المدامع
ودعوا : يا ملىكننا	يا جميل الصنائع
اعف عنا ذنوبنا	للعيون الدوامع
أنت إن لم يكن لنا	شافع — خير شافع
فأجيبوا إجابة	لم تقع في المسامع
ليس ما تصنعونه	أوليائي بضائع
وابذلوا لي نفوسكم	إنها في ودائى

ونعود مرة أخرى إلى سباق النيل الكبير .

كان الجو بارداً قارس البرد ، لكن السابحين والسابحات أعانهم دفء
الأمّل على البقاء في الماء الصقيع أمدّاً طويلاً . بل إن طلاب المجد كلفوا أجسامهم
فوق ما تطيق ، إن أحدهم نقل من المباراة وعضلاته منهوكة وصدره ملتهب
يوشك على الهلاك أثر ما بذل من جهد ...

ألا يصنع الإيمان النابع من الروح الحى هذا الصنيع الرائع في ميدان
الحياة نفسها ...

إن البعث الإسلامى الجديد يجب أن يقوم ، بل لا قيام له إلا بهذا الروح
المتفانى الصبور ...

قائد . . .

المؤمن المخلص لا يصنع شيئاً ابتغاء أن يذكره الناس في محياه أو في مماته ، وإن كان حسن الذكر جائزة معجزة لمن يقومون بالحق وقيمون الناس عليه ، إنهم قد يلقون العنت والإنكار أول أمرهم ، ثم لا يلبث الغبار المثار أن ينجاب والفضل المنكور أن يثبت ، ثم تثوب الحياة إلى رشدتها وترد الحقوق إلى آلهما .

روى أحمد ومسلم عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به ؟ . فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » .

وقيل : إن هذا تفسير الآية الكريمة « الذين آمنوا وكانوا يتقون » لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم » .

وقد كان حسن البناء من أولئك الرجال الذين يظهرون في التاريخ على ندرة ، ويحدثون بمسلكهم الفذ موجات جارفة من الحركة والتجديد والمغامرة . فيضيق به من يضيق ويهش له من يهش ، ثم يميز الله الخبيث من الطيب ويستخلص الحق من الشوائب العالقة به فيعرف البشر جهد الجاهدين لهم والعاملين لخيرهم ، وتلهج ألسنتهم ثناء وتنويها بأمرهم . . .

ولحسن البناء — كغيره من قادة الدعوات — مادحون وقادحون بيد أن أشد الناس له بغضاً لا ينكر المواهب الجليلة التي أضفاها القدر عليه .

وأنت قد تتخاصم شخصاً فتحتقره لتفاهته ، وقد تتخاصم آخر فلا تملك إلا الاعتراف بميزاته والإكبار لخصائصه مهما اختلفت معه في تقويم الأشياء وتقدير الأشخاص . . .

ونحن بعد بضع سنين من مقتل حسن البنا نسائل أنفسنا : هل اعتبرناه بمصرعه ؟ وهل تدبرنا أحوالنا وأحوال الشرق كله على بصر بالظروف الغامضة التي اكتنفت مصرع هذا العملاق المخوف ؟ .

المخوف من الملوك الفسقة والحكام الفجرة ؟

أعرف رجلاً قتل ابنه فلم ير حرجاً من تقبيل اليد التي تلوثت بدمه . إن الجبان الذي انحنى ليفعل هذه الفعلة لا يقل إثماً — في نظري — عن القاتل نفسه

والناس قد يحزنون للجراح الجديدة ويستشعرون ألماً ولكنهم على مر الأيام ينسون ويذهلون . كما قال الشاعر :

على أنها تشفى الكوم وإنما نوكل بالأدنى ، وإن جل ما يمضي
ولسنا عباد أشخاص ، وإنما نكرم المبادئ فحسب في الرجال الذين يحيون
لها ويتجردون إلا منها . . .

كان حسن البنا رجلاً واسعاً ، في نفسه مجالات شتى للأمزجة المتباينة والبطولات المتنوعة . وذاك سر نجاحه في التجميع الغريب الذي قام به ، لقد التف حوله ألوف وألوف ، فأحسن توجيههم وأمكنهم من العمل للإسلام ، فأفادوا واستفادوا .

وإني أعترف بأن أحسن أصدقائي ما عرفتهم إلا في ميدان الدعوة وما زال رباط الحب الوثيق يجمعنا بهم ، ويدفع بقلوبنا وصفوفنا إلى خدمة الإسلام ونصرة أمته . .

وإني لأراجع خواطري التي كتبتها في السنين السابقة فأجد فيها كلاماً عن القيادات المختلفة وقيمها الخاصة يستحق أن يذكر هنا . ومنه تعرف مكان حسن البنا في المصلحين . . . في العدد (٣٨) من مجلة « المباحث » الذي صدر

في أول ذي القعدة سنة ١٣٦٩ ، ١٥ أغسطس سنة ١٩٥٠ قلت ما نصه : —

للقيادات الناجحة صور تتفاوت مجادة وعظمة . .

يعتبر قائدا عظيما ، هذا الذي يستغل ما تحت يده من قوى معدة فيدرك بها نصراً كبيراً أو يحقق مأرباً خطيراً أو يحرز نجاحاً واضحاً . . وعنصر الخير في هذه القيادة ، أنها لم تجهل ما لديها من وسائل العمل ولم تسيء استخدامه وليس يغمط من حقها أنها وجدت في مكان مهيباً ، ومن الواجب عليها أن تستفيد منه ، فإن الناظر في أمم الشرق ، وفي أحوال قادتها وحاكميها يجزم بحاجتها إلى هذا النوع من القيادات . فكم من رؤساء وزعماء جهلوا مدى ما معهم من قوى . بل ليتم جهلوا وسكتوا ! ! لكانما كان أكثرهم موكلاً بشعل الإيمان يطفئها وجذوات النشاط يخمدها وحبال الأمل يقطعها وسبل النجاح يسدها .

فجزاهم الله عن أممهم شر الجزاء .

ولئن كان القائد الذي يحسن الانتفاع مما معه عظيماً فأعظم منه ولا شك هذا الذي يوجد في بيئته لا تعطيه شيئاً البته ثم هو مع ذلك الفراغ يخلق خلقاً الوسائل التي يدرك بها غايته ويحقق رسالته . وعليه — في سبيل ذلك — أن يوجد الجند وأن يمهّد الميدان وأن يبتدع الأساليب وأن يكافح الزمن وأن تكون نفسه الكبيرة ينبوعاً دافقاً بالحياة والنشاط ليمد هذه النواحي جميعاً بما يصل بها إلى نهايتها المنشودة . وهذا الطراز من القادة يظهر في الحياة على ندرة . ولا شك أن الأنبياء وزعماء الإصلاح الديني هم الطليعة الكريمة في هذا الضرب من القيادات المجيدة . .

والنهضة الإسلامية التي انفجر نبعها في هذا العصر إنما أفلحت في خلق جيل جديد عندما استطاعت ربط القلوب بربها . فكان هذا الرباط الساحر مصدر القوة العارمة التي جمعت الشتات وأحيت الموات وأنارت الظلمات . . . بلى .

فالرجل الذي ينب إلى إلهه يدوس آلهة الأرض وينفسح صدره بجلال اليقين
وينتظر المستقبل بثقة عالماً أنه لا عليه وإن الله سيرسل السماء مدراراً ويزيده
قوة على قوته .

وقد تسرى طبيعة القيادة العظيمة — تلك التي تكلف بخلق السبب والنتيجة
مما — إلى الأجناد الذين يعتنقون الفكرة نفسها فيجدون أنفسهم في عالم
موحش مناوئ . فعليهم أن يستمسكوا بحبل الله ويسلموا وجوههم إليه فيزدادوا
بالاستغفار . والإنابة استمداداً للقوة واستعداداً للفلاح واقترباً من النصر .

كان حسن البناء — حيث حل — يترك وراءه أثراً صالحاً .
وما لقيه امرؤ في نفسه استعداد لقبول الخير إلا وأفاد منه ما يزيده صلة بربه
وفقهاً في دينه وشعوراً بتبعته نحو الإسلام والمسلمين والرجل الذي يشتغل بتعليم
الناس لا يستطيع في أحيائه كلها أن يرسل النفع فيضاً غدقا . فله ساعات يحمد
فيها وساعات يتألق وينير .

إن الإشعاع الدائم طبيعة الكواكب وحدها .

وقد كان حسن البناء ، في أفقه الداني البعيد ، من هذا الطراز الهادي بطبيعته
لأن جوهر نفسه لا يتوقف عن الإشعاع . .

سل الألوف المؤلفة التي التقت به . . . أو التي أشرق عليها الرجل في مداره
العتيق . ما من أحد منهم إلا وفي حياته ومشاعره وأفكاره أثر من توجيهات
حسن البناء ، أثر يعتز به ويغالي بقيمته ويعتبره أثمن ما أحرزه في دنياه . .

التقيت بالإمام الشهيد لأول مرة وأنا طالب في معهد الإسكندرية كما قلت وكنت
شاباً تجتذني دواعي التقى والعفاف ، وتناوشني مفاتن الحضارة الوافدة من وراء
البحار فكانت الغرائز المستثارة تدخل في مضطرب مأج مع إحياء الإيمان
الموروث ، واتجاهات الدراسة التي نتلقاها في علوم الدين . . ونحن جيل مخضرم

تلتقى في حياتنا تيارات متعارضة وما كان يعلم إلا الله ما يجول في قلوبنا وألبابنا من أسى وتعقيد .

وقد أورثتني معاناتي السابقة لهذه الأحوال ، تقديرًا لمشا كل الشباب ، ورقة شديدة لما يمررون به من أطوار .

ومن ثم أدركت أن الوعظ المجرد والتعليم العابر لا يجديان كثيراً في حل مشاكلكهم وعند ما استمعت إلى حسن البناء لأول لقاء بيننا تكشفت لي أمور كثيرة لا بد منها في صحة إبلاغ الرسالة وإمكان النفع الكامل بها .

ليس الداعية إلى الله ، أداة ناقلة ، كآلة التي تحمل سلعة ما من مكان إلى مكان ، وليست وظيفته أن ينقل النصوص من الكتاب والسنة إلى آذان الناس ، ثم تنتهي بعد ذلك مهمته !! .

كانت لدى حسن البناء ثروة طائلة من علم النفس ، وفن التربية ، وقواعد الاجتماع ، وكان له بصر نافذ بطبائع الجماهير وقيم الأفراد وميزان المواهب . . وهذه بعض الوسائل التي تعين على الدعوة ، وليست كلها .

والوسيلة التي تعتبر طليعة غيرها ، ولا تؤتي الدعوة إلى الله ثمارها كاملة إذا لم تتوفر لها ، هي إلهام الله للداعية أن يتخير موضوعه المناسب ، وأن يصوغه في الأسلوب الذي يلقي هوى في أفئدة السامعين ويترك أثره المنشود في نفوسهم وأفكارهم . إن القذيفة قد تنطلق كاملة العناصر تامة القوة ولكنها تقع بعيدة عن مرماها فتذهب هدرًا .

وما أكثر الخطباء الذين يرسلون من أفواههم حكماً بالغة تنطلق هنا وهناك كما ينطلق الرصاص الطائش لا يصيب هدفاً ولا يدرك غرضاً .

وحسن البناء كان موفقاً في اصطیاد الرجال ، وكانت كلماته البارة تأخذ طريقها المستقيم إلى عقولهم فتأسرها .

وذلك أمر يرجع إلى فضل الله أكثر مما يرجع إلى المهارة الخاصة واقتياد الكلمة من فم القائل إلى شغاف قلب السامع يمكن أن يقال فيه « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

وقد سمعت بعض تلامذة الإمام الشهيد يرددون المعاني نفسها التي كانت تجري على لسان الرجل . ويستحيل أن تجد في كلامهم عوجاً ، ومع ذلك فإن الفتح بها محدود . إن السماء وحدها هي التي تضع للإنسان القبول في الأرض . وقد كان حسن البناء ملاحظاً بعناية الله من هذه الناحية الهامة . ويوجد في العالم الإسلامي رجال في مثل علم الإمام الشهيد ، وربما كان لهم قلمه وأداؤه ولكن التوفيق الذي صاحب دعوة حسن البناء ، والنجاح الباهر الذي صادفه لم يلقه غيره مع تشابه الأداة ! .

وقد بدأ حسن البناء يربى الجيل الجديد للإسلام ، على الأساس الذي وضعه للنهوض به إنه يريد تكوين دولة إسلامية ، وإقامة حكم شرعي رشيد . فسلك إلى هذه الغاية الطريق الوحيد الذي ينتهي بها وإن طال المدى وتراخت الأيام وكثرت التكاليف . . طريق التربية الإسلامية .

وكان الساسة في ميدانهم قد هجروا القرآن ، فما تدور على ألسنتهم آياته ، وما تعرف في أعمالهم توجهياتها ، فإذا بهم يسمعون في ميدان السياسة واعظاً يقرأ القرآن ويستهدي بمنار السنة .

وكان الطيبون من أهل الخير قد نسوا في العزلة التي رمتهم الحضارة الغربية فيها أن للإسلام شريعة تحكم ودولة تسود . . فإذا بهم يسمعون في الصوامع والمساجد رجالاً يتحدثهم عن سياسة الدنيا باسم الله ، ويسوق حشداً من النصوص الحاسمة تدفع الصالحين إلى إصلاح ما فسد حولهم من شؤون الأمة ومراسيم الدولة .

وحسن البنا يعلم أن المسلمين هزموا في مواقع شتى كسرت شوكتهم في القرن الأخير ومكنت الغرب الكافر من ملاحقتهم في عقر دارهم بالإهانة والتسخير . وعرف الرجل أسباب الهزيمة معرفة دقيقة ، إن النفوس قد تحللت بالمعاصي ، والجماعة قد انحلت بالإسراف ، والدولة قد تهدمت بحب الدنيا وكرهية الموت . . . ومن ثم انتصر الكافرون .

فيجب أن تقوم النفوس بالطاعة ، وأن يحارب السرف والترف بالاقتصاد والاجتهاد ، وأن تعلم الأمة الإقبال على المخاطر لتسلم لها الحياة ، وأن يتم ذلك كله على دعامة موطدة من قوة الصلة بالله تشق الحناجر بهذا الدعاء « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » ! . . . ومن ثم ينتصر المؤمنون .

وقد حار أصدقاء حسن البنا وأعداؤه في فهم هذه السياسة الجديدة ، وتضاحك أهل الدين وأهل الدنيا ممن يبنون الانتصار على هذه الوسائل . وحق لهم أن يضحكوا ساخرين . . .

أما الماديون من أهل الدنيا فهم يحسبون ذلك دجلاً لا طائل تحته . وأما غيرهم فقد وقر في نفوسهم أن اللجأ إلى الله لا يكون إلا قرين العجز ، وأثر السلبية المطلقة في علاج الأمور ، وقاما يسأل أحدهم ربه إلا وهو محسور محسور . إن هؤلاء يحسبون الإنسانية مع خالقها كالابن العاق مع أبيه الغني لا يرجع إليه إلا مضطراً ، عندما تفرغ يداؤه من النقود . . .

ولو فقهوا الآية السالفة « ربنا اغفر لنا ذنوبنا . . . » لعرفوا أن قائلها كانوا صفاً مناضلاً في حومة الوغى تصرع من حولهم رسل الحق انتصاراً للحق وتقانياً في حمايته . ومع شدة ما يلقون — في ذات الله — من محن ، يثبتون ويؤدون واجبهم على خير الوجوه « وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا » .

على هذه الصخرة من علاقة الفرد بربه علاقة إنتاج وإقبال واستغفار لا علاقة كسل وإدبار وانهييار ، كان البناء حسن يجمع اللبنيات الجديدة لإعادة ما انهدم من أركان الحكم الإسلامى النظيف .

وما صدق الناس سلامة هذا الاتجاه فى التربية حتى شهدت بادية الشام وشيطان القناة أحفاد خالد وأبى عبيدة وابن العوام وابن الصامت ، صوراً متشابهة تتكرر بها معجزة رسول الله فى الآخرين كما بدأت فى الأولين . .

منذ أيام مشيت فى جنازة الشهيد عمر شاهين ، ثم سبحت بى الذكريات إلى أيامنا الماضية ، وارتسمت أمام عيني صورة الإمام الشهيد حسن البنا فقلت لنفسى إن الذى علم هذا الشباب كيف يستشهد فى سبيل الله هو حسن البنا ، وقد سبقهم الرجل فى سلوك الطريق التى رسمها فما كذبهم . . ولا كذبوه . . وأعدت النظر إلى الشباب الناصع الجبين من حول الجنازة المتهادية إلى الجنة ثم تلوت قول الله « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . . » .

الجهاد تربية

هل التربية التي يأخذ الإسلام أتباعه بها تتطلب مرحلة من الإعداد والتكوين تشبه المراحل التي يجتازها الطلاب في معاهد التعليم قبل أن يتولوا وظائفهم في الحياة؟

أظن أن هذه التربية لن تبلغ تمامها ولن تستقيم على نهجها إلا إذا خرجت بأصحابها من الصومعة التي يتحنثون فيها ، والتقت بهم وجها لوجه مع مشاكل المجتمع ومفاتيح الدنيا !!

أعني أنني إذا أردت تكليف أمة ما أن تجاهد لنيل حق ، وأن تلتزم جادة الصدق ومشاعر الإخلاص في جهادها ، فالطريقة المثلى أن تخوض مع أعدائها حومة الكفاح المر . وفي الساحة الواسعة يمكننا أن نغرس في النفوس ما نطلبه من إخلاص وصدق لا أن نؤخر التقاء الجمعين حتى تنضج الأخلاق التي نصبو إلى تكوينها بأسلوب مدرسي رياضي يشبه مسالك القدامى من المتصوفين !

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتبع الطريقة الأولى فهو يجعل من القيام بأعباء الرسالة وسيلة فهمها وخدمتها وإنجاحها ، فإذا علم الناس الوضوء أو الصلاة لم يفتح لذلك مدرسة تنظم حصصها وتلقى فيها المحاضرات الطوال ، بل كان توضؤه وإقامة الصلاة الأسلوب الأول لجمع الناس على الوضوء والصلاة وعلى هدى هذا المنهج العملي تصحح الأفكار الخاطئة ، وتكمل المعلومات الناقصة .

وإذا أراد نصرته دعوته لم يحدتهم طويلا عن أساليب الجهاد الناجح وشرائط إحراز الثواب المأمول ، بل قادهم فعلا إلى الساحات الحامية ، وعلى حرارة ما يعالجون من أحداثها ، ويقاسون من كربها كان يقول لهم : « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل »

فإذا وجد في بعضهم تطلعا إلى الظهور أو الغنيمة علمهم عقي هذه الآفات ،
سئل رسول الله عن الرجل يقاتل شجاعة ! ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى
ذلك في سبيل الله . فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله !
ومن المفيد أن نعرف أن أحاديث الرسول في القتال وشرائط خوضه لم تبدأ
إلا في المدنية ، أى بعد مواجهته فعلا !

وقد تجد بعض الناس يقول لك : إن المرء لا يجاهد في سبيل الله حتى يطهر
نفسه وينقى قلبه ليكون أدنى إلى نصر الله ، وأحق بتأييده .

وهذا كلام يجد الشيطان منه مدخلا لتعطيل شعيرة الجهاد وتعويق
الإقبال عليها .

فإن المرء لن يصل يوما إلى مرحلة يزعم فيها أنه اكتمل وطهر . وإدراك
الكمال — كما يقولون — هو في السعى الدائم إليه ، ومن أسباب نيله أن يجاهد
ولو كنت مرتكب الموبقات فإن هذا باب تطهر ورضوان .

وقد روى أبو هريرة عن رسول الله « الجهاد واجب عليكم مع كل امرئ
بر أو فاجر ، والصلاة واجبة عليكم خلف كل مسلم بر أو فاجر ، وإن عمل
الكبائر ، والصلاة واجبة على كل مسلم ، برا كان أو فاجرا ، وإن عمل الكبائر »

إن أساليب التربية الحديثة تتفق مع هذه السنة النبوية في تكوين الأتباع
وخدمة المبادئ ، وحبذا لو فقهنا حقيقتها .

استغلال

لا يجوز أن تستخدم فضائل الإنسان ضده . وعلى المرء أن يتحرى الأوضاع التي يقف فيها أو ينساق إليها حتى لا يأتيه الشر من حيث يتوقع الخير .
إن الكرم فضيلة يحمده الإنسان بها . ولكن الكرم إذا كان باباً يأكل منه الكسالى والقاعدون . فيجب أن يراجع الإنسان نفسه قبل البذل والعطاء .
وإن الوفاء خليقة يمدح الرجل عليها فإذا كان الوفاء وسيلة لانتصار اللئام وانتفاع الخبيثاء فيجب أن يحاسب الرجل نفسه قبل إنفاذ كلمته وإمضاء العهد إلى مدته .

ولا أعنى بذلك التخلص من قوانين الأخلاق — معاذ الله — وإنما أريد لأحرم الأوغاد ثمرات المحامد التي يكفرون بها أو لعلمهم يظنون الغفلة بأصحابها وإن أعمل بالأثر الكريم (لست بنخب ولا الخب يخذعني) .

في الجهاد اليائس الذي قام به البطل المصري الفلاح أحمد عرابي ضد الإنجليز انتهى الأمر بهزيمة ساحقة ، ماذا كان سببها ؟ سببها أن عرابي وثق بكلمة الأفك الفرنسي دى لسبس وترك القناة مفتوحة . فبعد أن دحر الإنجليز في كفر الدوار وولوا مدبرين جاءوا عن طريق القناة وألحقوا بنا شر الهزائم ولا يزالون معسكرين حول التل الكبير منذ هزمونا إلى اليوم . وقد اعتبرنا وفاء عرابي لى لسبس غفلة يلام عليها أشد اللوم . وأجمع النقاد على أن وفاءه هنا كان خطأ كبيراً .

ومع ذلك فالخطأ الذي وقع فيه عرابي مع دى لسبس هو نفسه الخطأ الذي وقع فيه العرب مع الأفك السويدي كونت برنادوت . فقد فرض عليهم الهدنة بعد ما كادوا يدكون أسوار تل أبيب ، فقبلوها ، ووضعوا السيف في قرابه ، وعادوا

من الميدان إلى أهلهم ليستجمعوا في الوقت الذي كان اليهود فيه يستغلون دقائق الهدنة لا ساعاتها في إكمال استعدادهم لسحق العرب والتنكيل بهم .
كان قبول العرب للهدنة ووفائهم لها كقبول عرابي لكلمة دى لسبس واحترامه لها .

والواقع أن في طبائع رجالنا أثراً من الوفاء الذي يأمر به الإسلام .
ففي أي عقد أو عهد يكونون طرفاً فيه لا يفكرون إلا في ما للعهود والعقود من حرمة .

ولو أدى ذلك إلى أفدح المغارم وأثقل التبعات .
أما رجال أوروبا فهم يحالفون الشيطان المصلحة . ويبقون العهود للمصلحة فإذا كانت المصلحة تقتضي غير هذا فالمعاهدات قصاصات ورق .
وقد اطردت هذه القاعدة حتى في المعاهدات التجارية القصيرة الأجل نلتزم نحن نصوصها ويعبث هؤلاء بها عبثاً يثير الاشتزاز .
والأمر خطير وهو يستدعي النظر في مبنأ التعاهد مع قوم هذا مبلغ فهمهم المعاهدات المبرمة .

(وما وجدنا لأكثرهم من عهد . وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) .
وبيننا الآن وبين إنجلترا معاهدة مفروضة . وقد سكنت هذه المعاهدة شعور العداء للخصوم الذي احتلوا ديارنا غدراً . وأفاد الإنكليز من ذلك سلامة خطوطهم وهدوء الجبهة خلفهم في أحلك الأزمات .
فلو أننا قمنا بثورة أيام (العالمين) لكانت إنجلترا محتلة الساعة بجنود المان ولتغيرت معالم الدنيا .

وقد نكشت إنجلترا بتعهداتها معنا . وهي تضع في أرضنا نحو نصف مليون

جندى وتقيم مصانع ومستودعات هائلة للعتاد الحربى مع أن هذه المعاهدة القائمة لا تعطىهم أكثر من عشرة آلاف جندى لعدة سنوات يحلون بعدها .

وأعتقد لو أن الأحزاب المتناحرة على الحكم فى مصر تعاهدت فيما بينها على إنقاذ البلاد ورعاية المصلحة العامة لكان ذلك أصح واجدى . أما التعلق بإيجاد معاهدة أخرى وانتظار الوفاء بها من الانكليز الغاصبين فعبث مكرر .

إن رجالات الشرق لا تزال فيهم بقية من احترام الكلمة سرت من تعاليم الإسلام القائمة على الوفاء .

أما زعماء الغرب فهم يمثلون دولا نهمة قلما تكترث لقواعد الشرف أو تهتم بإنجاز الوعود .

ذل . . .

لا تزال هذه الصورة تلاحقني وتنشر ظلا من الكآبة على نفسي ! صورة الخواجة (. . . ؟) وهو ينتقل بين ربوع الريف مراقبا أمواله التي أخرجها بالربا ومراقبا ما يضمن هذه الأموال من أطيان وأعيان ، وليس ذلك ما آلمني ! وإنما الذي ضقت به أشد الضيق منظر « على » خادم الخواجة وهو يتبع سيده الأجنبي هنا وهناك . وكان آخر مناظر هذه الخدمة المهيينة منظر « الخواجة » السيد ! وهو يمتطي حماره الفاره يسير عليه بهمة وقوة . ومن خلفهما على الخادم ! يجري حافي القدمين غارق الرأس في لبدته القدرة لاهث الأنفاس من ملاحقته للحمار النشيط ولصاحبه المستعلى المنتفخ المنطلق !!

مسلم مستعبد يجري وراء أجنبي سيد !

شمرت بأن كسفا من حقارة هذه الصورة قد سقط فوق رأسي وجللني بخزيه أنا الآخر وقلت : ليت — لو نفعت ليت — ليت تشريعاً يصدر فيمنع بنصوصه ما يحط بكرامة الوطنيين وما يمكن الأجانب من هذه السيادة المباشرة الفاضحة .

إن من المناظر التي تأكل قلبي أن أرى مصريا يمسح حذاء أوربي أو ما يشبه ذلك ويقاربه من الأعمال الوضيعة .

ثم بقي هناك هذا الملق المركوز في بعض النفوس للأجانب . يجب أن نعمل على محوه بالتعليم والتربية . فإن من السخف أن يكتب الرجل بطاقته بالعربية وغيرها . وهو لن يقدمها أبداً لغير المصريين . وأن من السخف أن يكتب البقال في بولاق اسمه بالفرنسوية لزبائنه الذين لن يكونوا أبداً من باريس !

ومن حوادث هذا الملق التي يجب أن تعالج بالتربية القاسية أني وقفت أمام

أحد الموظفين لعمل ما . فكان الموظف يرمق ويرمق غيرة من أفراد الجمهور بعبوسة وتقطيب وفجأة جاء أجنبي لعمل مثل أعمالنا فإذا بأساير الموظف تنبسط وفمه يبتسم ولسانه يجري بحديث أجنبي طويل مع صاحبنا الطارىء . فقلت في نفسي : هذا رجل كلبي المزاج . يسره أن يجد صاحبا له يظهر عنده ذلته ويبحثو عند قدميه ومثل ذلك الموظف وليد الفترات السود التي تعاقبت على هذه البلاد ونريد بشق الأنفس أن نمحوها محوا !!

صور

كان يمشى ويؤيد الخطأ يهز عصاه بيميناه ويقذفها أمامه بحركة رشيقة ويقذف قدميه خلفها في توقيع موزون متسق . وعلى عينيه منظار أزرق يخفي بلونه الزاهر ما وراءه من ذبول . وعلى جانب فمه سيجار أنيق لا تعرف كيف يتكلم وهو باق في وضعه هذا .

وحدث عن معالم الكبر التي تتدفق من شعره المصفف إلى حدائيه اللامعين ! كأن ما على جانبي الشارع من قصور شاهقات هي ملك يده أو ميراث أجداده الأجداد

سرت قريبا منه وأنا أحاول إطالة النظر إلى هذا الشاب الذي يمثل الآلاف من الشباب المفتون ! وحاولت أن أتعرف دخيلة نفسه خلال هذه الحجب المصنوعة التي اختبأ بينها . ونظرت إليه وأنا أتصنع البلاهة والتجاهل ! ولكني لم أجد شيئا في هذه الدمية المتحركة يستحق الاحترام .

ماذا وراء هذه الجهة المتألقة من تفكير وفهم ؟ لا شيء .

ماذا وراء هذا الصدر المزدان من إيمان ويقين ؟ لا شيء !

ما الذي يكسبه الوطن الفقير إلى الرجال من هذا الرجل الذي صنعت أكثره الزينات المتكلفة ؟ إن المضحك في أمر الكثيرين عندنا أنهم أخذوا

من الحضارة الأوربية أتفه ما فيها وجعلوه أخطر ما عندهم . السيجار الانكليزي يأخذ طريقه إليهم قبل الخلق الانكليزي والمنظار الأمريكي الأزرق هو كل ما خلب ألبابهم من الإنتاج الأمريكي و نعومة المظهر الوداع هي كل ما يدركونه من دمائه الحضارة ورقتها . . . فهل هذا الشاب هو عدة الغد المأمول ؟
إن للحياة صوراً ساخرة تنعكس على مرآة الواقع فتلمح النفوس في صفحته عجباً .

ومن العجائب أن تقل ضللتنا بالحقائق ويزداد تعلقنا بالقشور وتنقلب في أوهامنا معالم الأمور إلى هذا الحد المزرى !
أغاية الرجولة في عرف الشاب المريض سيجار ومنظار وميوعة ومرونة ودلال واختيال ؟

رحم الله الرجل الدميم الذي نظر في المرآة ثم قال :
فإن لم تك المرآة أبدت وسامة فقد أبدت المرآة جبهة ضيغم !

دعوة إلى الرقص

علم العرب والعجم والإنس والجن أنه كان للمسلمين ملك طويل عريض في ديار الأندلس ! عمرت به حيناً ثم حرمت منه وحرمت منها ، وانطوت بطون التاريخ على ذكرياته الحلوة والمرّة ! وقد يحدث أن ينبش المسلم الثرى عن رفات هذا التاريخ المدفون فإذا به يطالع أول ما يطالع من أنبائه — قول القائل :

ابك مثل النساء ملك تولى لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولكن الأستاذ الأديب محمد إسعاف النشاشيبي — جزاه الله — لا يرى بعد أن يطالع التاريخ الأندلسي البكاء مع النساء ، بل يرى الرقص .. مع النساء ! ويقول : « الرقص شيء حسن لا يجادل في حسناته وفضائله مؤمن » وطبيعي أنه يقصد بالإيمان شيئاً آخر غير الإيمان بالله ورسوله ، أي غير الإيمان بالإسلام وفضائله وحسناته ، فلما أعوزته الشواهد على صدق رأيه ذهب إلى كتاب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » لينقل لنا صورة من صور الخلاعة والتهتك الذي جنح إليه بعض الأمراء والوزراء الأندلسيين في عصور انحطاطهم وتحللهم ذلك التحلل الذي لم يزل بهم حتى أحلهم دار الهوان ... ذهب الأستاذ الأديب إلى كتاب نفح الطيب فأخرج منه القصة الآتية :

كان المنصور بن أبي عامر (سلطان الأندلس) قد عزم في يوم على الانفراد ، فأمر بإحضار من جرى رسمه من الأدباء والندماء ، وأحضر الوزير (أحمد بن شهيد) في محفة لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا في شأنهم . فر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، وطما الطرب ، وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد . فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عباس ، فجعل يرقص وهو متوكيء عليه ، ويرتجل ، ويومئ إلى المنصور وقد غلبه السكر :

هاك شيخاً قاده عذر لكا قام في رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتاً فأنثى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هـزها منفرداً نقرس أخنى عليه ، فاتكا
من وزير فيهم رقاصـة قام للسكر يناغى ملكا
أنا لو كنت كما تعرفنى قت إجلالاً على رأسى لكا
قهقه الأبريق منى ضاحكا ورأى زعشة رجلى فبكى

ونحن نذكر القصة آسفين ليرى القارىء فى ثناياها أطراف مأساة كابية
تصرخ بأسرار الانهيار الذى أصاب بناءنا وتفصح عن أسباب الهزيمة التى طوت
عن هذه البقاع أعلامنا . وقد كان المظنون بكل مؤرخ مسلم إذا عرض لهذه
المخازى أن يشير بها شتى العبر وأن يجعل من توجيهها دروساً تنفع الأمة
فى حاضرها ومستقبلها لا أن يذكرها على سبيل الاحتجاج لمحاسن الرقص وفضائله
ثم يدعو الناس إلى الاقتداء الأثيم بملوك ذلك مسلكهم ووزراء هذا عملهم !
يعاقرون الخمر ويهيجون للرقص ولا يجوز أن يشيع المسلمون سيرتهم إلا بالأسى
واللعن ... ثم هم لم يكونوا — بعد — شيئاً طائلاً فى المحافظة على دينهم أو المحافظة
على دنياهم حتى سئم المتنبي أبهتهم الكاذبة . وألقابهم الفارغة وصد عن الذهاب
إليهم قائلأ أبياته المشهورة :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالمهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

والعجب فى أمر كاتب مقال الرقص أن يذهب إلى كتب السيرة ليروى منها
كيف أن الأحباش رقصوا فى المسجد ، كأن المساجد صالات تتلوى فيها البطون
والظهور فيسوغ لنا أن نذكر ما حدث فيها بين يدي الرقص الأندلسى المخمور !!

أو كأن تشابه الألفاظ وسيلة للتلبيس على العقول وتضليل الناس عن الرقص
الذي شهدته الرسول والذي لم يكن في الحقيقة غير عرض عسكري طريف .
ماذا على الناس لو أراحوا الدين من عنت الأهواء الجامحة فإذا أرادوا
العصيان لم يلجأوا إليه بفتوى تشريعه .

ثم لنا أن نتساءل : هل الجو الذي يعيش المسلمون الآن في غيومه ورجومه
يتحمل هذا اللغو من الكلام ؟

ألا فليطمئن الكاتب الراقص ! فإن المسلمين الآن جميعاً يرقصون ولكن
كما يقول القائل :

لا تحسبوا أن رقصي بينكم فرح فالطير يرقص مذبحاً من الألم

فدائيون برغبات النفس قبل النفس

منذ أعوام دونت هذه الكلمات في مذكراتي « المؤمن يستهدف لنقمة الله قبل أن يكرس حياته لنيل السعادة في هذه الدنيا ! ألم يسلبه إيمانه النفس والمال ؟ ألم يرخص عليه الوالدين والأولاد والأهل ؟ ألم يحرمه لذة الوداعة في بيته والاطمئنان إلى رزقه ؟ إنما يجب على المؤمن أن يحرص على سعادته في الدار الآخرة وهو — رضى أم كره — لن يظفر بسعادته المنشودة إلا في جوار الله وحده . »

وقد عدت الآن إلى مطالعة هذه الكلمات وتبينت أني سطرتها في ساعة من ضغط الحوادث ومعاركة الآلام ! ولكن بها حقائق ثابتة على كل حال . حقائق مستوحاة من لب القرآن وهدى آياته . حقائق لا ينبغي إهمالها ولا يجوز أن تكون حياة المسلم بمعزل عنها . وقد سألت نفسي بعد قراءة ما كتبت من أعوام ، هل كنت وقافاً عند حدود ما كتبت ؟ وهل جافيت متع الحياة وحاذرت دسائس الجاه والمال وخاصمت رغائب العيش الرغيد ؟ وهل وطنت النفس على تحمل الآلام والاستعداد للتضحية والرغبة فيما هو خير وأبقى مما نواجه ونعالج من آمال ومطامع ؟ .

ولم أكن متحمساً في الرد بالإيجاب على كل هذه الأسئلة بل شعرت بالخلل والتقصير في غير ناحية من نواحي حياتي . وأدركت أن بنفسي حرصاً خفياً على أشياء كثيرة إن جاز التطلع إليها فليس يجوز الحرص عليها .

وعدت إلى نفسي أسأئلهما عن السر في هذا المسلك حتى اهتديت !!

إن حرص الإنسان على استشعار السعادة والاستقرار أمر لا بد منه . ونحن إذا كلفناه بأن يتعالى على لذائذ الدنيا وألا يهش لها فيجب أن يكون لدينا تعويض كامل نقدمه له ليشتعر نفسه بالسعادة والاستقرار حتى إذا فاتته اللذة المادية لم تفتته اللذة المعنوية وإذا فاتته الاستقرار في حياته العامة فلن يفوته الاستقرار في داخل نفسه والهدوء في راحة ضميره .

يجب أن يكون هناك شيء ما يملأ قلب الإنسان وعقله فلا يجعله يأبه للدنيا
لو انقلبت من حوله رأساً على عقب . هذا الشيء ليس عسير التحقيق . وقد رأينا
أمماً يفقد المرء فيها آباءه وأبناءه ويقف أمام أنقاض بيته المهدم وأمواله الضائعة .
ومع ذلك يبقى في عينيه بريق يدل على الكفاح والعزم والقدرة فعلام يدل هذا ؟
إنه يدل على أن النفس الإنسانية تستطيع أن ترخص أعز ما لديها وأحب ما إليها
إذا أرادت ذلك على أنها لا تفقد بذلك لذة المحبة والإعزاز ولكنها تستعوض بذلك
شعوراً آخر وحالاً أخرى يغنيانها عما فقدت !! فما هو هذا العوض المطلوب ؟ ؟

أهو انتظار الثواب الأخرى المؤجل ؟ قد يكون ! غير أنني أظن ذلك
عاملاً مساعداً فقط فإن الطبع البشري يرضى بل يهوى أن يأخذ القليل اليوم
على أن يأخذ الكثير غدا .

فما هو إذن ذاك العوض ؟ إنه ليس إلا تحول الإيمان إلى شعور ممتع مؤنس
فياض بالرغبة مستهين بالعصاب . . إن المرء قد يحرم لذة الشهوة ولكنه لن
يصبر على ذلك حتى يذوق لذة العفاف .

وقد يستشعر ألم المصيبة ولكنه لن يهدأ حتى يجنح إلى ثبات اليقين .

أما الحرمان من لذة الشهوة ولذة العفاف ومن راحة الحياة وراحة النفس
فذلك مطلب لا يحققه جهاد ولا تقوم معه طمأنينة .

هذا الإيمان وحده هو مصدر ما نسمع به من التضحيات وهو روح الفدائية
برغبات النفس من راحة واستقرار .

فتنة لا تعلم :

من أشد المشكلات التي أواجهها في عقليات العامة ما هبط إليها على
مر القرون من المسائل الخلافية الشائكة ومن الحقائق الفلسفية الخطيرة .
فمن طريق جهلة المتصوفة عرف هؤلاء العوام شيئاً من مشكلة وحدة الوجود .

وربما رأيت الرجل منهم يضيف إلى القليل الذي يعرفه عن نواقض الوضوء قليلاً آخر من الأقايص التي وضعها القائلون بالحلول أو الخابطون في فلسفة الإغريق .

ونتيجة هذا الخلط أنك ترى رجلاً شديد الغباء شديد الادعاء سيء الفهم والتصرف كالطفل الذي لا يخرج عن طور الطفولة ما قرأه من روايات وحكايات . وحدث مرة أنني كنت أحذر الناس من جريمة القتل وذكرت عقاب من يرتكبها « فجزأؤه جهنم خالداً فيها » فإذا برجل يصيح هل الخلود على جهة التأييد ؟ فعرفت أن في دماغ الرجل كلاماً من علم « الكلام » وأنه وصل إليه طرف مما دار من جدال بين كبار العلماء في هذا الموضوع . فتأملت لأن ما أودع الله في آياته من تربية وتوجيه سوف تصد عنه النفوس بما تطاير إليها وبما يضرها ولا ينفعها من تأويل وتفسير ! !

فقلت للرجل . لا عليك ! إن القرآن حكم بالتخليد ولست أعرف ولا يهمك أن تعرف أهو تهديد أم تأييد . .

ورجعت إلى نفسي — وأنا محقق — أتساءل ماذا لو حددنا المعارف التي تلقى إلى الجماهير ؟

وحصرنا الدائرة التي يفهمون فيها الكتاب والسنة وتركنا الترف العقلي يأخذ مجراه بين المتعطلين والمتبطلين ؟

إن بعض الحقائق يكون سوقها إلى من ليسوا أهلاً لها فتنة واضطراباً وجهور المسلمين يلقي الكثير من العناء لشيوع هذا الوباء ...

إن الواعظ الشعبي طبيب وصيدلي ! ! يشخص الداء ويركب الدواء . وأى خطأ في التشخيص أو خلط في التركيب لا ينتج إلا مضاعفات خطيرة .

فمن الحق — في صدد تعليم العامة — الإشارة إلى الموضوعات الحساسة أو مواضع الخلاف الكبرى بين الأقدمين . ومن الخير أن نفيض بدلاً من ذلك في أمور الأخلاق ومناهج الآداب العامة غير خاشين من ورائها عواقب التفصيل والاستطراد ...

تحريف الحكم عن مواضعه

... ومن العقبات الكؤود التي اعترضت مسير الإسلام في هذا العصر وأزرت بنهضته الجديدة ، وأعانت عليه إغاة ظاهرة ، صنف من الدعاة أوتوا لسنا ورزقوا جدلاً .

واتهم فرص الكلام فأسهبوا وازدهام إطراء الناس فأطالوا وأغربوا . ولكن الإسلام رجع بفصاحتهم القهقري ، فما كسب منهم في ميدان السياسة والاجتماع شيئاً ، بل إنه خسر كثيراً وأصابه من ثرتهم شر أى شر
ولك أن تسال مستغرباً : كيف هذا . . ؟

وإليك البيان . إن القرآن لم ينزل من السماء جملة واحدة ، لقد نزل نجوما مرتلة ترتبط بالأحداث المتجددة ارتباطاً كبيراً . ومن حكمة الله في سوق آياته على هذا النحو أن تنمو بفقهها ضمار المؤمنين كما تنمو الأبدان الفتية على الأطعمة الزكية . ذاك من الناحية الخاصة التي يقول الله فيها « كذلك لنثبت به فؤادك » .

أما من الناحية العامة فلكي ترتبط أحكام السماء بشئون الأرض وتجيء إجاباتها شافية كافية لما يقع من مسائل ويجد من أقضية ومعضلات . فلا يكون الوحي في ناحية وتكون أحوال الناس في ناحية أخرى ، وذلك ما تشير إليه الآية « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » .

والعلماء الذين ورثوا النبوة وراثته صادقة وأدوا رسالة الله أداء متقناً هم الذين يعرفون كيف يعالجون أحوال الأمم وأدواء النفوس بما أنزل الله ، فلا يخلطون في وصف دواء ولا يضلون في تشخيص علة ! وأحسب أن سوق النص في الصق الأمور مساساً به هو حقيقة الحكمة التي قال الله فيها : « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا . وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .

أى أن الدعوة إلى الله علم وفن . والداعية مع الثروة الكبيرة من النصوص التى انتهت إليه ينبغى أن يكون طبيعياً وصيدلياً . وأنت خير بأن اليد الجاهلة قد تمتد إلى قوارير الدواء وربما وقعت على سم يودى بها ، أو على مزيج لا يزيد بها إلا سقاما . . . كذلك يصنع السفهاء مع كلمات الله حين يميلون بها عن سياقها ، وحين يحرفون الكلم عن مواضعه تحريفاً يسىء إلى الآيات ، وإلى من نزلت لإرشادهم هذه الآيات .

أجل فليس من الإسلام أن تجيء فى حفل عرس لتقرأ « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » أو فى إعلان قتال لتقرأ : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً » . أو لقوم جحدوا الفرائض وتجرءوا على الله وعلى حدوده فقتلوا : « قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . . » أو لقوم يحترمون الفكر ويخضعون للبرهان فتقول : « قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة . . . » وهكذا . . .

وسوق النصوص فى طريق الهداية التى أرادها الله ليس فلسفة معقدة ، إنه لا يتطلب إلا فطرة مستقيمة وعقلاً نظيفاً . وأى امرئ يؤتى نصيبه من سلامة الفطرة واستقامة الفكرة لن يعجزه أن يسرد الآى الحكيم فى موضعه الذى يحتاجه ، فيقول الحق ويقرأ الحق .

أما إذا التاثت النفوس واستحكم الهوى ، فإن تعاليم الدين تذكر ليقرر من وراءها شىء آخر . . . !! وهذا ما أدركه على بن أبى طالب عندما سمع الخوارج يقولون : لا حكم إلا لله . فقال : كلمة حق يراد بها باطل . . .

إن مواد القانون توضع لإقامة العدل بين الناس ، ولكن العدل لا يقوم بكتابتها إنما يقوم بالقاضى الذى يحسن تطبيقها على الأحداث التى تعرض عليه ،

فإذا كان غيباً في فهم الوقائع أو غيباً في فقه النصوص أو غيباً في تنزيل هذه على تلك . . فلا عدالة ولا قضاء .

ولهذا حارب عمار بن ياسر في صفين وهو يقول :
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله !
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله !

من ثلاثة أعوام كانت منطقة قناة السويس تنزف دماء وكان اللصوص الحمر يعبثون بشرف الإسلام وكرامة أمته في البقعة التي ظلوا يحتلون بها من وادينا . . .
ولم أكن فيلسوفاً ولا متكلفاً عندما جمعت كتابتي وخطابتي يومئذ تحريضا للأمة على الثبات وإمساكاً لحماستها أن تبرد أمام مؤامرات القصر الملكي وأشياعه من الخونة البارزين أو الأخفياء . . .

بل كنت بهذا المسلك القريب مستجيبياً لتعاليم الدين ونازلاً على منطق الواقع وخادماً — فحسب — للنهضة التي تبغى مجد الإسلام وتود إعلاء كلمته وبناء دولته . . .

وليت قومي تابعوني في هذا المسلك ، إذاً لكان للإسلام صوت مسموع في المحو والإثبات والهدم والبناء بعد ما انزاح الملك العاثر وسقط الإقطاع الملتف به وأخذ الشعب يتنفس الصعداء . . .

لكن نفرأ من الناكسين على أعقابهم في الميادين الراكضة أبوا إلا أن يدعوا هذا المجال كله وأن يفيضوا في حديث آخر . هو في ظنهم الخاطيء ما يقوله الإسلام أو ما يخدم به الإسلام في هذه الأيام . . .

ووجد « الأذكىاء » عوضاً عن الحقيقة التي يجب أن يواجهوها ! فإذا بجهاد النفس محل محل جهاد العدو . ودروس التصوف العالي تسد مسدَّ الهجوم على الخونة والمغيرين .

وظلم الإسلام بهذا الكلام مرتين .

ظلم الحقيقة التي طمست وكان ينبغي أن يعرفها الناس .

وظلم الحقيقة التي حملت من مكانها ورميت في غير موضعها ، فلم تبق لها طبيعتها — كدواء — ولم تبق لها كرامتها — كنص من السماء ...

إن الإطناب في الثناء على الله جميل .

والمطالبة بإصلاح النفوس فريضة .

ومنذا ينكر أن معرفة الله أس الدين ، وأن صلاح القلب ملاك الأدب ؟ ولكن إذا كنت مديناً وجاءك الغريم يتقاضاك حقه . فما معنى أن تلويه عن غرضه بمحاضرة مسهبة في الزهد والتجرد ؟ .

إذا كانت للباطل صورة سمجة أفتظن للحق الذي يراد به باطل صورة مستحبة ... ؟

وقريب من عرض الدين على هذا النحو المحرف أن يستفتى الإسلام في جزء تافه من كل خطير ، فيسارع رجال الفتوى إلى الاحتشاد لبيان حكم الإسلام فيما سئلوا عنه ، ساكتين سكوتاً مريراً عما لم يعرض عليهم . وقد يكون في طياته ما يعد السكوت عليه كفراً ... !!

والحقيقة أن موقف الدين في هذه الاستفتاءات كالشاهد المأجور في القضايا الزور ! يطلب لأداء معنى معين ثم يصرف غير مشكور ولا مقدور ...

وكان حقيقاً بالعلماء أن يصدفوا عن الإجابات الصغيرة أو يبسطوا رأى الإسلام في « الموضوع » كله ، ما طوى عنهم وما كشف لهم .

أعجبني موقف الأستاذ أحمد شاكر من مسألة « ولاية المرأة القضاء » وعقبه على المفتين شغلهم بهذا الأمر على نحو قاصر عجيب .

قال — من حديث ثبتته هنا — :

سألت وزارة العدل العلماء فأجابوا . ولست أدري لم أجابوا ؟ وكيف رضوا أن يجيبوا في مسألة فرعية ، مبنية على أصليين خطيرين من أصول الإسلام ، هدمهما أهل هذا العصر أو كادوا ؟ !

ولو كنت ممن يسأل في مثل هذا ، لأوضحت الأصول ، ثم بنيت عليها الجواب عن الفرع أو الفروع .

فإن ولاية المرأة القضاء ، في بلدنا هذا ، في عصرنا هذا — يجب أن يسبقها بيان حكم الله في أمرين بنيت عليهما بداهة :

أولاً : أيجوز في شرع الله أن يُحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة ، بل بتشريع لا يبالي واضعه أو وافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟

إن المسلمون لم يبلوا بهذا قط ، فيما نعلم من تاريخهم ، إلا في عهد من أسوأ عهود الظلم والظلام ، في عهد التتار ، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلام التتار ، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته ، وزال أثر ما صنعوا من سوء ، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ، وبأن هذا الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلموه ، ولم يعلموه أبناءهم ، فما أسرع ما زال أثره . ولذلك لا نجد له في التاريخ الإسلامي — فيما أعلم أنا — أثراً مفصلاً واضحاً ، إلا إشارة عالية محكمة دقيقة ، من العلامة الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ .

والحافظ ابن كثير من أجل تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ومن أعظمهم . وقد ذكرها عند تفسير قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

وأرى أن أذكر هنا الآيتين اللتين قبل هذه الآية ، وهى كلها متصلة فى السياق :
 (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ،
 فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جملنا
 منكم شرعةً ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجمعكم لجملة أمة واحدة ، ولكن ليبولكم
 فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه
 تختلفون . وأز احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن
 يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم
 ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبعون ؟
 ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون !) .

فقال الحافظ ابن كثير : « ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل
 على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء
 والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل
 الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم ،
 وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية ، المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان ،
 الذى وضع لهم « الياسق » وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها
 عن شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها
 كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه . فصارت فى بنيه شرعاً متبوعاً ،
 يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فمن فعل ذلك
 فهو كافر ، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل
 ولا كثير . قال تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون ؟) أى يبتغون ويريدون ،
 وعن حكم الله يعدلون ؟ (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون !) أى ومن
 أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن به ، وعلم أن الله أحكم
 الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها . فإنه تعالى هو العالم بكل شىء ،
 الحاكم على كل شىء ، العادل فى كل شىء . » .

أرأيتم هذا الوصف القوي من ابن كثير في القرن الثامن ؟ ألستم ترؤونه يصف حال المسلمين في هذا العصر في القرن الرابع عشر ؟ إلا في فرق واحد ، أشرنا إليه آنفاً : أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكماء ، أتى عليها الزمن سريعاً ، فاندجحت في الأمة الإسلامية ، وزال أثر ما صنعت ؟ ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا منهم ، لأن الأمة كلها الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة ، التي هي أشبه شيء بالياسق الذي اصطنعه جنكيز خان ، يتعلمها أبناءها ، ويفخرون بذلك آباءً وأبناءً ، ثم يجعلون مرداً أمرهم إلى معتنقي هذا « الياسق العصري » ويشجبون من عارضهم في ذلك ، حتى لقد أدخلوا أيديهم في التشريع الإسلامي ، يريدون تحويله إلى « ياسقهم الجديد » بالهويني واللين تارة ، وبالمكر والخدع تارة ، وبما ملكت أيديهم من السلطان في الدولة تارات . ويصرجون — ولا يستحيون — أنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين ! ! وأنتم ترون ذلك وتعلمون .

أفيجوز مع هذا لمسلم أن يعتنق هذا الدين الجديد ؟ أعني التشريع الجديد ؟ أو يجوز لأب أن يرسل أبنائه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به ، ذكرأ كان الابن أو أنثى ، عالماً كان الأب أو جاهلاً ؟ ! .

هذه أسئلة في صميم الموضوع وأصله ، يجب الجواب عنها إثباتاً أو نفياً أولاً ، حتى إذا ما تحقق الجواب بالأدلة الشرعية الصحيحة التي لا يستطيع مسلم أن يخالفها أو ينفيها أو يخرج عليها ، استتبع ذلك — بالضرورة — سؤالاً محدوداً واضحاً : أيجوز حينئذ لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا « الياسق العصري » وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة ؟ !

ما أظن أن رجلاً مسلماً يعرف دينه ويؤمن به جملةً وتفصيلاً ، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتاباً محكماً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل

حال — ما أظنه يستطيع إلا أن يفتى فتوى صريحة بأن ولاية الرجال القضاء في هذا الحال باطلة بطلاناً أصلياً ، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة !! .

ثم يسقط السؤال عن ولاية المرأة هذا القضاء من تلقاء نفسه .

وثانياً : أيجوز في شرع الله أن تذهب الفتيات في فورة الشباب إلى المدارس والجامعات ، لتدرس القانون أو غيره ، سواء مما يجوز تعلمه ومما لا يجوز ؟ ! وأن يختلط الفتیان والفتيات هذا الاختلاط المعيب ، الذي نراه ونسمع أخباره ونعرف أحواله .

أيجوز في شرع الله هذا الاختلاط الفاجر الداعر ، الذي تأباه الفطرة السليمة والخلق القويم ، والذي ترفضه الأديان كافة ، على الرغم مما يظن الأغرار وعباد الشهوات ؟ ! .

يجب أن نجيب عن هذا أولاً ، ثم نبحث بعد فيما وراءه .

ثم يسقط السؤال عن ولاية المرأة القضاء من تلقاء نفسه .

ألا فليُجب العلماء وليقولوا ما يعرفون ، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه ، غير متوانين ولا مقصرين .

ذكرى...

تقد علينا ذكرى الإسرائ في هذا العام ، وقد أحاط بها إطار كئيب من
الأحزان والآلام . . .

أحزان اللاجئين من الأرض المقدسة بعدما شردهم عدوان اليهود واستباح
جرائمهم وأكل حقوقهم .

وآلام إخوانهم من العرب والمسلمين الذين يكابدون الأمرين من مؤامرات
السياسة العالمية وتجاهلها لأوضح القواعد ونكوصها عن أول الواجبات . . .

إن ذكرى الإسرائ إذ تميد للمسلمين المسكنة التاريخية لأولى القبلتين وثالث
الحرمين ، تعكر على النوام أحلامهم عندما تعيد لهم هذه الذكرى مخضبة بالدماء .
فالقدس الجديدة عاصمة لإسرائيل . . . والقدس القديمة على مرمى الرصاص من
بنادقهم . والدولة اليهودية التي ولدت في ميادين السياسة كما يولد اللقيط . . .
تدفعها الأغراض الاستعمارية الخبيثة فهي تجمع شرقاً وغرباً ، وتحاول الاتساع
طولا وعرضا ! فماذا يقول المسلمون في حفلات الإسرائ ؟ .

إن هذه الذكرى يجب أن تكون حافظاً دائماً يستصرخ الهمم القاعدة
لتسترجع ما فقدت وتحفظ ما ورثت وإلا فالويل للمغلوب . . .

ألا ما أصدق قول الشاعر :

تبينت أن الحق إن لم تتح له	بواسل - يخشى ظلمها - فهو باطل !
لعمرك لو أغنى عن الحق أنه	- هو الحق - ما قام الرسول يقاتل !
فلا تحسبن الحق ينهض وحده	إذا ملت عنه فهو - لاشك - مائل !
أقمه ، وأسنده ، ودعم بناءه	ودد عنه ذود الليث والليث صائل !
ولا تسندن الحق بالقول وحده	فإن عماد الحق ما أنت فاعل !

من العدل أن لا يطلب الحق عاجز فليس على وجه البسيطة عادل . . .
 ولكن قوى يشرب الدم سائغا إذا خضبت يوم الورود المناهل . . .
 لقد استطاع اليهود — بعد الجولة الأولى — في حرب فلسطين ، أن يضعوا
 قدماً على الأرض المقدسة ، وهم الآن يبذلون الجهود المبريرة ليضعوا القدم الأخرى ،
 ثم يستأنفون — بعد تثبيت أقدامهم — مراحل العدوان على ما وراء فلسطين من
 أرض العروبة والإسلام ! .

والظفر الذي ناله اليهود في أول صدام معنا قد يغريهم باستعجال النتائج
 وكيل الضربات . وما عرف به اليهود من غدر وخسة سيجعل عيونهم مفتحة
 لأحوالنا العامة ، وسيتربصون بنا الدوائر ، فإذا سنحت فرصة لليل منا فلن
 يضيعوها . ولهذا الوضع القلق دلالة الصارخة ! ! فلا شر اليهود بمأمون ،
 ولا سكوتنا على العدوان بممكن . . .

وعلينا أن نرسم خطط المستقبل وهذه الحقائق ماثلة أمامنا ، إن قضية فلسطين
 لن تتحول إلى قضية لاجئين ومشردين ، وإن شرف الإسلام أرفع من أن يعدو
 عليه إخوان القردة ثم يرتدوا سالمين موقورين .

وقد ترامت إلينا الأنباء بأن حشوداً للأعداء تجمعت على حدودنا ، وليس
 هذا بعجيب ، وإن لم يصح اليوم فإننا نتوقعه غداً . وأحق الناس من يؤخذ على
 غرة في مثل هذا الصراع الدامي الطويل .

فعلى مصر أن تأخذ أهبتها وأن تستيقظ لأداء واجبها .
 وعلينا نحن — حملة الإسلام وحماة دعوته — أن ننتبه إلى كل ما يدبره لنا
 خصوم بلادنا وخصوم العروبة من مكائد ومؤامرات ! .

أحسب أنه لا ضرورة للمداينة والمواربة ، فالأمر أخطر مما يتصوره الواهمون .
 لقد رأينا بأعيننا وسمعنا بأذاننا ما يصرخ بالهول ، وما يؤذن بالشر ،

ولطالما فكرت أن أعترض مسير الناس في أحد الميادين الكبرى ثم أصبح بأعلى صوتي : أنا النذير العريان ! يا قوم : إن اليهود يَبَيِّتُونَ للإسلام الويلات ، وتوشكُ حشودهم المعدَّة وجنودهم المدرَّبة ، أن تسيل بها الصحراء . ونحن غارُّون ذاهلون . ! ولكن ما جدوى صوت يضع صدهاء بين أبواق السيارات المنطلقة وضوضاء الجماهير الهائلة . . ؟ .

وصحفنا ؟ إنها تُؤثر نشر صورة عارية على نشر غضبة محترقة لو اعظ ذهب إلى « جنوب فلسطين » ثم عاد مُحَنَقاً مما رأى ! !

لقد اتصلت بكبريات الصحف لأحدثها عن منطقة « غزّة » وعن مجرى الأمور فيها ، فلما لمست في حديثي روح المسلم الذي ينظر إلى الأمور على ضوء القرآن والسنة ، انصرفت عني في لطف أو في عنف ! . ولكني جازم بأن هؤلاء الذين ينامون الآن في ظلال الأوهام الوادعة سيستيقظون قريباً على مسِّ الحوادث الفاجعة . إن اليهودية قد قامت إلى جوارنا ديناً ودولة ؛ وهي ماضية في خطتها التي نشأت عليها ، تشعل جذوة العقيدة في القلوب لتحيط بحكومة « إسرائيل » بسياج من الحديد والنار

وقد آخت العقيدة « اليهودية » تحت علم « التوراة » بين الوافدين من اليمن والعراق ، وبين الوافدين من ألمانيا وبولندا ، فأصبحوا صفّاً واحداً يحركه هدف واحد . ولقد نرى المشاة في جيش إسرائيل من يهود الشرق ، وبحارة الأسطول من فنلندا ، وأستونيا ، والطيارين من أمريكا وإنجلترا . ربط هؤلاء وأولئك ما وقر في نفوسهم من أن اليهودية دين ودلة . . . ! ! !

فإذا جئت إلينا وجدت عجباً ! إن نصف الدين مهذوم في المجتمع ، لأن تعاليمه معزولة عن الحكم ، ونصفه الآخر مهذوم في القلوب ، لأن الشهوات الرخيصة عصفت بمثلِه العليا عصفاً ولأمرٍ ما — خفي علينا سرُّه ! — اعتبرت قضية فلسطين في الميدان السياسي قضية العروبة وجامعتها . فتركيا وإيران تعترفان

بإسرائيل رسمياً وتتمنيان لها الخير — وهما دولتان مسلمتان ! — وفي الوقت الذي يلفّ العلم اليهودي — باسم الدين وحده — أتباع التوراة ، من أفريقيا وأوروبا تهون فيه آصرة الإسلام على كثير من الدول المنتمية للإسلام كما ترى ! . . . ثم يجب أن نعلم وأن نعترف بأن العقيدة لا تهزمها إلا العقيدة ، وأن التحلل الخلقى والانهيال الاجتماعى ليسا من وسائل النصر أبداً .

إن انعطاف المسلمين الشديد إلى القرآن وتعاليمه وأحكامه وترايطهم باسمه ومصارحتهم العدو والصديق بهذه الحقيقة الواضحة هو وحده طريق التحول في هذه الحرب بيننا وبين اليهود . وهى حرب لمسنا أن اليهود قد أعدّوا لها أولاً ففازوا في جولاتها الأولى ، وكسبوا كثيراً جداً وخسروا قليلاً جداً ؛ وانجلى غبار هذه الجولة فإذا بأهل فلسطين جميعاً مشردون ، وإذا بالجامعة التى قامت باسم العرب قد تراخت عقدتها ، ووهن أمرها .

واليهود يستعدون أوسع استعداد للجولة الثانية . والله ما يحز في نفسى شيء مثل أن أرى الذين خاضوا المعركة أول الأمر لم يغيروا إلا قليلاً — أو لم يغيروا شيئاً — من أحوالهم النفسية والخلقية . وأن منزلة الدين الإسلامى — فى حرب دينية — لا ترضى مخلصاً ولا عاقلاً من أتباع هذا الدين .

لقد علمت علم اليقين — بعد دراسة دقيقة — أن الضعف المعنوى المادى كان سبب الكارثة الأولى .

وإنها الجريمة فى حق الإسلام أن نسكت عن هذا البيان فى وقت يتهيأ فيه اليهود لمهاجمة بلادنا كرّة أخرى . . . !

حاتمة

حسبى تدوين هذا القدر من الكتابات التى جرى بها القلم فى الأحداث الأخيرة ...
إنها صورة لأرائى فيما أصابته الدعوة الإسلامية من نجاح أو توقف وسط
الدعوات المدنية التى تزاوجها فى ديارها . وتحاول إزالتها ، أو تسخيرها ،
أو تحويرها

وقد رأيت أن أهمل بعض المقالات التى رددت بها عن نفسى يوم استصدر
قرار بفصلى من هيئة الإخوان المسلمين .. إن ميدان العمل لله ورسوله أرحب من
أن يحتك فيه متنافسون وأسمى من أن يشتبك فيه متشاكسون ! وقد كنت حريصا
على الصمت الجميل يوم عرفت أنى سأعمل للإسلام وحدى . بيد أن أحداً من
خلق الله اعترضنى ليقول لى : إن تكلمت قُتِلْتَ (!) فكان ذلك التهديد هو
الحافز الفذ على أن أتكلم وأطنب .

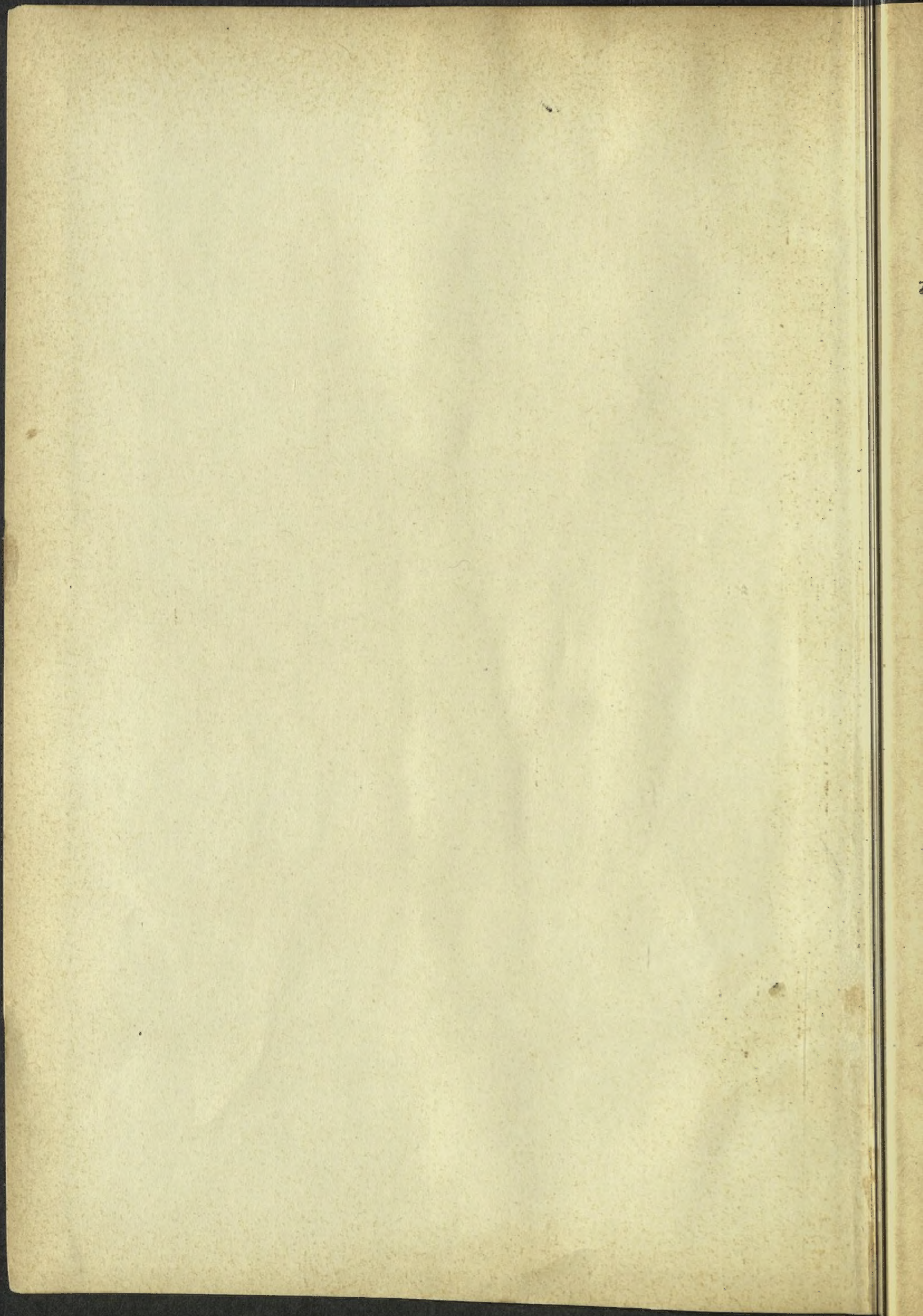
إن اللفظة الرقيقة تطوق عنقى فأستسلم ، أما التحدى فإنه يهيج فى طبيعتى
غرائز الخصام .

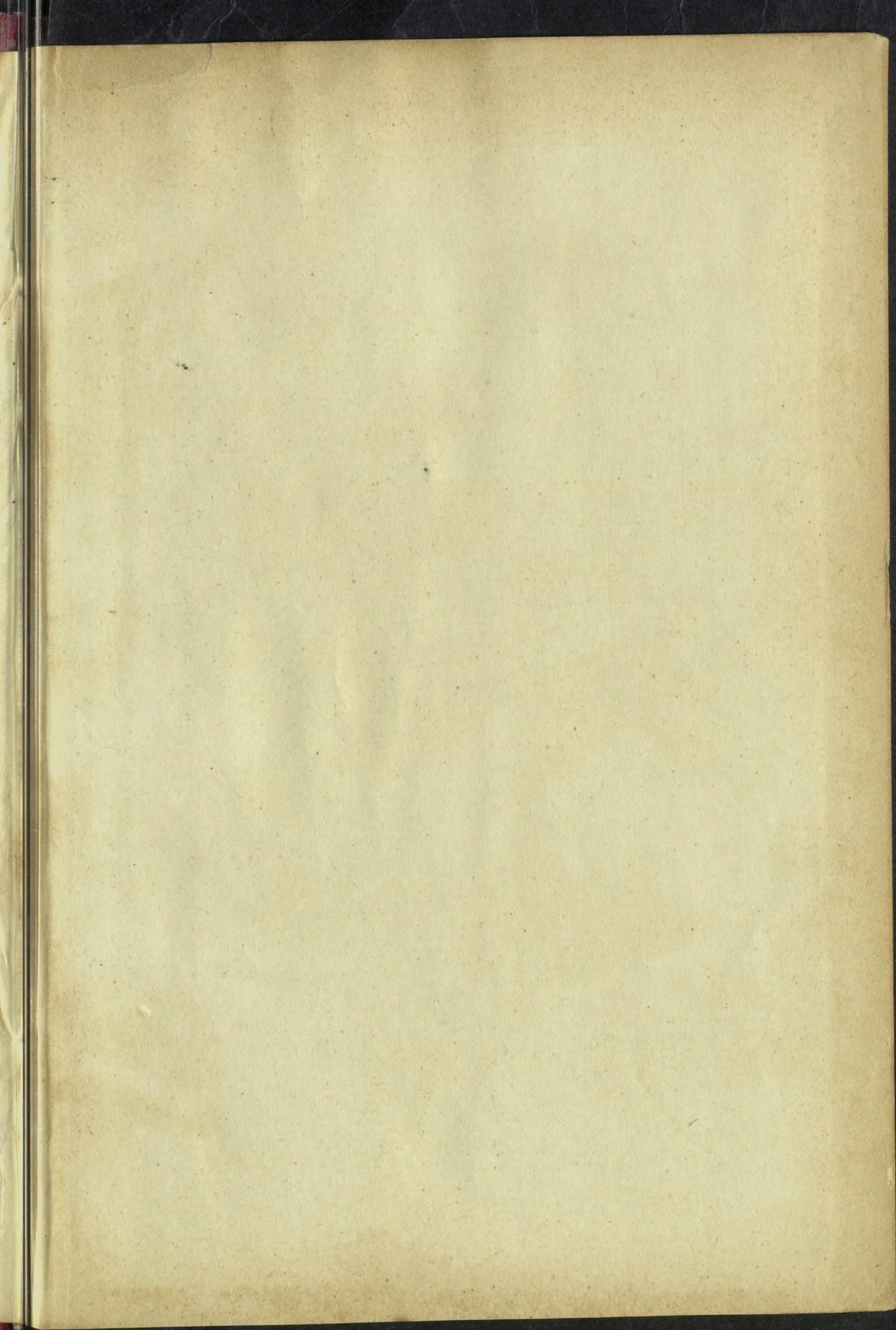
وقد يرى القارئ فيما كتبتة هنا ، أو فيما كتبتة من قبل ، خطأ فى فكرة ،
أو جوراً فى عاطفة ، أو شذوذاً فى نفس يجب أن تحذر وأن تحاصر !! ليسكن
ذلك كله أو شئ منه . فهذه نفسى وهذه صحائفى ، وأرجو ألا أتملق إلا ربى
وآلا أهتم لأحكام الناس

على أنى أسلط أشعة الحق على نوع من الناس طالما أفاد من قلبي ومن
لسانى ، وطالما اقتبس من رأيى ومن بيانى ثم . هو حرب على
لا تنتهى ، وذاك من تعاجيب الأيام ! إننى قد أعذر الذين كرهونى عن جهالة .
أما الذين أبغضونى لغير الله فجزاهم الله

فهرس

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١٢٩	... في أطوار الدعوات ...	٣	تصدير
١٣٦	... دواء مسموم	٦	تاريخ قريب ...
١٤٠	... نعم ... دين الدولة الإسلام ...	٢٧	موت الأبطال في الطريق ...
١٤٣	... أيها الشعب ... تعلم الحق المقدس ...	٣١	من صور القوة في القرآن ...
١٤٦	... فرنسا في بلدين ...	٣٦	من صور الفداء ...
١٤٩	... الإسلام جامعة	٤٢	العالم الإسلامي يجب أن يصحو .
١٥١	... النزعة القومية	٤٦	ميراث منسوب
١٥٣	... من ينصره ...	٤٩	الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة
١٥٦	... آيات ...	٥٣	التل الكبير بين الأمس واليوم
١٧٠	... أهواء العوام لا تهادن ...	٥٨	حول فلسطين والمشوهين ...
١٧٤	... نذير ...	٦٣	شهداء الجامعة في معركة التحرير
١٨٠	... الروح ... الروح ...	٦٦	نبي النور ...
١٨٥	... قائد ...	٧١	من أخلاق النبوة ...
١٩٣	... جهاد وتربية	٧٥	ملام وكلام ...
١٩٥	... استغلال ...	٨٢	رجال الحق ...
٢٠٠	... خواطر حرة ...	٨٧	الجهة الدينية ..
٢٠٤	... دعوة إلى الرقص ...	٩٩	أفكار في الإصلاح ...
٢٠٨	... فدائيون برغبات النفس قبل النفس ...	١٠٩	الأمة والفساد الملكي ..
٢١١	... تحريف الكلم عن مواضعه ...	١١٣	هل الحكم الشرعي كلام فارغ ؟
٢١٧	... ذكرى ...	١١٩	هل هو حكم شرعي ...
٢٢٢	... خاتمة ...	١٢٦	الشورى ركيزة الحكم الصالح ..





297.04:G41fA:c.1

الغزالي، محمد

في موكب الدعوة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01005789

American University of Beirut



297.04

G 41fA

General Library

